هزاع المجالي

مذكراتي

الطبعة الاولى

هزاع المجالي

مُذكّراتي

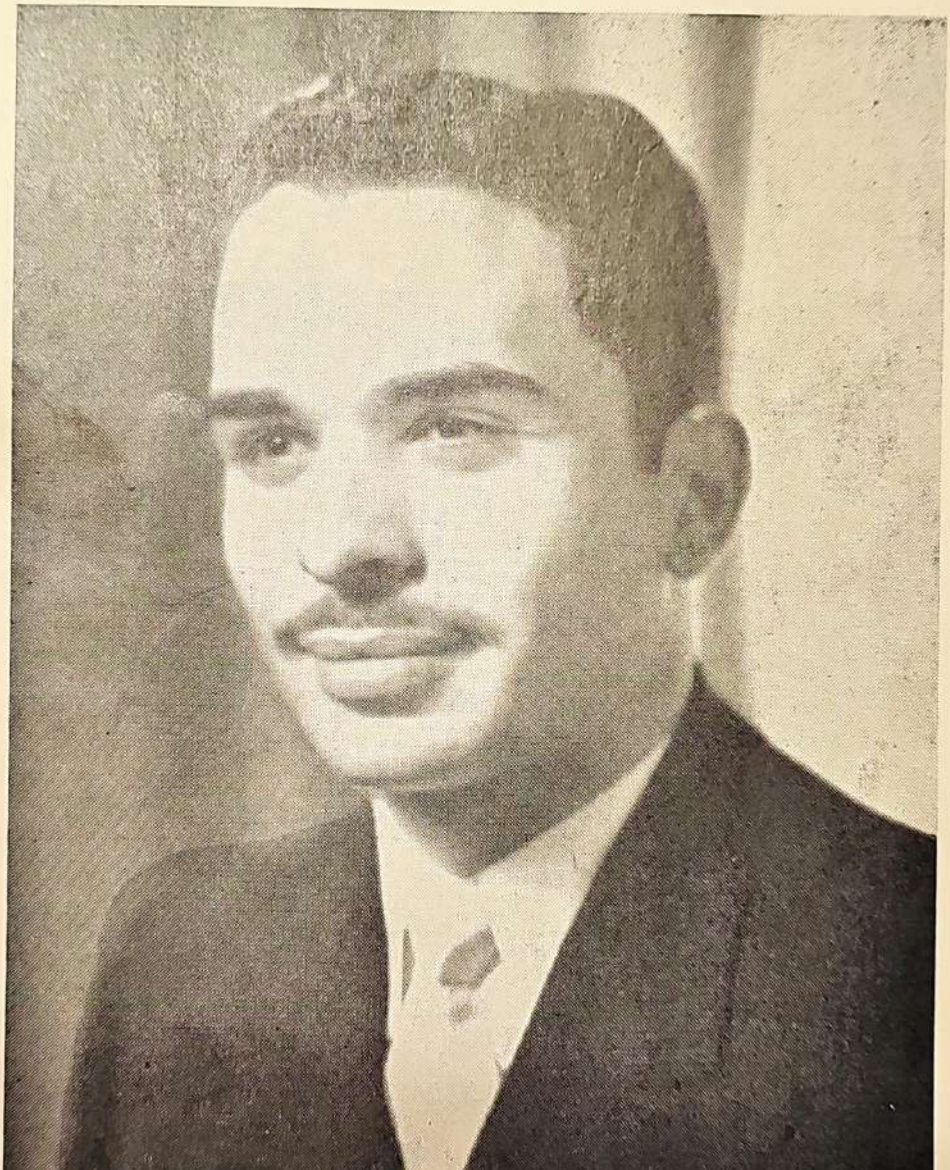
الطبعة الاولى

الاهداء

الى الذي صمد ببلده وبأمته، أمام زعازع الافك والالحاد والانتهاز، واثبت ان استمرار القومية العربية بأساسها وتاريخها وامجادها، هو وحده ما يصون للعرب حريتهم ويبقي على طابعهم الممتاز بين الامم ويجعلهم يشاركون في العمل لخير الانسانية..

الى الحسين المؤمن الامين، اقدم « مذكراتي »

هزاع المجالي



تقدمة

تدور في خاطري ، يا اخي القاريء وقبل ان ادفع بهذه المذكرات ، مذكراتي ، بين يديك ، عدة تساؤلات قد تدور في خاطرك انت .

فانا اشعر ان سن الاربعـــين ، ليست بالسن التي تكتب فيها المذكرات عادة . فما زال امامي ، والحمد لله فسحة من امل في المزيد من الخدمه والمزيد من التجارب ، والمزيد من المساهمة والمشاهـــدة ومراقبة الامور في بلدي ، وفي موطني العربي الكبير .

واشعر كذلك بالحرج من الدفع بهذه المذكرات بين يديك وانا رئيس للوزراء . وهذا الحرج الذي احس به ، مرده الخشية من ان يفسّر اختياري لهذا الوقت بالذات ، باني احاول الاستعانة بصفتي الرسمية لاوسع دائرة قراء مذكراتي . على ان هناك حرجا اخر بسبب هذه الصفة الرسمية ، ارغمني على عدم الخوض في تفصيلات تحيط بالاشخاص والاحداث ، وذلك تحسبا من ان يشار الى اني قلت ما قلت محتمياً وراء سلطة منصبي الحالي .

لمـــاذا اذن اخترت هذا الوقت بالذات ، لادفع بهذه المذكرات بين يديك رغم حرج السن وحرج المنصب ؟

لقد تعمدت ان انشر هذه المذكرات رغم احساسي بالحرج من نشرها ، وفي هذا الوقت بالذات . . مع علمي وقناعتي بان ليس هناك ادق من ان تنشر مذكرات لمسؤول وهو ما يزال وسط الاحداث ، والتاريخ مـــا يزال ماثلا

بمجرياته ، والاحداث التي يحيـاها ان هي الا استمرار للتاريخ وللاحداث التي يكتب عنها .

وهناك فارق – يا اخي – بين ان تكتب وانت في التيـار ، من حيث الجهد والفعالية ، وان تكتب وانت خارج التيار بعيداً عنه بالسن والفعالية . ثم ان المـذكرات ، اية مذكرات ، ليست ابداً نشرات دعاية يتناسب مفعولها مع سعةانتشارها او منصب صاحبهـا . . ان محك المـذكرات ووزن قيمتها ، يرتكز على صدق المذكرات واخلاصها وتجردها عن الهوى والغاية . هذا الوزن في نظري ، هو الذي يبقى ويرسخ في النفوس .

غير ان اهم سبب ، عندي ، في صواب اختياري هـذا الوقت لنشر مذكراتي ، هو ان القارىء العربي يعيش الآن في دوامـة من تزوير التاريخ وتشويه الحقائق – وعلى الاخص فيما يتعلق بالفترة التي اكتب عنهـا وتشملها مذكراتي – وعلى وجه التحديد ، فان ابعاد هذا التزوير تشمل بصورة خاصة جلالة المرحوم الشهيد الملك عبدالله بن الحسين وحياته السياسية ، اذ ان قليلين هم الذين عرفوا الملك الشهيد كما عرفته ، وعلى هذا فان من واجبي – والاحداث ما زالت ماثلة امامي – ان ابين للقراء العرب حقيقة الرجل العظـيم والقائد المحنك الذي كان الملك عبدالله .

ان مذكراتي ليست دفاعاً عنه . فعبدالله امام محكمة التاريخ ليس في حاجة الى دفاع احـد ، ولا سيما بعد ان اخذ العـالم العربي يعي ويفتح عينيـه على الانجراف في التزوير الذي دفعه اليه المغرضون . . ولا بد لهذا الوعي من سند مخاص دقيق من التاريخ ، وارجو ان تكون هذه المذكرات هي هذا السند .

هزاع المجالي



صاحب المذكرات

- ١ -

لم يبق عالقاً في ذهني وانا اضع هذه المذكرات ، سوى خيوط دقيقة ضئيلة ، لا تكفي لأن تلقي ضوءا يفي بحاجة القارىء عن ايام طفولتي . وكل ما استطيع ان اذكره ، اني نشأت طفلا مدللا في كنف جدتي لامي وجدي لامي ، اذ لم اكن ارى والدي ولم اكن اعرفه ، كما لم اكن افرح كثيراً للقاء امي أو اغضب لفراقها .

وأذكر أني سمعت ممن اعتدت رؤيتهم في مجالس جدي ، عندما بدأت أعي بعض ما يدور حولي ، ان والدي هو بركات المجالي من شيوخ عشيرة المجالي ، وان والدتي من الونديين – احدى قبائل البلقاء – وانها كانت من الغيرة على والدي بحيث كانت تنكر عليه ان يتلفظ بأسم امرأة على مسمع منها ، مما جر عليها متاعب عائلية جدية .

ولقد فهمت فيما اذكر ، ان والدي في عام ١٩١٧ انضم الى الثورة العربية والتحق بالامير فيصل بن الحسين بالعقبة ، وانه ارسل والدتي وكانت حاملا بي في شهرها الخامس ، الى اهلها لتقيم بينهم بجهات ماعين ، ليأمن شر نقمة السلطات التركية التي كانت اتخذت من الكرك قاعدة لها لمناوأة الثورة ، فولدتني امي وهي في اهلها وذويها .

ولما دخلت قوات الثورة دمشق ، عـــاد والدي وطلب عودة والدتي الى الكرك ، غير انها ابت ذلك ، وكان الطلاق في القبائل شيئاً سهلا يسيراً ، فطلقها ، فتزوجت من ابن عمها ، وتركتني لرعاية والديها وفي كنفهما . ولقد كنت احس واعتقد ان جدي هما والداي ، وكنت اغضب وأثور على كل من يقول لي ان أبي من الكرك ، كما لم اكن ارتاح لمن يقول أن لي أماً غير جدتي .

قلت اني نشأت طفلا مدللا . . وبديهي ان الدلال الذي اعنيه ، انما هو بالقياس لاترابي من ابناء القبيله . فقد كان جدي شيخ تلك القبيله ، وكانت العادة ان يرافق صغير الشيخ والده في الدعوات ، فيحاط بالكثير من التودد والتحبب ، وكان جميع افراد العشيرة يتبارون في التودد الي واغداق الهدايا علي ، ذلك أني كنت في عرفهم غريباً عنهم ولكني في كنفهم وتحت رعايتهم موضع اعزازهم واكرامهم . لقد كنت فيهم من ابناء «الرجال الاباعد» على حد قول الشاعر العربي :

بنونـــا بنو ابنائنا ، وبناتنا بنوهن ابناء الرجال الأباعد

ولكن اطيافهم الحلوة ما تزال ماثلة في مخيلتي ، تقف حائلا لطيفاً امام قول الشاعر هذا ! . .

كانت معيشتنا تعتمد عـــلى الحليب ومشتقاته ، وعـــلى اللحوم وبعض الخضار والفاكهة النزرة اليسيرة التي تنبتها اراضي العشيرة . كنا نحيا حياة قبيلة تقطن المضارب ، تزرع الارض وتربي الماشية وتقتني جياد الخيول . وكنا في تنقلاتنا الموسمية لا نبتعد كثيرا عن قرية ماعين ، نظراً لصلتها بالاراضي الزراعيه .

واذكر اني في الخامسة من عمري ، عندما سلمني جدي الى شيخ قيل انه جاء ليعلمني القرآن فأخذت ابكي واصرخ خوفاً ، غير انه ناولني بعض قطع الحلوى وهدأ من روعي ، وابتدأت أستمع الى الشيخ ، وكان ذلك بدء حياتي الدراسية ،

وكان معلما لي وحدي ، وكان يسكن معنا وينتقل معنا ، ولقـد اغراني على الاجتهاد بحيث أتممت قراءة القرآن بين الخامسة والعـاشرة وحفظت المعلقات السبع . وقد استبدل جدي هذا الشيخ بشيخ آخر اسمه احمد حلمي السقا من غزة ، فدرّسني بالاضافة الى القرآن: الجغرافيا والتاريخ والانشاء ومبادىء علم الاشياء .

وفي اوقات الفراغ كنا نركب الخيل ، واحيانا الجمال . واذكر اني كنت ارعى البهم مع جدي ، كلما ألمت بالراعي وعكة صحية تقعده عن القيام بواجبه ، وكانت هذه المناسبة من ابهج مناسبات طفولتي .

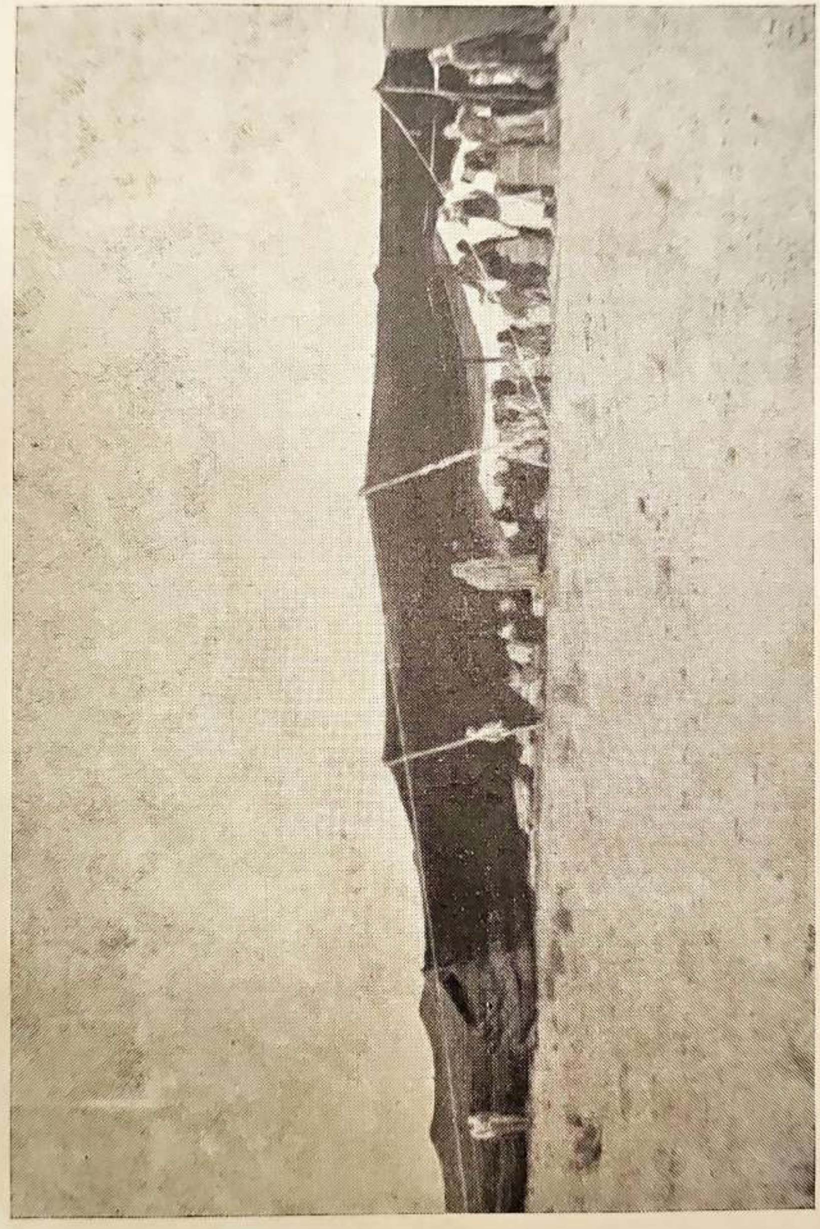
وكان والدي يأتي لزيارتي مرة او مرتين في العام ، وكنت احبذ زيارته وارتاح اليه ، ولكن هذا الارتياح كان ما يفتأ يتلاشى ، كلما انتصبت في ذهني الخاتمة المرتقبة لاحدى تلك الزيارات ، وهي انـه سيأخذني معه الى الكرك ويحرمني البقاء مع جدتي وجدي العزيزين .

وماتت جدتي وانا في العـاشرة ، واذكر اني بكيتها بكاء مرا وشعرت باني فقدت شيئا عظيماً بالنسبة لي على الرغم من صغر سني . وعلى اثر وفاتهـا زارنا والدي وحاول اخذي ، ولكني بكيت فتركني ، وقد وعده خالي وزوجته بـان يتكفلاني . غير انه لم يمض على ذلك سنة ، حتى توفي خالي ، فاحسست اذ ذاك ان ساعة فراقي أخوالي قد دنت . وجاء والدي وبحيلة بارعة منه رحمه الله ، استطاع ان يعود الى الكرك وانا معه .

لقد اقنعني جدي بانه سيرسلني مع والدي الى مضارب العدوان للمساهمة بالنيابة عنه في اجراء مصالحة عشائرية ، وبأني قـد كبرت وان في استطاعتي تمثيله في المناسبات العشائرية ، وان تلك المصالحة لن يكتب لهـا النجاح ان لم يحضرها هو او احضرها انا .. واذكر اني شعرت باعتزاز وزهو حيال ذلك ، فرافقت والدي . وبدلا من ان نتجه شمالا اتجهنـا نحو الشرق فالجنوب ، وكلما سألت والدي عن وجهته بي ، قال ان العدوان رحلوا الى جهات الموجب .

وعندما وصلنا « عرب » المجالي ودخلنا « الشق » ، رأيت أشخاصاً من المجالي عرفتهم لانهم كانوا يترددون لزيـــارتي ، فاجهشت في البكاء ولم يسكتني الا قول والدي ان هؤلاء قد جاءوا الى هنا بسبب القضية التي جئنا من أجلها . وفي الصباح اهداني شلاش المجـــالي زعيم ذلك الفخذ منديلا نفيساً أخـــذته معي وغادرناهم الى بيت والدي ، حيث ادركت هناك ان الحيلة جازت علي . ولقد صممت على الهروب ، وقمت بعـــدة محاولات صبيانية مستهدفـــا عودتي الى اخوالي . ولكني ومع ان خيالهم لم يفارقني لحظة واحدة ، فقد أخذت أسلوهم شيئاً فشيئاً ، وألفت حياتي الجديدة في بيت أبي .

واراد والدي أن يزوجني وانا في الحـــادية عشرة من احدى قريباتي ، فرفضت لأني لم اكن افهم معنى الزواج . وكان للحكومة في قريتـــنا مدرسة وكان المعـــلم فيها عيسى القطاطشة من الطفيلة . فرافقت أخي مع آخرين من ابناء عمومتي الى تلك المدرسة ، ودخلت معهم في مقاعد الدرس ، وكانت كلها في غرفة واحدة يجتمع فيها الصف الاول والثاني والثالث . وقد لفت وجودي نظر المعلم عيسى ، فسأل عني ، فذكروا له من انا ومتى جئت ، فرحب بي . واذكر انه سأل اخي عن مصغر اسمه — واسمه دخيل — فأجاب (ديخيل) باضافة ياء بين الدال والخاء ومدها ، فصاح به ان صغّر اسمك مرة ثانية ، فاتبع اخي الاسلوب الاول ولكن بمد الياء اكثر من المرة الاولى ، فضحـــك المعـــلم وضحكت ، وسألني عن مصغر دخيـــل فاجبته الجواب الصحيح . ومنذ ذلك اليوم اصبحت تلميذاً منتسبا لتلك المدرسة في صفها الاول ، وكنت مجداً مجتهداً ، فلم يمض شهران حتى رقيت الى الصف الثاني ، وفي نهاية السنة المدرسية كانت نتيجتي « ممتاز » مع ترقيتي الى الصف الثالث ، وقـــد انهيت هذا الصف في السنة التي تلتها وبنتيجة مرضية جداً .



والتحقت ورهط من الفتيـــان الاقارب بمدرسة الكرك الثانوية ، ودخلنا الصف الثالث الابتدائي فيها . وقد اربى عدد طلاب ذلك الصف على المائة، وفدوا اليه من مختلف مدارس القرى . وبدأ التنافس شديداً في هذا الخليط الجديد الكبير ، وجرفني تيار التنافس على المرتبة الاولى فيه ، فلما عقد فحص الفصل المدرسي الاول واعلنت نتيجته ، كان ترتيبي الثاني . واذكر جيداً ان الزيادة في علامات من فاز بالمرتبة الاولى، كانت بسبب تفوقه في مادتي الرسم والتدريب . غير انني على اي حال ، فزت بحظوة الطالب المجد لدى اساتذتي . وعندما جاءت امتحانات الفصل الثاني ، كانت المرتبة الاولى لي ، وفي حفلة تقليدية اصبحت عريف الصف . وقد احتفظت بهذه المرتبة المرموقة في سائر الصفوف في مدرسة الكرك ، الى ان انهيت صفها الثانوي الثاني ، وكان صفها النهائي اذ ذاك . وانتقلت بعد ذلك الى الدراسة في السلط في مدرستها الثانويـــة التامة ، الوحيدة في امارة شرقي الاردن اذ ذاك .

وانه لتحضرني الآن عن سني الدراسة في الكرك ، ذكريات ابرزهـــا شخصية مـــدير المدرسة وكان الاستاذ محمود ابو غنيمه ، واقرّ بـــأني مدين لهذا المربي الفاضل في مواظبتي على الدرس وفي تفوقي على اقراني . ولم يقتصر فضله علي وحدي ، فالمدرسة بوجودها كانت من نتاج حزمه في ادارتهـــا وغيرته على طلابها ، وحرصه على انصرافهم لدروسهم والابتعاد عن كل ما من شأنه ان ينأى بهم عن طلب العلم . وقد كان بالنسبة لي مرشداً وهـــادياً فاجتذبني الى حب العلم اجتذاباً ، في حين صرفت هوايات البـــداوة اكثر ابناء عمي عن الدراسة . كان ينبهني دائماً الى ان طريق العلم أفضل من أي طريق وانه الوسيلة المثلى للحياة الكريمة ، وان باستطاعتي ان ابني مستقبلي بناء حسناً اذا انا سلكت هذه الطريق الى نهايتها . وكانت المعاملة الكريمة التي كنت القاها منه ، مضافة الى نصائحه الثمينة التي كان يمحضني اياها ، خير مشجع

لي على المواظبة والتفوق ، كما ان المعاملة الكيسة التي كان يوجهها الي سائر اساتذتي زادت في ترغيبي وحماستي . وكلما استعدت ذكريات المدرسة ، مرت في خاطري رؤاهم جميعاً وعلى رأسهم الاستاذ محمود ابو غنيمه ، كاعذب ما تمر الاطياف الحبيبة الى النفس .

ومن بين الاساتذة الذين علموني في مدرسة الكرك ، السيدان فوزي الملقي وسليمان النابلسي . ولقد جمعني القدر واياهما في الحكم فيما بعد ، فتعاونت مع السيد الملقي في وزارته وزيراً للداخلية ، وتعاونت قبلها مع السيد النابلسي في وزارة السيد سمير الرفاعي .

واذكر اني كنت في الصف الابتدائي الخامس ، عندما دخل علينا الاستاذ سليمان النابلسي ، وكان ذلك صباح يوم ٢ نوفمبر . وما ان دخل حتى سألنا بالانكليزية عن هذا اليوم . فمنا من قال يوم الاحد مثلا ، ومنا من قال انه اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني . ثم ما لبث ان صاح فينا بعصبية زائدة « ان هذا اليوم هو يوم وعد بلفور » . . ونادى صائحاً بالانكليزية فليسقط وعد « بلفور » ... وما كنا سمعنا ببلفور أو بوعد بلفور . وأخذ يشرح لنا ذلك الوعد وظروفه ومغزاه وضرورة استنكاره والتظاهر ضده ، فخرجنا من الصف واخرجنا جميع طلاب المدرسة ، وسرنا في مظاهرة صاخبة ، ولعلها كانت الاولى في الكرك .. وكان الذين يعرفون اهداف تلك المظاهرة وشعاراتها قليلين جداً ، فكان جمهور غفير ينادي نداءات غريبة فمنهم من كان يقول (فليسقط كركور) ، وكركور كان صانع أحذية ارمنياً انضم الى المظاهرة وصار يصرخ باعلى صوته (بلفور ، يا جماعه بلفور ! .) ومنهم من كان يصيح (فليسقط واحد بلكون) ، وآخرون كانوا ينادون (فليسقط واحد من فوق) ! ... ووصلنا الى بناية متصرفية الكرك ، وكان المتصرف آنذاك مسلّم العطار ، فنزل ورحب بنا وشكرنا على شعورنا الطيب وطلب كلمة منا ، فوقف احد الطلاب خطيبا واستهل كلمته بالبيت التالي :

قم للمعلم وفّه التبجيلا كاد المعلم ان يكون رسولا

وقد صفق المتصرف وصفقنا . وخطب ابن عمي عصر المجالي ، وكان اعلى منا صفاً ، وقال في جملة خطابه (ايها الحاكم الظالم . . ايها الطاغي الباغي) وكان يعني بذلك الانكليز . غير ان مشايخ الكرك اخذوا يشيدون بشجاعة عصر ، وكيف انه وصف المتصرف بحضوره بالظلم والطغيان . . وانتهت المظاهرة على هذا النحو . وبها كانت نهاية الاستاذ سليمان النابلسي في الكرك ، اذ كان رئيس الوزراء في تلك الايام ابراهيم هاشم ! . .

وكنا في الصف الثانوي الثاني سبعة طلاب فقط ، وكان معلم العربية الاستاذ حسن البرقاوي ، وكان اديبا ولغوياً مفيداً ، اذا تيسر له الجو الهادىء وراحة البال ادى واجبه التعليمي على احسن وجه . واشهد لهذا الاستاذ بفضله علي في تنمية ملكتي الخطابية ، اذ كنت اقف في اية مناسبة وفي اي حفل فأعبّر عن شعوري بسهولة وبجرأة معاً . لقد كنا نقيم الحفلة بعد الحفلة ، والمهرجان تلو المهرجان ، وكان لا يفتأ يدفعنا الى الخطابة دفعاً ويثير فينا الشوق اليها والتلذذ بها .

وكان هناك الاستاذ خليل الساكت ، وقد درست عليه الرياضيات من الابتدائي الثالث حتى الثانوي الثاني . وعلى الرغم من انه لم يكن جامعياً ، فقد كان على جانب كبير من الذكاء ، وكان المعياً يلفت نظر تلامذته اليه . وهو الان ما يزال موظفا في دائرة الجمارك ، ولا أراه الا وتشدني رؤيته الى تذكر تلك الايام العذاب .

وفيما انا في الصف الثانوي الثاني ، بدأت اشعر بميل قوي نحو زوجتي الحالية ، وكانت فتاة صغيرة في المدرسة ، فتعلقت بها وتعلقت بي وتعاهدنا على الزواج ، واصبح حبي لها عقيدة راسخة في ، ناضلت من اجلها ، واستطعت ان اصمد امام العراقيل التي انتصبت في سبيل ذلك الحب العظيم ، وان استعذب العذاب طيلة عشر سنين الى ان وصلنا الى النهاية السعيدة والحمد لله .

واعود الى الحديث عن ايام الدراسة في السلط . . لقد كانت مدرسة السلط ملتقى خريجي الثانوي الثاني ، من عمان واربد والكرك . واذكر بعض رفاقي في الصف ومنهم خليل السالم ، ومحمد السفرحان ، وشفيق الرشيدات ، ووصفي التل ، ونعيم التل ، واسماعيل النابلسي ، ونجاح النابلسي والمرحوم محمد الصايل وغيرهم .

وكان مدير المدرسة محمد اديب العامري . واني لأذكر ان الطريقة التي كان يدير بها المدرسة لم تكن لتقربه الى النفس ، فقد كانت طريقة معقدة نفرت منه معظم الطلبة ، وكنت لأهجر المدرسة لولا رغبتي الملحة في الحصول على شهادة الدراسة الثانوية ، فتحملت سلوكه على مضض في سبيل تلك الرغبة. وكان بين الاساتذة في مدرسة السلط : فوزي الملقي وسعيد الدّره وجريس القسوس ورفيق الحسيني. وقد اتقنا هناك فن المظاهرات بسبب وبغير سبب ،وكان يعقب هذه المظاهرات اغلاق المدرسة في بعض الاحيان لمدة تزيد على الشهر .

وفي مدرسة السلط الفنا جمعية سرية اسميناها (جمعية الحرية الحمراء) وكان اعضاء هذه الجمعية وصفي التل ونعيم التل ونايف الخطيب وأناوغيرنا. ولم يكن لجمعيتنا هذه هدف واضح. واذكر انه نشأ خلاف حول اسناد منصب القائد الذي سيحتل عمان ، واخيراً تركنا الشؤون العسكرية للسيد نايف الخطيب وقد كانت الاجتماعات تعقد في بيته . ولم يكن من اثر لهذه الجمعية سوى انها صرفتنا عن الدراسة فترة من الزمن ، وسوى مفرقعات صوتية بحتة اطلقها بعض الاعضاء في مظاهرة قامت في اربد .

وكانت تقام بين الفينة والاخرى مهرجانات خطابيه ، وكنت احد الذين يشار اليهم في مناسباتها ، وقد حصلت على تقدير استاذ العربيه الاديب السيد رفيق الحسيني . غير اني لم اكن قويا في اللغة الانكليزية ، فقد بدأت دراستها في الكرك وكنت اتلفظها بلهجة قريبة الى اللهجة البدويه عندنا ، وكنت احصل على مجرد درجة النجاح فيها.

وفي السنة الثانيـــة والاخــيرة في السلـط مرضت مرضاً كاد يودي بحياتي . وقد جاء فحص الشهادة وأنا في المستشفى ، فكنت اغادر سريري فيه لأؤدي الفحص ثم اعود الى المستشفى . واذكر اني كنت موضع عطف عدد من اساتذتي في تلك المناسبة القاسية ، ومنهم صبّاح الروسان وسعيد الدرّه وعلي روحي وجريس القسوس . . فكانوا يجلسون الى جـانبي ، كل بدوره ، ويساعدونني في تهيئة اجوبتي . وكان منهم هذا الحسّ الانساني النبيل بتأثير اني كنت من الاوائل في غضون السنة الدراسية . وان مساعدتي عدل ولا تعتبر خروجاً على القواعـــد المقرره . ويؤسفني ان اشير ، الى ان مثل ذلك الحسّ لم يتوفر لمـدير المدرسه ، مما ولد عنـدي شعوراً بالنقمة عليـــه ، مؤكدا ان لا أثر بالمرة لشعوري هذا في الاجراء الذي اتخـذ بحقه قبيل كتـابة هذه المـــذكرات .

وبنتيجة فحص الشهادة ، كان ترتيبي السادس على ما اذكر ، وكان الاول خليل السالم او حمد الفرحان . وقد كانت النتيجة بالنسبة لي ممتازة ، اذا اخذ بعين الاعتبار مرضي بين يدي الفحص النهائي ، وانشغالي قبل ذلك بالجمعيات الصبيانية التي صرفتني عن الدرس المتواصل المجد .

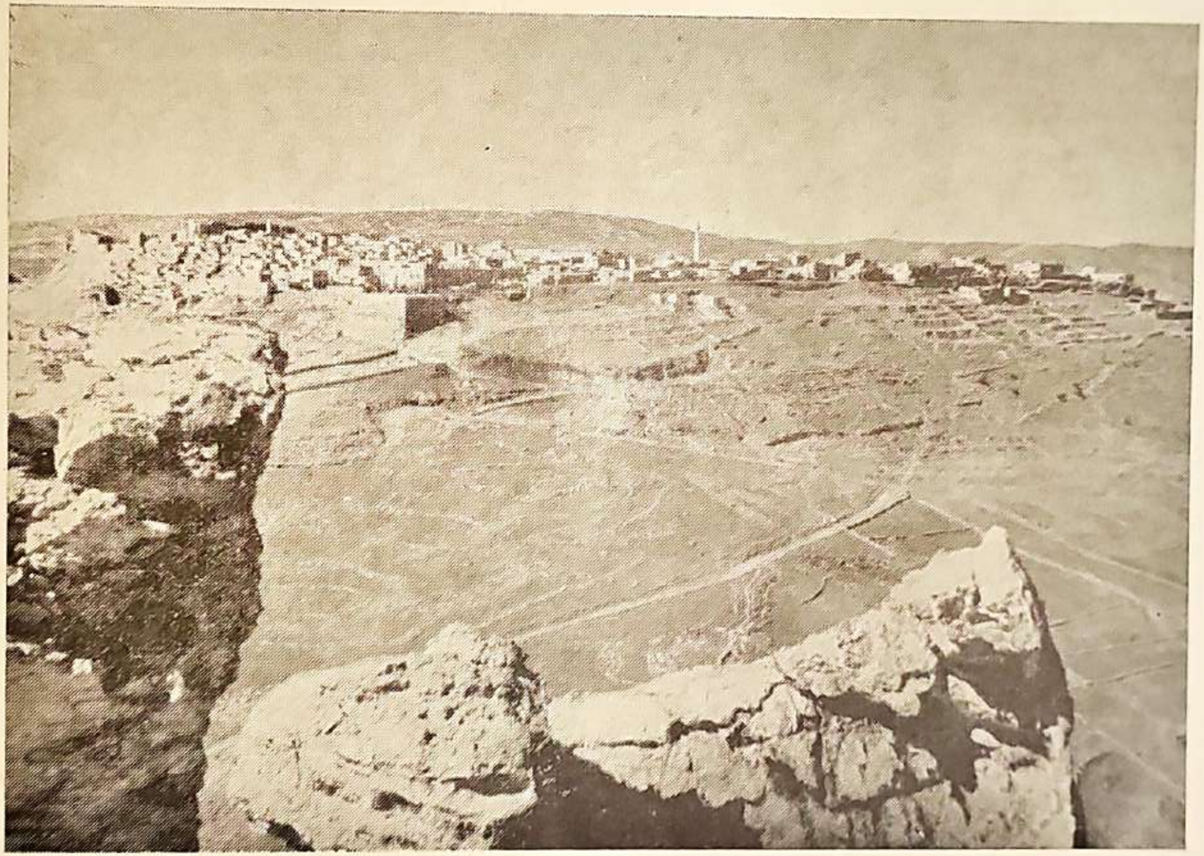
– ٢ –

ولم البث طويلا حتى تلقيت عرضاً من دائرة الاراضي لاعمل فيها مساحاً ، وكنت عوفيت من مرضي فقبلت العرض . وذهبت واقران لي الى كفر سوم بلواء اربد ، حيث اخذنا نتدرب على آلات المسح والتصوير وتحديد الاراضي ، وكان مدربنا هو السيد محمد اسماعيل مدير دائرة الاراضي الحـــالي ، وكان

يساعده السيد حسن سامي . واستمرت فترة التدريب شهرين تقريباً ، التحقنا بعدها بفرق المساحة ، لاستكمال التدريب من جهة وللعمل من جهة اخرى . وكانت حياتنا شاقة مضنية هناك ، ولاسيما وقد داهمنا فصل شتاء قاس ، ثم داهمنا ما هو اقسى . . لقد هاجمنا الثوار واستاقوني معهم اسيراً ؟ . .

كانت الثورة في فلسطين مندلعة ضد الانتداب والصهيونيه ، وكانت الامدادات للثوار تأتي من سوريا عبر شرقي الاردن . وكانت تهزنا فرحاً بطولات الثوار وقصص مغامراتهم . وزاد في فرحنا ما تلقيناه من تعليمات المسؤولين بدائرة الاراضي ، بان نكرم وفادة الثوار اذا جاءونا ، وكان المسؤولون يقصدون استمرار اعمال المساحة وتحاشي تعرض الثوار لنا بسوء . وعلى الرغم من وجود الانتداب البريطاني ، فقد لمسنا رغبة من المسؤولين الاردنيين في مساعدة الثوار وتقديم التسهيلات الممكنة لهم . غير ان هذه الرغبة توقفت في اواخر عام ١٩٣٨ .

فقد اعتدى الثوار على بعض القرى الاردنية واختطفوني واختطفوا « المستر هيد » مدير الحراج ، ولحقت بنا قوات الامن وخلصتنا من أيدي الثوار ، ونشبت معركة عنيفة عند قرية زوبيا قتل فيها خمسون ثائراً وعدد من رجال الامن الاردني . . فاختلفت بهذا الحادث وجهة النظر الاردنية حيال الثورة والثوار ، ووقف المسؤولون الاردنيون موقفاً مناوئا للثورة مناجزاً للثوار ، بعد تساهل واغضاء بل بعد مساعدات دامت زهاء ثلاث سنوات . ولقد قيل اذ ذاك ، ان تحويل اعمال الشغب وامتدادها الى شرقي الاردن ، نشأ عن وجود اردنيين في دمشق حاقدين على النظام في الاردن ، فاوهموا قيادة الثوار في دمشق بان نجاح



مدينة الكرك

الثورة يتوقف على امتدادها الى الاردن . وهكذا جاءت النتيجة عكسية ، اذ خذلت الثورة في فلسطين بعد انقطاع التسهيلات الضرورية لها في الاردن . .

وعلى اثر حادث اختطافي انتقلت الى عمان ، ومنها الى القرى المجاورة لها ، في فرقة من فرق تقسيم وفرز الاراضي . ولم البث طويلا حتى اصطدمت مع مدير الفرقة السيد عبدالرحمن عزيز ، اذ كانت يده غير نظيفة وكان ابعد ما يكون عن الاستقامة والامانة ، وكانت اوامره المتناقضة الناشئة عن صفاته تلك ، هي السبب في خلافي معه ، واستقلت من عملي بلا تردد .

وقضيت ثلاثة اشهر بلا عمل . وكان من عمي المرحوم رفيفان باشا ان فاتح توفيق باشا ابو الهدى بتعييني في وظيفة ما ، فعينت كاتبا لمحكمة صلح مادبا . وفي مادبا تغيرت حياتي كليا ، فقد اضطرني المحيط ان اواظب على التدخين وعلى الشراب . وكنت في كل جلسة من جلسات الشراب استمع الى نصائح القاضي احمد الظاهر ، بضرورة الاستقالة والالتحاق بالجامعة السوريه .

واعلنت الحرب العالمية الثانية ، وبدأت اسعار الحاجيات تقفز قفزا مخيفاً واخذت اسباب المعيشة في الارتفاع ، فلم يعد مرتبي يكفيني ، ولم اكن اتلقى من المساعدات سوى ما كنت احصل عليه من خالي في بعض الاحيان . فشرعت الهو والعب ، واخذت الديون تتراكم علي فيما انا سادر في اللهو متماد في اللعب ... وفي هذه الغمرة من الحرج ، وقف السيدصالح بسيسو مدير العدلية اذ ذاك حائلا دون ترفيعي الى الدرجة التاسعه . وبعد مضي ما يناهز ثلاث سنوات في مادبا وبضعة اشهر في عمان ، تركت وظيفتي مستقيلا وعدت الى الكرك لامكث فيها عاطلا عن العمل .

- ٣ -

كانت فترة وجودي في الكرك هذه المرة ، اصعب الفترات التي مرت بي في حياتي .. فلقد تنكر لي والدي ، وكادت ابنة عمي وفتاة احلامي تشنأني – ولو انه كان محظوراً علينا ان نلتقي – واشترطت لزواجي منهـا ان اتم تحصيلي .. وركبتني الهموم فاخذت اعاشر بعض الاصدقاء ممن جرني الى موائد القمار ، فكنا نقضي الليالي والايام في اللعب واللهو ، وكنا نتردد على النَّوَر في مضاربهم ، فيحيون لنا ليالي بوهيمية يبتزون فيها ما يتبقى في جيوبنا من نقود . وقـد تردت صحتي وتدهور سلوكي ، ورهنت كل ما يمـكن ان ارهـنه – حتى مسدسي الذي كنت احمله – وكاد مستقبـلي يضيع لولا انني صحوت فجـأة !

ففي تلك الموجةالعارمةمن الجهالة والتبطل ، وفيما تنكرلي دهري واهلي ، واخذوا يتندرون بالقصص عني وعن مباذلي ... وفي ظلمات تلك الحياة الماجنة الضائعـة ، لمع بارق حبيب ، ولكن مرهف كحد السيف صارم كالرمح المسنون .. ذلك البارق كان فتاتي : زوجتي وام بني الآن ..

استدعتني سميحة لتقول لي بصراحة وصرامة : « تذكر اني خاصمت اهلي وأخوتي بسببك .. كنت وفية لك صابرة على القسوة بل والعذاب من اجلك .. سبع سنين ، ثم تتحول الى مثل هذه الحال المزرية ! ... افلا تستحي علي كانسان ضحّـى في سبيلك ؟! ... الا تصون لي كبريائي من ان يعيروني بك وبحالك ، ويقولون عنك امامي انك سكير مقـامر ؟ ! ... لقد تحملت ما تحملت ، ولكني لست مستعدة بعد اليوم ان اتحمل اكثر مما تحملت .... فاما ان تعدل عن هذه الحياة التي تحياها وتلتحق بالجامعة السورية ، او هـذا فراق بيننا ، وانس انك احببتني واني احببتك » ! ...



كانت صاعقة محرقة ، طهرت نارها كل رجس في نفسي . . . لقد القت علي درساً قاسياً ، وكان له اثره ، اذ استصغرت نفسي ، وبكيت بكاء مرا ، وقمت دون ان اعدها بعمل شيء .

وذهبت للتو فقابلت والدي ، وابديت له رغبتي في الالتحاق بالجامعة السورية ، وانه يفعل الكثير من اجلي اذا هو ساعدني في تحقيق هذه الرغبة ، فوعد بذلك . وفعلا باع قطعة من ارض وسلمني من ثمنها سبعين ديناراً لاسافر بها الى الشام .

ولقد داعبني القدر في آخر ليلة لي في الكرك وانا بين يدي سفري الى دمشق ، فلعب معي لعبة خطرة وكاد يخرجني عن النهج الجديد الذي انتويته . ذلك ان اصدقائي علموا بأني اشتمل في جيبي على سبعين ديناراً فدعوني لقضاء السهرة معهم ، وبعد ان شربنا طلبوا ان نلعب القمار ، فاعتذرت لأني لا احمل معي ما يمكن ان يستأثر باهتمامهم . والواقع اني لم اكن احمل إلا ديناراً واحداً ، فقد كنت امنت المبلغ لدى التي استدعتني فعنفتني وغيرت مجرى حياتي .. فاظهروا استعدادهم لتسليفي فاستلفت ولعبت . وكان حظي تعيساً في الهزيع الاول من الليل ، اذ بلغ ما استدنته منهم زهاء الثمانين ديناراً . غير ان الحظ استقام معي في الهزيع الثاني من الليل ، فسددت ديوني وربحت خمسة دنانير ، ووجدتني امتليء ثقة وايماناً واستبشاراً ، فانتصبت فجأة ورميت عليهم بدنانيرهم الخمسة وودعتهم وخرجت من مجلسهم كالهارب من جهنم ! . .

– ٤ –

سافرت الى دمشق ، وقد استبد بي الاحساس بأن مستقبلي رهن بهذه المحاولة الجديدة . وكنت اخشى الفشل بسبب اني انقطعت عن الدراسة مدة خمس سنوات . وكان هذا الشعور يلازمني ملازمة قوية ، وتحت تأثيره اقبلت على الدرس بجد لم يسبق لي به عهد .

وقد ضم الصف الاول في معهـد الحقوق في تلك السنة ، مائة طالب وطالبة هي السيدة ملك كباره . وكان بين اساتذتنا المرحوم محسن البرازي ، ومنير العجلاني وعدنان الاتاسي المحكومان الآن بالسجن في دمشق ، والدكتور السمان وهو عميد الجامعة السورية الآن ، والمرحوم سعيد محاسن صاحب شرح المجلة المعروف ، والدكتور عبدالجواد السرميني . وقد نشأت بيني وبين هؤلاء الاساتذه علاقة ود وصداقة مضافة الى رابطة التلميذ باستاذه . وكنت في السنة الاولى ابتعـد ما امكنني عن كل ما من شأنه ان يلهيني عن الدرس او يعوقني عن التحصيل . وكان معي من الطلاب الاردنيين ، الساده : ضيف الله الحمود وسلمان القضاة ومحمد الهنداوي وسليمان الحديدي وجريس الحدادين ونبيه الملقي. وحـين اقترب فحص العـام الدراسي الاول ، كان اهتمامي في الاستعداد له كاهتمام المحارب ، الموشك على دخول معركة فاصلة ، وكنت في عـداد الناجحين ، وعدت لاقضي عطلة الصيف في الكرك ، بكثير من الثقة والاطمئنان .

وكانت النتيجة الحسنة التي عدت بها ، مما شجع والدي على التصميم على الانفاق علي لمتابعة تحصيلي الجـامعي ، كما ساعـدت تلك النتيجة على تيسير خطوبتي .. فقد ذهب والدي ضيفاً على رفيفان باشا ، وفاتحه في تحقيق املي في ابنته ، وما كان منه الا أن قال لوالدي « اني اعطيتك ابنتي سميحة وانك حر في ان تخطبها لمن تشاء » . وكان واضحاً ما يقصـد الشيخ الزعيم . . وبلغتني البشرى فكدت اطير فرحاً ، وما احسب ان نشوة اجذلت عظامي كتلك النشوة ، وما احسب حادثاً سعيداً عزز ثقتي بنفسي وفي مستقبلي كذلك الحادث العظيم .

وعدت الى دمشق لأستأنف دراستي في جامعتها وكلي ثقة وطيدة وأمل باسم . كان العام ١٩٤٥ وكان رئيس الجمهورية السورية السيد شكري القوتلي ، وكان رئيس الوزراء السيد جميل مردم بك ونائبه السيد لطفي الحفار . وفي خواتيم تلك السنة الدراسية ، قامت في دمشق مظاهرة صاخبة تطالب بجـلاء الفرنسيين . وقد لعبت الجامعة السورية دوراً فعالا في تنظيم تلك المظاهرات ،

والى جانبها سائر مدارس دمشق ومعاهدها العلمية . وجاء السيد لطفي الحفار يزور الجامعة ليقف على مطالبها ، وفي مدرج الجامعة اخذ يناشدنا خدمة المصلحة العامة بالتزام الهدوء وترك الامور للحكومة تسويها بمقتضى المصلحة الوطنية .. فهب عدد من الطلبة السوريين والاردنيين مطالبين بتجنيد طلاب الجامعة للمشاركة في معركة التحرر ، فما كان من السيد الحفار الا ان أوعز لقائد القوات السورية بتجنيدنا في الحال ، وكان صخب شديد وتحمس عظيم .

وذهبنا الى القلعة ، وارتدينا الالبسة العسكرية بعد فحص طبي شكلي . ولقد لفت انتباهي ان اكثر الذين خطبوا في ذلك النهار مطالبين بحمل السلاح ، استحصلوا على اجازات طبية للاستراحة في بيوتهم من عناء الجهاد !... واذكر ان عدد المجندين اربى على الالف ، وانتقلنا بعد بعض التمرينات العسكرية الى مدرسة الحلبوني . وفي صباح اليوم التالي ، انسحب الطلاب العراقيون بحجة ان قوانينهم لا تسمح لهم بالانخراط في قطعات عسكرية خارج العراق . . . واخذ عدد المتطوعين يتضاءل الى ان بلغ المائة أو دون . وفي اليوم الثالث انفرط عقد « الحملة الجريئة » . وفي اليوم الرابع كان هجوم الفرنسيين الغادر على دمشق فقتلوا حرس البرلمان وبينهم قائدهم المرحوم الطيب وكان صديقا لي . وكاد الفرنسيون يسيطرون على العاصمة السورية ، لولا اوامر تشرتشل بتدخل القوات البريطانية لوضع حد لبربرية القوات الفرنسية . وقد تدخلت القوات البريطانية بالفعل ،وباعداد كبيرة وآليات ثقيلة ، وجمعت الفرنسيين وبعثت بهم الى المزة ، بين صخب الجماهير وسخطها عليهم . فقد خرج الناس جميعاً من بيوتهم عند وقف اطلاق النار ، واخذوا يرحبون بالقوات البريطانية ساخرين من القوات الفرنسية المنسحبه . وفي هذا الموقف ظهر ادعياء الوطنية وابطال المظاهرة يتصدرون الشوارع بألبستهم العسكرية ، ولم يستحوا ان يقولوا متباهين انهم هم الذين صمدوا في وجه الغزو الفرنسي . بينما توارى من الشوارع اولئك الذين وقفوا بحق امام الخطر الداهم ، وعادوا الى بيوتهم يحمدون الله على انه فرّج كربة الوطن وحقق لسوريا مطلبها القومي الذي ناضلت من اجله السنين الطوال .

وانتهت حوادث الاعتداء الفرنسي الغادر على دمشق ، بجلاء القوات الفرنسية وسائر القوات الاجنبية عن سوريا ولبنان ، وتم لهذين البلدين الشقيقين استقلالهما الناجز . وقد استأنفت الحياة سيرها الطبيعي ولكن يمازجها الشعور بالكرامة الوطنية والعزة القوميه . وعادت المعاهد العلمية الى نشاطها الدؤوب ، وكانت السنةالدراسيةتوشك ان تنتهي وكان الفحص السنوي في معهد الحقوق، فاجتزته بنجاح تام ، وعدت الى الكرك لاقضي فيها آخر عطلة مدرسية فيحياتي.

وعنّ لي ان اتزوج ، وان اصطحب زوجتي معي الى دمشق ، فنسعد معاً في عاصمة بني امية بأول سنة من حياتنا الزوجية،في حين اكون في آخر سنة من حياتي الجامعيه . واستبدت بي فكرة الزواج ، فلم اتمالك ان جاهرت والدي بذلك فوافق . ولست انسى ما اضفاه النادي الاهلي في الكرك ، من بهجة الاحتفال بزواجي ، على بساطة مراسمه . فقد كنت ارأس هذا النادي ، وحفز الود الصادق ما بيني وبين اعضائه ان يكرموني بهدية فاخره ، وان يجعلوا من ليلة زفافي مهرجاناً جميلا تتخلل اهازيجه وزغاريده خطب الزملاء المخلصة الفياضة بالتمنيات القلبيه .

وكأني الآن ، وانا اخط هذه الكلمات ، ورنين زغاريد قريباتي يدغدغ اذني ويملأ فؤادي ، عندما دخلت لاجلس الى جانب عروسي على منصة الزفاف كما هي العادة في الكرك . . هناك ، وبين اهلي واصدقائي ، طافت بي الذكرى لاثنتي عشرة سنة خلت ، فمرت امامي احداثها الخاصة وما حفلت به من عوامل الرضى والسخط ، وما انتابها من عقبات وعراقيل ، وما شابها من مرارة الوجد المكتوم . . كل هذا مرّ في خاطري وكان حقيقة مرّه ، ولكن ليؤول الى هذه الحقيقة الحلوة ، حقيقة اللقيا وفرحتها ، وانتصار الحب والاغتباط به .

وبعد اسبوع غادرت وزوجتي الكرك الى عمان فالقدس فيافا ، وكان ذلك في تشرين الثاني ١٩٤٥ ، واذكر اننا جابهنا صعوبة في الحصول على غرفة في فنادق يافا ، اذ كنت تركت جواز سفري في القنصلية السورية في القدس ليؤشر عليه بالدخول الى القطر السوري ، ولم يخطر ببالنا اننا سنحتاج جواز السفر، ولم نكن نحمل اية هوية شخصية سواه ، وكنا كلما دخلنا فندقاً تعرضنا لسلسلة من الاسئلة حول السيدة التي تصحبني : هل هي زوجتي ام لا ! . . . وقد ضقنا ذرعاً ،وكدنا نيأس لولا ان لقينا بعض معارفنا فانزلونا في فندق بعمارة للشيخ عبد القادر المظفر بالقرب من سينما الحمراء ! . . . وفي يافا اشترت زوجتي بعض الملبوسات ، فقد حال قصر المدة قبيل العرس وعدم وجود ملبوسات نسائية جاهزة في الكرك دون التجهز بها هناك . وبعد ايام مكثناها في عروس فلسطين ، عدنا الى عمان، ومنها سافرنا الى دمشق ، حيث قدر لي ان احيا حياة الطالب المتزوج ! .

وفي دمشق وجدنا ان ابن عمنا الدكتور عبد السلام المجالي، وكان طالب طب في الجامعة السورية ، قد استأجر لنا وله شقة مفروشة عند احدى العائلات ، وكانت سنة حلوة حقاً، وكنت احس وانا احياها انها تفيض سعادة واملا حلواً . . . وكانت زوجتي تحضني على مواصلة الدرس وتنبهني الى انني لو قدر لي ان افشل في سنتي المدرسية فسيعزى ذلك الى انها هي السبب، ولذلك كثيراً ما كنت اذاكر دروسي مرتين ، وكانت المرة الثانية من اجلها . . . وكنا كثيراً ما نستقبل اصدقاءنا من الطلاب ، ونعد لهم في بعض الاحيان اكلات اردنية تجيد زوجتي طبخها ، ولم تسلم ميزانيتنا المحدودة من الارتباك بسبب ذلك ، ولكن لم يكن بد منها كضريبة اجتماعية من جهة ، ولانها كانت تدخل السرور الى قلوبنا وتؤنسنا من جهة اخرى بمثل ما كانت تدخل البهجة الى نفوس اصدقائنا الزملاء .

وفي هذا العام الدراسي الاخير ، القيت عدة محاضرات في مدرج الجامعة لفتت الانظار الي، وكانت محاضرتي عن« القضاء عندالبدو »ابرز تلك المحاضرات وادعاها الى الاهتمام ، فقد استرعت انتباه اساتذتي وزملائي الطلبة وحظيت بالكثير من رضا المحامين بدمشق، وتناقلتها الصحف واصبحت مادة للتدريس في بابها وموضوعها .

وحان موعد قطاف الدراسة الجامعية في حزيران ١٩٤٦ ، وكان فحص الشهادة ، وكنت من الموفقين فيه، فحصلت على الاجازة في الحقوق (الليسانس) وهي الشهادة التي استهدفتها منذ التحقت بمعهد الحقوق قبل ذلك بثلاث سنوات. ولقد كانت فرحتي بها عظيمة ، وكان الحادث السعيد ينبيء عنه الشهر السابع من حمل زوجتي ببكر البنين ،مما يهيئني لفرحة اعظم . وكانت عبارة (الحمد لله) على شفاهنا – زوجتي وانا – تنم عن مدى سعادتنا بما توصلنا اليه .

– ٥ –

وودعنا دمشق الى عمان ،فبقيت فيها من اجل الحصول على اجازة المحاماة، في حين استأنفت زوجتي سفرها الى الكرك لتستعد هناك لاستقبال وليدنا الاول . ولم يمض شهران حتى كنت تقدمت لفحص الاجازة ونجحت فيه . وتسلمت الترخيص لي من وزارة العدلية بمزاولة مهنة المحاماه ، وأني لأذكر تاريخ ذلك جيداً : ١٩٤٦/٨/٢١ ،وعدت الى فندق فلسطين حيث كنت اقيم فوجدت من يبشرني بميلاد (امجد) وان صحة والدته قد تحسنت بعد خطر ، فسافرت الى الكرك في اول سيارة اجرة ، ودخلت على زوجتي في غرفتها في بيت والدها ، وقد انساني ما بلغني عن حالتها الصحية رؤية الوليد الجديد او الاهتمام به . . . وفي المساء تحسنت حال زوجتي فشعرت بوجودي وسألتني عما اذا شاهدت الطفل واستفسرت عنه وطلبت رؤيته ، فجاءت به جدته الينا ورأيناه معاً ، فسرت في جسمي رعشة الجذل ، وطافت في عيني زوجتي دموع الفرح ، فاستودعتها بحجة التعب وحاجتي الى النوم .

ولـــكن اين انا من النوم واين النوم مني ؟ ! . . . لقد طويت تلك الليلة كلها نهباً للافكار ، في موجات رائحة غادية، استعرضت فيها ماضيّ وتأملت في حاضري ، وطوفت في افق مستقبلي .

اما عن الماضي فقد وصلت في امره الى نقطة حاسمة ، وهي انه انتهى بخيره وشره . واما الحاضر ، فها انا زوج للمرأة التي احببتها واحبتني ، وأب لطفل مايزال في يومه الاول . وها انا حصلت على شهادة الحقوق واجـــازة المحاماة ، ولطالما تمنيت هذه الشهادة لتكون حجر الاساس في بنـــاء مستقبلي . ولـــكني الى هذا ، لا املك من المال ما استطيع به تقديم ما تحتاجه زوجتي اذ ذاك مع العلم بأن كل شيء كان متوفراً لديها . . فهي عنـــد والدتها ، المرأة الطيبة الـــكريمة ، التي تجمعت فيها كل صفات الطيب والنقاوة ، والتي تعزني وتحبني اكثر مما تحب ابنتها . وليس لي بيت خاص مؤثث استطيع ان انقـــل زوجتي اليه ، ولم اكن قد قابلت والدي بعد ، ولم يكن في نيتي ان الجأ اليـــه طالباً معونته ، اذ يكفيه مني انني كنت السبب في بيع ثـــلاث قطع من اجود اراضيه . وخرجت من هذه اللجة في حاضري ، الى الرأي الحازم بأنـــه من الافضل لي ان اواجه المستقبل دون اللجوء الى طلب المعونة من احد . معتمداً على الله وعلى نفسي ، مهما تكن النتائج .

واما عن مستقبلي ، فعلى الرغم من اعتقادي وايماني انه بيد الله سبحانـــه وتعالى ، فقد كانت فسحة املي فيه واسعة جداً ، وكان يلازمني احساس قوي بأني ساصبح يوماً ما رجـــل دولة وذا شأن في سياسة بلادي . ولقد انست في نفسي مثل هذا الاحساس منـــذ الصغر ، واذكر انني حدثت الـــكثيرين عن احلام حلمتها تحت تأثير هذا الاحساس ، وكلها كانت تؤول في تفسيرها الى ان مراتب عاليه تنتظرني . .

واني لأذكر جيداً حلماً حلمته وانا بعد تلميذ في مدرسة الكرك ، اذ رأيتني اتسلق سلماً عالياً وانني وصلت اعلى درجة في السلم . وانه من قبيل الالمام بحقيقتي ، لا اعدو الواقع اذا قلت انني كثيراً ما قرأت مستقبلي في احلامي. وليسمح لي قارئي ان استبق التسلسل التاريخي ، لاذكر هنا حلماً يعرفه صديقي فرحان الشبيلات وقد كنت ذكرته له في حينه وفسرته له . ففي عهد المرحوم توفيق ابو الهدى ، تقدمت واخوان لي من الحزب الوطني الاشتراكي – اذكر منهم السادة سليمان النابلسي وعبد الحليم النمر وشفيق الرشيدات – الى الانتخابات النيابيه . وقبل تلك الانتخابات بشهر ، حلمت انني واخواني المذكورين نصعد جبلا واني الوحيد الذي استطاع ان يبلغ القمة في حين سقط رفقائي الى الوادي . وقد ذكرت للسيد الشبيلات انهم سيسقطون في الانتخابات جميعاً واني سأكون الوحيد من الحزب الوطني ينجح فيها .

وقصة اخرى ... اذكر انني عندما الّفت حكومتي سنة ١٩٥٥ محاولا ضم الاردن لميثاق بغداد ، حلمت ليلتها انني وزوجتي في سيارتنا على طريق الزرقاء متجهين الى بغداد ، فلاحقتنا سيارة فيها مسلحون ، وقد اسرعنا امامها فخرجت سيارتنا عن جادة الطريق وانقلبت ، غير اننا لم نصب باذى . وقد رويت لزوجتي في الصباح هذا الحلم ، وقلت لها « لن تستمر حكومتي طويلا » وبالفعل لم تدم وزارتي سوى اسبوع واحد مليء بالمظاهرات والزعازع .

اعود الى القول انني وانا اراجع نفسي في ليلتي المسهدة تلك على اثر ميلاد المجد ، وجدتني واثقا من نفسي مطمئنا ان مستقبلي . ولم يغمض لي جفن الا مع الفجر ، ونمت والأمل يملأ نفسي والثقة في مستقبل مرموق تخالج كل جوانحي .

وفي الصباح جاءني خليل الادهش المعايطه مسلما ومهنئا ، وسرد علي قضية له مطروحة أمام محكمة البداية في الكرك ، وطلب الي ان اكون وكيله فيها . واتفقنا على الاجر ، المقدم منه والمؤخر ، ودفع لي المقدم عشرة دنانير ، وكان هذا المبلغ في حينه كأنه الف دينار ! . .

وفي ثقة واطمئنان ، ذهبت الى دار المحكمة فسجلت الوكاله ، وتصفحت اوراق القضية ودخلت رأساً الى قاعة المحكمةالبدائيه ، فرّحب بي رئيسها الاستاذ نجيب الرشدان اجمل ترحيب ، وكان لمجاملته الكريمة هـــذه اطيب الأثر في نفسي ، كما انها لفتت انظار الحضور في قاعةالمحكمة اذلم يسبق ان رأوا مثل هذه المجاملة من رئيس المحكمة لمحام من قبل . وكنت موفقاً في مرافعتي ومقلا ايضا ، وكان الرئيس والاعضاء يشجعونني على الكلام ولا يخفون ارتياحهم لاسلوبي في المرافعة ووضوح الفكرة فيها وسلاسة الفاظها . وكان وكيل الخصم محامياً من الجيل القديم ، حصل على اجازة المحاماة دون ان يدرس القانون ودون ان تكون لديه الثقافة الكافية لان يعبّر عن رأيه ان كان لديه رأي . ولعل رئيس المحكمة كان على حق في مجاملتي ، اذلم يكن في الكرك محام بالمعنى الصحيح ، فقد حصل المحامون فيها على اجازاتهم المهنية في ظروف محلية خاصة ، وكانوا اشبه ما يكونون بالاميين . . . فـــاذا اضيف الى ذلك ان هيئة المحكمة ، رئيساً واعضاء ، كانوا من خريجي معهد الحقوق بدمشق وهو المعهد الذي تخرجت فيه ، اتضح الدافع الشريف الذي حدا بالرئيس لان يرحب بي ذلك الترحيب الملحوظ . وأكثر من ذلك ، فقد دعاني الاستاذ الرشدان الى غرفته الخاصة في اثناء فترة الاستراحة حيث شربنا القهوه ، وكان لهـــذه الظاهرة لدى اصحاب الدعاوى المنتشرين في ابهاء المحكمة أثرها الملموس ، اذ تهافت عليّ الموكلون فسجلت لدى الكاتب العدل ثلاث وكالات جديدة جـــاوز مقدم اجورها الخمسين ديناراً . ولست اعزو كل ذلك الاقبال الى تلطف رئيس المحكمة بمجاملتي واكرام وفادتي كما ذكرت ، فقد كان لمكانة عائلتي ولدعاية اصدقائي اعضاء النـــادي الاهلي ولحب الناس لي شخصياً أثر كبير في ذلك الاقبال ، غير ان تلك المجاملة كان لها أثرها المباشر في نفوس اصحاب المصـــالح كما كان لها انعـــكاسها الطيب في نفسي ، اذ اكدت لي ذاتيتي ، وشجعتني على ان الج باب المحكمة وأن اترافع في قضاياي منذ البداية غير هياب ولا وجل .

واذكر انني عدت الى البيت يومئذ عودة الظافرين ، واقبلت على زوجتي وولدي متهللا وقبلتهما قبلات سعيده ، ورميت بحصيلتي من الدنانير كلها الى زوجتي ، وقد احسست ان الحظ بدأ يبتسم لي وان ابواب السعادة قد تفتحت جميعها امامي . وفي ذلك اليوم الظافر ، وكان اول يوم في حياتي العملية بعد تخرجي من الجامعة ، ايقنت ان الفرص ستتهيأ لي لا محالة ، وان في استطاعتي ان انفع نفسي وانفع بلدي .

وتهيأ لي من الحظ ما لم يتهيأ لغيري من المحامين في الكرك . وافتتحت مكتباً لا بأس به ، وعينت كاتبا فيه ، واضطردت اعمالي وتوسعت ، وكان لي قضاياي في معان والطفيله ايضاً ، ولدى محكمة الاستئناف في عمان — وكانت هي المحكمة العليا في البلاد — وصارت لي اتصالاتي بالاوساط الحكومية . وبدأت شخصيتي تشق طريقها ، ثابتة الخطى ، مرموقة الجانب . ولا بد لي من التقرير هنا ، بان اشتغالي قبل انتسابي لمعهد الحقوق بدمشق كاتبا لمدة تزيد على الثلاث سنوات — تقلبت خلالها بين محاكم الصلح والبداية والاستئناف والادعاء العام — كان له اثر كبير في نجاحي في المحاماة ، اذ انني مارست المهنة ولم يكن مشروطاً لها التمرن لدى محام كما هي الحال اليوم ، وقد سد ذلك الاشتغال القديم في الكتابة للقضاء على مختلف درجاته مسدّ التمرن اللازم لخريج جديد في الحقوق ، مما ساعدني كثيراً في اتقان المهنة منذ الاخذ بها .

— ٦ —

وعلى هامش ما اشرت اليه ، من أثر مكانة عائلتي في نجاحي السريع في المحاماة ، فاني هنا اشارك القارىء في التساؤل عن مدى هذا الاثر في تكوين شخصيتي . فانا وكما يعلم الكثيرون ، انحدر من قبيلة اشتهرت في الماضي



الفريق حابس المجالي

والحاضر بمكانتها المرموقة بين القبائل الاردنية ، وعرفت بشجاعتها وبقدرتها على الدفاع عن قبـائل الكرك ضد غزو القبائل الاخرى المجاورة واعتمادها الغزو ايضاسببا من اسباب معيشتها . وقد كانت الزعامة فيها تنتقل، وحـتى يومنا هـذا ، بالبيعة ، حيث يشترك جميع مشايخ الكـرك عند وفاة الزعيم الراحل ، بتقليد الزعيم الجديد هذه الزعامة ، وغالباً مايكون هذا الارشد من ابنـاء الزعيم السابق أو اخوته .

وقد ظهر في العائلة عدد من الزعماء قاموا باعمال سياسية كان لها اثرها الذي لا ينكر ، في السياسة المحلية والعربية ، منهم توفيق المجـالي عضو مجلس « المبعوثان » العثماني وأحد رواد الحركة العربية . والشيخ قدر المجالي الذي قادثورةمسلحة ضد الاتراك فيعام ١٩١٠ معارضا اياهم فيتجنيد العرب بالقوة . ورفيفان المجالي وقد كان بحق احدى الدعامات القوية التي استند اليها المغفور له الملك عبد الله في تأسيس المملكة الاردنية الهاشمية . وها هو احد أنجاله الفريق حابس المجالي يقوم بتأدية دور خطير في خدمة الاردن لا ينكر أثره الطيب .

وقد اشتهرت العائلة الى جانب ذلك ،بالكرم والنخوة والحلم والتواضع . واذا كانت هذه الصفات في الماضي وفي محيط بدائي، هي كل مقومات الزعامة الحقيقية ، فقد اخذ شأنها يتضاءل بعد قيام الادارة الحكومية والقضاء على عادة الغزو ووضع حد لاحتراب القبائـل . وساعد قيام الحكومات وانتشار التعليم واتساع التجارة ، على نشوء زعامات جديدة في الكرك ، نافست زعامة عائلتنا في الزمن الاخير . يضاف الى ذلك اننا بوفاة المرحوم رفيفان المجـالي ، فقدنا القيادة الحقيقية للعائلة في الكرك نفسها . وقد ساعد تخلينا عن كثير من الصفات والمعاني التي اشتهرنا بها في الكرك ، على اثارة روح من النقمة علينا وعلى تكتل القبائل ضدنا ، ولا سيما في الانتخابات . وقد كاد يتم لها الغلبه ، لولا ظهور شبان جدد منا استطاعوا الحفاظ على تقاليد العائلة والابقاء على مكانتها واحترامها حتى يومنا هذا .

وليس من شك في ان بعض الصفات التي اشتهرت بها العائلة ان لم تكن كلها قد اثّرت فيّ بنسب متفاوته ، غير ان ادراكي للتطور الجديد ولضرورة مسايرة الاوضاع المستحدثة ، واعتمادي سياسة محاسنة الجميع في الكرك وملاطفتهم وخدمتهم على السواء ، جلب لي التقدير والمحبة العامة ، مما كان له اثره الفعال في نجاحي في الانتخابات وكان بعضها في ظروف عصيبة جداً .

- ٧ -

قلت انني كثيراً ما كنت اتردد على العاصمة ، بسبب وجود محكمة الاستئناف فيها . وكنت التقي فيها بجميع اصدقائي ، احياناً في المقاهي ، واحياناً اخرى في نادي الملك حسين . وكانت احاديثنا في تلك الايام تدور حول الوضع الحكومي ووزارة السيد ابراهيم هاشم رئيس الوزراء آنذاك . وكان همنا ينصرف الى الضغط عليها والى اشاعة اللغط حولها ، لحملها على الاستقالة ولينفسح المجال للتجديد في « طقم » الوزارة فيتاح للشباب الاردني ولوج الوزارة التي تليها .

وكانت مطالبنا وشعاراتنا في ذلك الحين ، اقصاء غير الاردنيين من الموظفين ، عن المراكز الهامة في الدولة والوزارة ، واحلال اردنيين محلهم . . . ذلك ان المغفور له الملك عبد الله ، عندما انشأ امارته استعان بعدد غير قليل من الموظفين والوزراء غير الاردنيين – من سوريا ولبنان وفلسطين – وكانت سياسة اكثر هؤلاء تقف سداً دون وصول الاردنيين الى مناصب هامة . وهكذا تولد لدى جميع الشباب المثقف والناشئة المتعلمة من الاردنيين ، عقدة حادة ضد الموظفين المستعارين ، وكانت الدعوة الى اقصائهم



واضحة ، تظهر جلياً في قصائد الشعراء ومقالات الـكتاب وخطب المناسبات. وكان هذا البيت للمرحوم مصطفى وهبي التل يمثل تلك الحال في نظرنا :—

زيتون برمـا سيبقى داشـراً ابـداً

لـكل مـرتزق افـاك يجنيـه

هكذا كان الرأي الشعبي السائد اذ ذاك . وكان يمثل هذا الرأي طبقة على رأسها الدكتور صبحي ابو غنيمه ، وكان بعيد الدار عن موطنه يقطن في دمشق . وكنا اذا تعرضنا للانكليز بالنقد وهاجمناهم في مشاغباتنا الكلامية ، فلأنهم فقط كانوا يحتضنون طبقة المستعارين والمرتزقة من الموظفين الغرباء عن الاردن ، اذ لم تكن الدعوة لجلاء الانجليز جدية حتى ذلك العهد .

في هذه الفترة بالذات استدعى المغفور له الملك عبد الله الدكتور صبحي ابو غنيمه من دمشق ، فجاء الى عمان وكان في استقباله ما يزيد عن المئة سيارة ، وحلّ ضيفاً على السيد محمد العجـلوني . وأولم له الملك وليمـة كبرى ، اختلى به على أثرها واستكتبه رأيه في جميع المسائل السياسية ، ومن جملتهـا رأيه في تحقيق مشروع الهلال الخصيب مبتدئاً باتحاد سوريا والاردن ، فوافق الدكتور على ذلك وسجله بخط يده ، واحتفظ الملك عبـد الله بالوثيقة معـه واعداً الدكتور بتعيينه رئيساً للوزراء .

وانقلب بيت السيد محمد عـلي العجلوني ندوة سياسية عامة ، تعج بالشباب وبالكهول من كل مشتغل بالمسائل العامة . وكانت تقوم تـكتلات عنيفة ، ترشح هذا وزيراً وتقصي غيره . ولم يبق احـد الا وزار الدكتور ابو غنيمه رئيس الوزراء المرتقب . . حتى الملك عبدالله جاء لزيارته . . وبين مظاهر الترحيب من الجموع المنتشرة في جميع ارجـاء بيت السيد العجلوني ، ابدى الملك اشارة للدكتور بأن يشترك في وزارة يكون فيها نائباً للرئيس تمهيداً

لتأليف حكومة جديدة برئاسته . غير أن الدكتور ابلغ الملك بأنه لا يقبل بهذا وأصر الملك عبدالله على رأيه ، فعـاد الدكتور صبحي ابو غنيمه الى دمشق ، ولم يكن في وداعه غير القليل جداً من الاصدقاء ! ...

وقام الملك عبدالله بزيارة الى تركيا . وهنـاك تلقى مزيداً من البرقيات الاحتجاجية وجهها اليه عدد من الشباب الاردنيـين الذين كانوا في دمشق . وفجرّت في عمان مفرقعات لم تحدث اي ضرر ، ولكنها اثارت اهتمام الحكومة والناس معـاً ، اذ لم يسبق ان هزت اعصـاب المسؤولين في عمان بمثل هذه المتفجرات . . وقد اعتقلت على اثر ذلك .

ولدى عودة الملك من تركيـا ، طلب الى ابراهيم هاشم ان يستقيل وعهد الى السيد سمير الرفاعي تأليف الوزارة . فاشترك فيها ولأول مرة السادة سليمان النابلسي وبشاره غصيب وعباس ميرزا والشيخ الشنقيطي ، وقداعتبرت اوساطنا ذلك نصراً للفكرة التي كنا ننادي بها ، فابرقت الى الرئيس الرفاعي من الكرك ، اهنئه واذكّره بنضال الشباب الاردني ومطالبه ، وان تحقيق هـذه المطالب امر جوهري لثقة الاهلين في الوزاره ...

وعلى اثر ذلك ، طلب الرئيس الرفاعي من وزير الداخلية استدعائي لمقابلته . ويظهر ان السيدعباس ميرزا أخطأ في فهم المقصود من الطلب فأمر بالقاء القبض علي وارسالي مخفوراً الى عمان . وبالفعـل أرسلت في سيارة مكشوفة عبر الصحراء وبطريقة لا تخلو من قسوة ، ووصلنا الى عمان بعد منتصف الليل ، فقضيت بقية الليلة في قيادة شرطة العاصمه !...

وفي الصباح استدعيت لمقابلة رئيس الوزراء ، وكان اول ما قابلته أن قصصت له الطريقة التي تمّ بهـا احضاري اليه ، فامتعض واعتـذر اعتذاراً كريماً . وقد ابدى وزير الداخلية اسفه لذلك، وطلب مني ان اذهب الى الشونه حيث كان مشتى الملك عبدالله ، وان انتظر فيها ريثما يطلبني الملك ، اذ كان الملك أبـدى رغبته في ان يراني ...



وبعد انتظار طويل في الشونه ، استدعيت للتشرف بالمثول بين يدي الملك عبد الله ، وكانت مقابلة لم تسرني ، اذ بادرني بان صبّ عليّ الاتهام باني شريك في ارسال البرقيات الى تركيا كما اني شريك في القاء المتفجرات في عمان واني . . . واني . . . وعلم الله اني لم يكن لي ضلع في هذه الامور كلها ... وقد طردني الملك من مجلسه ، وفيما انا اغادر قصر المصلى استدعيت ثانية اليه فاسترضاني رحمه الله ، وتحدث الى السيد الرفاعي راغباً في توظيفي في الحكومة .

وعدت الى عمان كافراً بكل شيء . وفي صباح اليوم التالي استدعاني رئيس الوزراء وأظهر استعداده لتعييني قاضياً للصلح او قائمقاماً فاعتذرت . ويبدو انه ادرك ان لاعتذاري صلة بمقابلتي للملك ، فعرض الامر على جلالته ، وما كان منه الا ان استدعاني في اليوم الذي يليه ومعي عمي دليوان المجالي ، وأمر في الحال أن اكون موظفاً للتشريفات في القصر ، وأفهمني انه لا يقبل لي اعتذاراً عن ذلك ، وكان اسلوبه اخاذاً ولطيفاً جداً ، بحيث طابت نفسي وارتضيت العمل في القصر على النحو الذي رغب فيه الملك .

- ٨ -

كان ذلك في مستهل عام ١٩٤٧ ، عندما تسلمت وظيفة التشريفاتي في بلاط المغفور له الملك عبد الله . ولقد باشرت عملي الجديد هذا ، وانا اخشى ان لا اصلح له بسبب طبيعتي المنطلقة ونشأتي البدوية وجهلي بالبروتوكول ، فهذه كافية لان تجعلني اتوقع الفشل في هذا المضمار الذي اقحمت فيه، يضاف

الى ذلك اني اكتشفت منذ الايام الاولى ، انني اعيش في جو من الحذر الزائد : فالموظفون من حولي في سباق مرير لاسترضاء الملك عليهم ، ولو كلفهم ذلك خلق حكايات لااساس لها ، او تشويه حقائق لم يكن في تشويهها مصلحة لأحد ، الا الوقيعة بزملائهم ومحاولة اقصائهم عن القصر . وكان موظف القصر يعيش على اعصابه ، فهو ان جانبه الحظ وقام بعمل اغضب الملك ، كثرت طعون زملائه فيه وامتدت السنتهم تتناوله في غير ما رحمة ، وكأنها سكاكين الجزار تنتاش ضحية العيد . وهو اذا اتفق وابتسم له الملك ، اخرجه التيه بالابتسامة الساحرة عن طوره الحقيقي . واذا اتفق واستدعاه الملك الى غرفته ، خرج من لدنه يقوم باشارات تشعر انه موضع الثقة والمؤتمن على الاسرار . وقد طالما كان يحدث ان يستدعي الملك موظفاً ليلفت نظره الى عمل قام به ، فاذا انصرف من مجلس الملك ، تصنع الابتسامة وحاول ان يخيل للرائين ان الملك استشاره في مسائل هامه ، وما كل هذا الايهام الا ليقي نفسه شماتة الزملاء ! . . .

ازاء هذا الذي رأيت ، اعتمدت لي اسلوباً خاصاً لا تصنّع فيه ولا تكلّف ، ولا لبس فيه ولا ايهام . فقد كنت على غاية من الصراحة في كل ما يطلب الي ان اقوله للملك ، وكنت اتحدث اليه دون ما تقيد بالديباجة المألوفة لدى موظفي البلاط ، ولم اكن لاهتم لتعليقات زملائي أو لنصائحهم حول ذلك . وكنت اطلع الملك على كل امر اعتقد ان الصالح العام يقتضي اطلاعه عليه . وعلى الرغم من أن بعض الاخبار والتعليقات التي كنت انقلها اليه كانت تقلقه أو لا تنال مرتبة الرضا لديه ، الا انه كان يرتضيها مني لاني كنت افتح له باب معالجتها باسلوبه الفذ ، وكثيراً ما كان يرتاح لنتيجتها في النهايه. فأرتطمت هواجس الزملاء ممن كان يتوقع ان اقصى عن القصر بل وأن اطرد منه طرداً ، ارتطمت هواجسهم بالحقيقة التي لم البث أن اخذت اعيشها مع الملك العظيم . اذ اخذ هو يقرّبني اليه كل يوم اكثر من سابقه ، الى ان طلب مني

ملازمته . وقد آمنت انه يثق فيّ ، ايمانه بصدق اقوالي وحسن نيتي في رأيي ، ولم يكن يؤاخذني على ما كنت اقع فيه احياناً من خطأ غير مقصود . فاحببته حباً لم يسبق لي ان محضته سواه ، واخلصت له الاخلاص كله في السر والعلن ، وما زلت حتى اليوم وفياً له في ذكراه ، فخوراً بهذا الوفاء في مماته فخري به في حياته ، رحمه الله .

لم اكن اعتب اذا هو دعا غيري من الزملاء ولم يدعني . ولم اكن اغضب اذا اركب غيري معه في السيارة وتركني ، أو اذا استكتب غيري ولم يستكتبني ، أو اذا ابتسم لغيري ولم يبتسم لي . وهذه الظواهر وان بدت صغيرة ، الا ان موظفي القصر كانوا مع الاسف يعلقون عليها اهمية كبرى ، حتى انها كانت شغلهم الشاغل ومدار احاديثهم وسبب تنافسهم . والذي لا سبيل الى نكرانه ، ان هذه الامور البسيطة كانت ذات اثر فعال في مجرى الحوادث ، اذ لم يكن للموظفين من هم ، سوى الافادة منها ، وكانوا في صددها يقلبون الأمور ويجعلون من اخضرها المخضل يابسا... كل ذلك في سبيل نيل الحظوة لدى الملك واستجلاب عطفه ولطفه .

– ٩ –

وكان لا بد لي من ان استأجر بيتاً في عمان ، وجاءت زوجتي على غير رضا عن عملي الجديد ، إذ كانت تتمنى لو اننا بقينا في الكرك بعيدين عن الاضواء . ولا يعجبن القارىء إذ ما افضيت له بذات نفسي ، واعترفت باني ما زلت نادماً على عدم استجابتي لنصيحتها في الابتعاد عن الاضواء ،وعن شواده الدولة وبهرج العالم .

ومهما يكن من امر ، فقد اتاحت لي حياتي الجديدة في عمان ، الاتصال بجميع السياسيين في الاردن ، وكان من حظوتي لدى الملك عبدالله ان جعلت الكثيرين منهم يتوددون الي ويترددون علي . وكنت مقدراً عوامل هذا التودد واسباب هذا الاستلطاف ، فلم تغرني المظاهر ، وكنت امينا على نقـل اقوالهم ومقترحاتهم وأرائهم واحاسيسهم ، اذا لمست فيها الصدق وخلوص النيـة . وكنت انفر من طريقة الكثيرين منهم ممن يقابلون الملك ، لاساءتهم الى الآخرين في سبيل اظهار اخلاصهم.

كان الملك عبدالله ، رحمه الله ، سياسيا من طراز رفيع . وكان اديباً وخطيباً وكاتباً وشاعراً . وكان فوق ذلك كله انسانا بكل ما في هذه الـكلمة من معنى . وقد هيأ لي اشتغالي في معيته فرصة نادرة للاستفـادة من شتى صفاته ، وابرزها في نظري صراحته البعيدة المدى والناتجة عن رأيه الحصيف ومعتقده المخلص المنزّه عن الهوى . ولقد جلبت له هذه الصراحة الكثير من النقد والمزيد من الخصوم ، فقالوا عنه انه عميل امين للغرب !.. والحقيقة انه كان عـدوا لدودا للشيوعية ، ويعمل لمصلحة بلاده لا لمصلحة الغرب . ولم يكن ينسى موقف الغـرب من والده والثورة العربية بعد الحرب العالمية الاولى ، ولكنه وبلاده في حاجة الى العون الاجنبي ، لم يكن امامه سوى الغرب لتقديم مثل هذا العون وتقبله منه . لا سيما وسياسته من الشرق على نحو ما ذكرت . كان الملك عبدالله يدرك تمام الادراك ان علاقات الدول بعضها ببعض ، ليست وليدة العاطفة والمزاج ، وانما تقوم على اساس من المنفعة المتبادلة ، وما دام انه يتوخى الاستفادة من الغـرب لصالح بلده وجيشه وشعبه ، فلا بد له من دفع الثمن . غير انه – والحق يقال – كان يحرص اشد الحرص على ان يكون الثمن الذي يدفعه الاردن مقابل ذلك، ضئيلا وفي اضيق نطاق .

لقد كان الملك عبدالله يحلم بتحقيق وحدة الهلال الخصيب و كان يسعى لها سعياً حثيثاً، اذ كان يرى فيها السبيل الوحيد لقوة العرب وابراز شخصيتهم في المجال الدولي. وكان خصومه ينكرون عليه سعيه، ويقولون عن مشروع وحدة الهلال الخصيب انه مشروع استعماري. والحقيقة التي اعرفها، ويعرفها غيري حق المعرفة، ان بريطانيا وفرنسا معها من قبل، كانتا تقفان في وجه تحقيق مشروعه. وتهيأت عدة فرص، ولقد همّ الملك عبدالله باغتنامها لتحقيق ذلك المشروع، غير ان الانكليز والغرب وقفوا بعناد في طريقه.

كان الملك عبدالله من السياسيين العرب القلائل الذين اعتمدوا العقل المجرد والحساب الواقعي الدقيق، وتقدير الموقف بتجرد بعيد عن العواطف والخيالات والاوهام. لم يكن للعاطفة او للرغبة في ارضاء الناس ودغدغة عواطفهم أي حساب في آرائه واعماله السياسية. كان يعلم انه قائد بكل ما في كلمة قائد من معنى، وكان يعرف ان واجبه يقضي عليه بأن يرسم وينبه ويقول ما يعتقده حقاً، ولم يكن يكترث لرضى الناس او غضبهم. وكان حسب اعتقادي من ابعد الحكام والسياسيين نظراً وتبصراً في عواقب الامور، ولم تكن في ذهنه اية اوهام وخيالات عما يمكن تحقيقه وما لا يمكن. وكان بالاضافة الى الى كل ذلك صريحا الى منتهى حدود الصراحة، لا يجامل في رأيه ولا يحابي، واعتقد ان سياسياً وحاكماً بهذه الصفات قد سبق أوانه بكثير. ولم يكن محيطه السياسي والعربي من الوعي والتفهم وتقدير الاحوال والظروف بحيث يستطيع تقدير مزاياه وصفات الحنكة والمقدرة والدهاء التي امتاز بها، ولهذا انفتح الباب على مصراعيه امام خصومه، لينالوا من سمعته ما شاء لهم الانتهاز، وما شاء لهم الحقد ونوايا التجريح والتشهير.

لقد أخذ عليه خصومه انه نادى بقبول التقسيم، وواقع الامر ان الذين يعرفون الملك عبدالله كانوا يعرفون فيه أنه من اشد الناس تقديراً لعواقب التقسيم الوخيمة ومناقضته للاهداف والعقائد القومية. وقد بذل المستحيل باتصالاته

حتى يبعد بريطانيا عن التفكير بتنفيذ التقسيم ، ولكنه كان في الوقت نفسه يدرك هزال الجهد العربي آنذاك ، ويعرف ان العرب لم يكونوا في وضع يمكنهم من فرض رأيهم او تنفيذ مشيئتهم . ولهذا كان من رأيه القبول التكتيكي بالتقسيم . وكان يبين للمسؤولين المقربين اليه ان هذا الحل هو اقل ضرراً من النتائج التي تنجم فيما لو ركب العاطفيون رؤوسهم . ولعل لا حاجة بنا الآن للقول ان الاحداث اثبتت صدق رأيه وصدق حسابه ؛ ومن المفارقات ان الاوساط والجهات التي اعلنت النكير على جلالته ، ولم تتورع عن التشهير به والنيل من سمعته ، قد اصبح التقسيم عندها اليوم امنية قومية ، حتى وأمنية قومية عزيزة ! ....

ولقد اخذوا عليه انه كان دكتاتوراً . وانا أرفض هذا المأخذ رفضاً قاطعاً . فقد كان يستمع الى كل رأي ويأخذ بالرأي الصائب ، وكثيراً ما كان الرأي العـــام يجعله يعدل عن آرائه الـــتي لو تعصب لها ونفذها لحقق بعضها للاردن وللعروبة خيراً كبيراً . ثم لنفرض انـــه كان دكتاتوراً كما قال عنه خصومه ، فانه كان باني هذه المملكة ، وكان من حقه ان يطمئن الى سلامة البناء ، وان يمكّن له ما استطاع التمكين والتوطيد .

واخذوا عليه اكثر ما اخذوا ، انه كان يسعى الى اجراء تسوية سلمية لقضية فلسطين وأنه رضي باجراء محادثات في هذا السبيل . ولقد سببت هذه السياسة للملك الشهيد متاعب جسيمة ، ولكـــنها كانت من وجهة نظره الوسيلة الوحيدة المجدية لتأمين اكبر قسط من الحقوق العربية ، الى ان تتسنى للعرب الفرصة المواتيه لاحقاق الحق العربي الكامل في فلسطين .

ولست اقصد الدفاع عن هذه السياسة ، غير اني استطيع ان اقول ان هذا كان رأي الكثيرين من الزعماء السياسيين في فلسطين والاردن على السواء ، وان هؤلاء الزعماء كانوا يشجعونه ويقنعونه بانها السياسة الوحيدة المجدية . ثم ان تلك المحادثات كانت تجري بواسطة الحكومة وبمباشرة سياسيين اردنيين كبار ....

لمــاذا قبل هؤلاء فكرة المحادثات او عــلى الاقل لماذا لم ينصحوا بالتخلي عنها ؟ . . . لقد كان اكثرهم يستقيل لاسباب تافهة كامتناع الملك عن الموافقة على تعيين موظف ما . . . فلماذا لم يستقيلوا عندما وجــدوا انفسهم يشتركون في هذه المحادثات ؟ .

ولا بد لي هنا من التقرير بأن تلك المحاولة كانت تستهدف حلا افضل من التقسيم بكثير ، سواء بالخطوط العريضة او بالتفاصيل . ولعل من المفارقات ان يجاهر معظم الساسة العرب الان ومن جملتهم اولئك الذين تــآمروا على سمعة الملك الشهيد وعلى حياتــه ، بحلول لقضية فلسطين لا تتعدى التقسيم ، وعلى اي حال لا تصل مزايا حلولهم الى جزء من الحلول التي استهدفها جلالته . ومن المفارقات ايضا انهم يعتبرون انفسهم في نهاية التطرف والوطنية عندما يجاهرون بذلك . . . فسبحان الله . . .

اما ضياع المثلث العربي في اتفاقية رودس ، فهو وان كانت قضيته خطيئة لا تغتفر ، الا انها كانت عملا حكوميا صرفا ، تتحمل مسؤوليته الحكومة التي قبلت بهذه الاتفاقية واقرتها .. وسنعرض لاكثر هــذه المسائل بالتفصيل حسب تسلسل مواضيعها .

- ١٠ -

كانت الحكومة ، عندما التحقت بخدمة القصر ، برئاسة السيد سمير الرفاعي ، كما سبق وذكرت . وكانت المشكلة الرئيسية التي تواجهها وتشغل بال القصر ، قضية فلسطين وما يمكن ان يكون عليه قرار هيئة الامم المتحده بالنسبة لتواصي اللجنة الانجلو اميركية حول فلسطين . . . لقد كانت القضية

معروضة برمتها عـلى هيئة الامم المتحدة ، وحددت لذلك التخلي يـوم ١٥ ايـار ١٩٤٨ . فانصرفت الحكومة الى حضور المؤتمـرات المتكرره في جامعة الدول العربية وفي غيرها في بعض الاقطار العربيه . وفي ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ اعلنت هيئة الامم المتحدة باغلبية ضئيلة قرارها بتقسيم فلسطين . . .

كنا يومئذ في عمان . . وكان كل ما حولنا ينبيء بحرج الموقف ، وقد ارتسمت على وجه الملك عبد الله امارات جد يفوق كل جد . واخذت نذر العاصفة تلوح في افق الحياة وليس لها الا ان تهب في اية ساعة ، والناس بـين متفائل ومتشائم .. غير ان المتشائمين كانوا يخفون ما يعتلج فيهم من سوانح الهم الطارىء . وتحرك الركب الملكي الى الشونه ، حيث كان الملك يقضي فصل الشتاء ، وفي طريقنا اليها شاهدنا دخان الحرائق يتصاعد من مدينة القدس ، فاستاء رحمه الله لهذا الاستعجال . . . .

وما ان وصلنا الشونه ، حتى هاتف الملك عدداً من الزعماء الفلسطينيين ، وأذكر منهم روحي عبد الهادي وامين عبد الهادي واحمد حلمي عبد الباقي ، ونصحهم بالتريث في عمل ما يجب ان يعمل ، حتى يستعد الفلسطينيون ويهيئوا انفسهم للعمل المجدي ، وحتى يتبينوا مدى نجدة اخوانهم لهم من الاقطـار العربية الاخرى . وذكرهم بان اليهود مستعدون استعداداً حربياً منظماً وان لهم قيادات مركزية ومحلية وان لهم تشكيلات دولة ، بينما العرب الفلسطينيون شيع واحزاب . وحذرهم من الاسترسال في التحرش باليهود ، قبـل اعداد خطة منظمة والاستعداد التام لتنفيذها ، وان مثل هذا التحرش العاطفي المرتجل قد يجر الى ضياع اقسام عربية كبيرة ووقوعها في يد اليهود قبل جلاء الانكليز الموعود في ١٤ ايـار ١٩٤٨ ، ولان الانكليز سوف لا يسمحون لاي جيش عربي بالدخول الى فلسطين قبل هذا التاريخ ... غير ان هذه النصائح لم تجد مع الاعصاب المتوترة من يأخذ بهـا ، فاحرق العرب حارة الشماعة وسوقهـا ، وكانت هذه فاتحة مناوشات مريرة بين العرب واليهود ، تخللتها بطولات فذة من الجانب العربي .

لقد حمل العرب في فلسطين ، ما تيسر لهم من سلاح ، وما استطاعوا الحصول عليه من هنا وهناك باموالهم ، وبدأت مناوشاتهم مع اليهود ، في يافا وضواحيها وفي القدس وضواحيها وفي حيفا وضواحيها ، وفي كل مكان آخر من فلسطين يلتقي فيه العرب باليهود . وكان من شأن الاعمال البطولية الفردية الرائعه ، التي ظهرت من المجاهدين الفلسطينيين في تلك المناوشات ، ما اثار اعجاب اخوانهم في دنيا العرب وفي الدنيا باسرها . وبرزت ازمة تدمي القلوب ، هي ازمة السلاح ، وحاجة الابطال اليه ، فقد صحوا وهم في صميم المعركة وفطنوا الى انهم سعوا الى الهيجاء بغير سلاح . . ولقد رأيت بنفسي اخواننا الفلسطينيين يجوبون العواصم العربية والمدن والقرى ، يحملون معهم حلي زوجاتهم وبناتهم واخواتهم ، ويبيعونها بثمن بخس ليبتاعوا بندقية او مسدساً بثمن خيالي ! ... وكانت هذه الحاجة الملحة في هذا المأزق الحرج ، سبباً في ثراء الكثيرين من ذوي الضمائر الفاسدة والمتجرين بالوطنيه . . وكانت موجة عارمة كالحة ، تصيّد المحتالون والنصابون في مياهها العكره ...

مساكين هؤلاء الفلسطينيون . . لقد فعلوا المستحيل من اجل المحافظة على ممتلكاتهم ومدنهم وقراهم ومزارعهم ، وجادوا بدمائهم رخيصة في سبيل عروبة فلسطين ، بل في سبيل بقائهم عرباً في فلسطين ، ولكنهم كانوا متأخرين فيما اقدموا عليه من صراع ، ما كانوا ليخوضوه بهذا اليأس القاتل لو ان زعماءهم اشفقوا عليهم ونبهوهم قبل دنو ساعة الصفر الى ما يجب التنبه له والاستعداد من اجله . فآل الامر الى انهم كانوا ضحية قصر نظر زعمائهم وتنافس الحكومات العربية على اقتسام اراضيهم ، واقبال الدول الكبرى –غربيها وشرقيها – على استرضاء خصومهم ! ... ولقد كانت جميع الدلائل تشير الى اننا نخوض معركة خاسرة ، ولم يخفف من حدة هذه الدلائل ومرارتها تدفق المتطوعين باعداد كبيرة ، ومجيء « جيش الانقاذ » ! . . . لقد كان

الارتجال قاسماً مشتركاً اعظم بجميع الاعمال التي تمت في سبيل تدارك الموقف. واني لاجزم ان خسارتنا الفادحة في فلسطين كانت نتيجة حتمية للارتجال والاستهتار والتقديرات الخاطئة !...

ان تقدير الموقف الحربي العربي في فلسطين آنذاك، وتقدير النتائج التي تترتب عليه، لم يكن ليحتاج الى المام زائد بالفنون العسكرية . . فقد اعتمدنا في قتالنا ضد اليهود، في الفترة الواقعة بين قرار التقسيم وانسحاب حكومة الانتداب، الوسائل والاساليب اياها، التي كنا اعتمدناها في الثورات التي سبقت هذه الحرب – الحرب الفلسطينية !... اذ ان قيام مجموعات صغيرة غير مدربة عسكرياً هنا وهناك، كان الاساس المعوّل عليه في قتالنا . . . وكانت الرابطة بين افراد كل مجموعة، هي رابطة القربى او « العزوة » في القرية او المدينة، والشعور المشترك في ضرورة الدفاع عن النفس والممتلكات. وكان يزيد أو يقل عدد افراد اية مجموعة تبعاً لازدياد هذا الشعور او ضعفه، وتبعاً لظروف كل فرد واحتياجاته المعاشية، اذ كان عليهم ان يتدبروا اسباب معيشتهم بانفسهم، فضلا عن تدبير السلاح والعتاد . ولم يكن ثمة تعاون منظم او تنسيق للجهد بين هذه المجموعات، اذ كانت كل مجموعة تحارب على طريقتها الخاصة، وكان اختيارها لزمان المعركة ومكانها لا اثر فيه لأية خطة مدروسه . كما ان السلاح لم يكن ليزيد عن مستوى البندقية العادية، مع تعدد انواع البنادق في المجموعة الواحدة وتعدد انواع العتاد تبعاً لذلك . اما مدافع الهاون والبنادق سريعة الطلقات، فقد كانت قليلة جداً .

ولقد ادى تعدد هذه المجموعات المحلية الى تعدد القيادات وتنافرها . ولم تسفر المحاولات الصادقة لتنسيق الجهد بين هذه المجموعات عن نتيجة مرضية، بسبب انعدام الرابطة بينها من جهة، وانعدام الرابطة بين افراد كل مجموعة من جهة اخرى .

ولم يحـــدث دخول قطعات جيش الانقاذ الى جهات متعـــددة من فلسطين ، اي تغيير يذكر على الموقف العسكري . وعلى الرغم من وجودقيادة مركزية منبثقة عن الجامعـــة العربيـــة تتولى تموين وتسليح هـــذه القطعات ، فقد كانت سيطرة القيادة عليها ضئيلة ومحدودة في معظم الاحيان ،وكان قائد كل وحدة مستقلا في تحريك وحدته وادارة شؤونها ، يضاف الى ذلك ان الاساس الذي كانت تقوم عليه الوحدة هو التطوع .

ولقد كان التطوع في كثير من الحالات مجرد تظاهر ، ووسيلة للتبجح والازدهاء ، حتى وللارتزاق مع الاسف .وقد رأيت بعيني آثار هذه الظاهرة في عمان وغيرها ، اذ كـــان المتطوعون يمرون في الشوارع ، بـــين تصفيق الجماهير وهتافهم وزغاريد النساء وتحياتهن الصوتية التقليدية ، وكانوا يطلقون نـــيران بنادقهـــم بغزارة ، فما أن يصلوا مواقعهم في فلسطين ، الا ويكـــون ما لديهم من عتاد قد نفذ او كـــاد . وليس يضير ان نذكر الآن وبمزيد من الاسف ، ان كثيرين من المتطوعين كانوا عبئا ثقيلا على اهـــالي القرى والمدن العربية ، وان التطوع كان احيـــانا وسيلة من وسائل النهب والسلب ! . .

اما موقفنا السياسي ، فلم يكن احسن من موقفنا العسكري الذى اشرت اليه . وانني اجتزىء بان اشير الى انه لم تكن لدى عرب فلسطين هيئة مسؤولة تتولى ادارة شؤونهم ، وتحشد جميع الامكانيات المتوفرة لديهم ، لمعركـــة حاسمة يتوقف عليها مصيرهم . ولقد كان مفروضا ان تتولى الجامعة العربية هـــذه المهمة ، وتســـد الفراغ ، الا انها كانت مشلولة تمـــاما من هـــذه الناحيـــة ، ومرد ذلك عجز جهـــاز الجامعة عـــن القيام بمثل هـــذا الدور الخطير ، وادراك امين الجامعة العام عبد الرحمن عزام ما كان مـــن اختلاف في وجهات النظر بـــين الدول التي تتألف منها الجامعة ، اذ كان تفكير الدول

العربية وهمها منصرفا كليا الى الكيفية التي ستدار بها فلسطين بعد الحرب : هل ستلحق باحدى الدول العربية أم انها سوف تحكم نفسها بنفسها ؟! . . . وقد شغلها مثل هذا التفكير السقيم ، عن التعاون الفعال لكسب المعركة ضد اليهود أولا وقبل كل شيء .

أما الدول الكبرى ، فقد كان موقفها من القضية واضحا . فالدول الغربية وعلى رأسها اميركا ، كانت جادة في تحقيق الدولة اليهودية في فلسطين والتمكين لها ، لتكون نقطة ارتكاز لها في الشرق العربي ، وطبيعي من جهتها ان لا تدخر جهدا في سبيل مـا كانت جادة فيه . واما روسيا فقد كانت تسعى لقيـام اسرائيل وكانت تمد اليهود بالسلاح تحقيقا لسياستها البعيـدة المدى ، والرامية الى خلق اضطرابات دائمة في هذه المنطقة ، تستطيع ان تنفذ من خلالها الى هذا الشرق وخيراته وبحاره الدافئة .

اما الموقف العام لدى الجانب اليهودي ، فيكفي ان يشار باختصار الى وجود هيئة عليا مسؤولة ، هي الوكالة اليهودية ، تشابه في تشكيلاتها تشكيلات اية حـكومة . . . والى وجود جيش معد اعدادا عسكريا كاملا ، يخضع لاشراف قيادة عسكرية منظمة . . والى استعداد عسكري وسياسي تـام ، مهيأ لمثل هذه الفرصة المرتقبة عندهم .

ولقد كانت تكون النكبة اخف وقعا واضيق نطاقا ، لو ان عرب فلسطين كانوا يدركون الموقفين المتقابلين المذكورين . فقد كانوا يعتقدون بوجود استعداد كاف لديهم لمواجهة اليهود ، كما كانت ثقتهم بالدول العربية وجيوشها ، من اقوى عوامل النكبة وفداحتها .

كنا مـــع الملك عبد الله نتابع الاحداث في فلسطين بكثير مـــن المرارة وانشغال البال ، ونتعقب انباء القتال بقلق وتوجس شديدين . وعلى الرغم من تحقيق بعض الانتصارات الموضعية في مشارف القدس على يد الشهيد عبد القادر الحسيني ، وفي جوار يافا على يد اهالي سلمه وتل الريش ، وفي قرى الخليل والجليل الشرقي ، فقد كان شعورنا بالخسارة يطغى على املنا بالنصر ، للعوامل التي اشرت اليها .

كانت الاستغاثات تدق اعصابنا ليل نهار ، وطلبات السلاح تترى من كل صوب . وكنا نطلع الملك على كل كبيرة وصغيرة ، فكان يبادر فورا الى ارسال ما يمكن ارساله من السلاح والعتاد . كان يستحوذ على بعض السلاح من الجيش العربي ، وكان يأمر بشراء البعض الاخر من اي مكان . . ولقد توليت بنفسي مرات عديدة نقل السلاح والعتاد الى احمد حلمي في القدس والى صبحي الخضرا وحسن سلامه في يافا . . . وكنت الحظ ان تلك النجدات من الاسلحة الخفيفة ، كانت تقع في اخواننا موقع الماء من النفوس العطشى ! . . .

وفي نيسان ١٩٤٨ هالنا النبأ الصادع باستشهاد المرحوم عبد القادر الحسيني في القسطل ، وهالنا الفراغ الذي خلفه وراءه هذا المجاهد الجريء . فقد استطاع عبد القادر ببطولته الخارقة ، ان يستعيد القسطل من ايدي اليهود ، وكان عملا فذا ومجيدا حقا . غير ان ماحزّ في نفوسنا بعد مصرعه ، وزاد في اللوعة والاسى لفقده ، ان المتطوعين اهملوا مسؤوليتهم في الحفاظ عـــلى النصر الـــذي حققه عبد القادر ، وتصرفوا تصرفا ليس فيه شيء من عقلية القتال .. اذ حملوا جثمان الشهيد الى القدس ليشتركوا في جنازته ، وتركوا القسطل بغير حامية ، وقد اغتنمها اليهود فرصة سانحة ، واستطاعوا ان يستولوا على القسطل من جديد . وقد كان من شأن هذا المركز الاستراتيجي الهام ، ان سهّل لهم امر الدفاع عـــن القدس وأمّن لهم مواصلاتهم الى تل ابيب .

واكثر من ذلك ، فقد اتخذ اليهود من قرية القسطل ، نقطة انطلاق الى القرى العربية المجاورة ، واستطاعوا ان يسددوا الى هذه القرى ضربات قاصمة القوا بها الرعب في قلوب اهليها ، الذين أخذوا يهجرونها الى القرى البعيدة والى الاردن ، مخلفين وراءهم كل ما يملكون .. لقد تركوا كل شيء في مكانه آملين في العودة بعد اسابيع ليجدوه في مكانه ! . . الم تكن « الجيوش العربية » على وشك اقتحام البلاد وتحقيق نصر عاجل على « شراذم » اليهود وتطهير الارض المقدسة من رجسهم ؟! . . . . فلماذا يحملون معهم حتى ما كان ممكنا ان يحملوه ؟! . . . .

وجاءت مأساة دير ياسين لتكون الذروة في استشراء امر اليهود في هجومهم على القرى العربيه ، وفي تطبيق عراقتهم في الولوغ في الدماء ، وفي الاعراض ايضا . . . ولعلهم تقصدوا الطريقة الشنيعة التي اتبعوها في هذه القرية ، والقتال ما يزال في ادواره الاولى ، ليضاف الى الذعر الذي دبّ في نفوس أهل القرى العربية من بربرية اليهود في دير ياسين ، نفور شامل وسريع من البقاء في قراهم . وهكذا كان ، وشهد الاردن اصحاب القرى المجاورة لليهود ، يفزعون اليه ، وقد اخذ الرعب منهم كل مأخذ وبلغ خوفهم على الاعراض اضعاف ما بلغ على الارواح والاملاك . ولعل للدعاية العربية المرتجلة الرعناء حول مأساة دير ياسين ، نصيبا في الامعان في الذعر والفرار ، اكثر من النصيب الذي اصابه اسلوب اليهود المتقصد في التقتيل والترويع . . . وكان الملك عبد الله في غمرة محنة دير ياسين هذه وفي اعقابها ، يحث الحكومة الاردنية على تخفيف ويلات البؤساء المشردين ، ويامرها بالعمل على الحد من الروح الانهزامية التي طغت في اثر تلك الموجة الاجرامية من اليهود . . . .

كانت وزارة السيد سمير الرفاعي منهمكة في المؤتمرات العربية للاتفاق على طريقة التدخل العسكري في فلسطين فور جلاء القوات البريطانية عنها . . . وكان رأي الاردن ان تقوم الدول العربية بتقديم المساعدة المالية له ، لمضاعفة جيشه وليتولى منفردا ذلك التدخل العسكري . . ذلك ان الاردن لم يكن عضوا في هيئة الامم المتحدة ، فلا يؤخذ عليه والحالة هذه انه خالف قرار هيئة دولية ينتسب اليها . كما لفت الاردن نظر الدول العربية كذلك، الى ضرورة مساعدته مالياً من اجل الانفاق على الجيش العربي الاردني في حالة ما اذا قطعت بريطانيا معونتها المالية عنه ، الامر الذي كان متوقعا فيما لو طبق التدخل العسكري على الصورة التي ارادها الاردن .

وقد انعقد اخر مؤتمر لهذا الغرض في عمان حضره المرحوم رياض الصلح على رأس وفد لبنـــان ، ويوسف ياسين عن السعوديـــة ، وصالح جبر عن العراق ، وكامـــل عبد الرحيم عـــن مصر ، ولطفي الحفـــار عن سوريا ، وعبد الرحمن عزام عن الجامعة . وخطب الملك عبد الله في المجتمعين ، مذكرا بخطورة الموقف ، منبها الى استعدادات العـــدو ، حاثا عـــلى ضرورة تسخير كـــل امكانيات الامة العربية للمعركة . واسفر المؤتمر عن شبه اتفاق مبدئي ، على ان يتولى الجيش الاردني التدخل بمفرده ، وعـــلى ان تقدم الدول العربية له من المعونة المالية ما يضمن مضاعفته وادامته ، وعلى ان تتولى هـــذه الدول مساندة الاردن في المجالات الدولية وفي هيئة الامم بوجه خاص ... ولقد اتيح لي ان احضر هـــذا المؤتمر وان اشهد جميع الاجتماعات ، ولا انكر انني خرجت منها اكثر تشاؤما من ذي قبل . فقد كان هناك فرق كبير بين ما يدور في اروقة المؤتمرات الرسمية هذه ، وبين ما يعلن ويذاع في الناس . . لم يكن هناك تجاوب ، لانه لم يكن هنـــاك اخلاص ! . .

وقد عقد اجتماع آخر بعد هذا في القاهرة ، لبحث تفاصيل قرار مؤتمر عمان ، حضره السيد سمير الرفاعي ، الذي ما ان عاد من القاهرة الى عمان حتى طلب اليه الملك عبد الله ان يعيد النظر في قوام وزارته ، نظرا لما اكتنف بعض الوزراء من لغط حول تصرفاتهم فيما يتعلق بالقمح وعلف المواشي ، اذ جاءت تلك السنة عجفاء ماحلة فاضطرت الحكومة الى استيراد كميات كبيره من الحبوب . وقد استجاب السيد الرفاعي للرغبة الملكية ، وعرض قائمة جديده باسماء وزرائه . وما زلت اجهل كيف استدعى الملك عبد الله السيد توفيق ابو الهدى وكلفه تأليف وزارة جديدة . . فالفها واشترك فيها المرحوم هاشم خير والسادة سعيد المفتي وفوزي الملقي وسليمان السكر وفلاح المدادحه . ولم يمض على تأليف هذه الوزارة بعض الوقت ، حتى سافر رئيسها ومعه السيد الملقي الى انكلترا لتعديل المعاهدة الاردنية ـ البريطانية على ضوء التطورات المرتقبة في قضية فلسطين .

ولم تدم مفاوضات التعديل طويلا ، فقد جاء ربيع ١٩٤٨ بتعديل للمعاهده لا يخلو من مصلحة لبريطانيا . ومع ان المعاهدة الجديدة كانت على اي حال احسن من سابقتها الا ان معارضة جدية بين الاردنيين برزت ضدها ، ووردت على القصر برقيات احتجاجية عليها . وبالطبع فان هذه المعاهدة لم تعرض على مجلس الامة ، لان الدستور الاردني اذ ذاك كان قصر انشاء المعاهدات وابرامها على الملك والحكومة فقط . وقد برزت معارضة قوية ضد توقيع ابو الهدى لهذه المعاهده وظهرت عدة مقالات في الصحف اتهم فيها السيد توفيق ابو الهدى بانه تبادل مع الانكليز كتبا سرية فيها الكثير من القيود والتحفظات التي تحد من استقلال الاردن ومن سلطته على الجيش . وقد ادت تلك المقالات الى اعتقال عدد من المعارضين . . . وتمر الايام وتنكشف الحقيقة القاسية عن ان توفيق ابو الهدى كان اطلع المستر بيفن على قرار للاردن بالتدخل في فلسطين ، ولكنه وعد نيابة عن الاردن بانه لن يسمح للجيش الاردني بتخطي الحدود التي رسمتها هيئة الامم المتحدة في قرار التقسيم . . . ولاكتشاف هذه الحقيقة قصة طريفة ومحزنة سنأتي على ذكرها .

ونعود الى تطورات الحال بصدد فلسطين ، لنرى اجتماعات اخرى تعقدها الجامعة العربية . ويحضرها عن الاردن السيد توفيق ابو الهدى حينا والسيد فوزي الملقي حينا اخر ، ولنرى ان الكلمة قد اتفقت بعد لأي على ضرورة تدخل الدول العربية عسكريا في فلسطين . وقد دار جدل حول تنصيب قائد عام للجيوش العربية ، فكان من رأي الملك عبد الله اسناد هذا المنصب الى مصر باعتبارها دولة كبيرة وجيشها كبير وباعتبار ان جعل القيادة لها يدفعها على مضاعفة مجهودها الحربي . غير ان مصر اعتذرت ، واستقر الرأي على اسناد منصب القيادة العامة الى الملك عبد الله نفسه ، على ان يكون نائب القائد العام عراقيا . . وقد عيّن نور الدين محمود لذلك ، يساعده عدد من المعاونين العسكريين من مختلف الجيوش العربيه .

واتخذت القيادة العامة مدينة الزرقاء مقراً لها . ووصلت بعض القطعات العسكرية العراقية وعسكرت قرب المفرق . وكنت في معية الملك القائد العام ، عندما زار هذه القطعات وكان الزبيدي قائداً عليها ، فلمسنا من الروح العالية في افراد وضباط هذه القطعات ما يبعث على الامل القوي .

وبحكم صلتي بالملك عبد الله ، فقد اخذت اقوم لديه بأمانة السر للقيادة العامة ، وكنت همزة الوصل فيما بينه وبين مختلف فروع القيادة . وقد حاولنا القيام بزيارة يتفقد فيها القائد العام مختلف الجيوش العربية المعدة للقتال تحت امرته في فلسطين ، فاعتذرت مصر بحجة ان الزيارة قد تكشف الستار عن السرية التامة المضروبة حول جيشها ! واعتذرت سوريا كذلك ! . . اما لبنان ، فقد كان المرحوم رياض الصلح صريحا عندما قال : يكفي ان يكون شعورنا

معكم في هذه القضية .. ومع ذلك فقد ساهم جيشه بقدر امكانياته في المعركة فيما بعد . . ويستطيع القارىء ان يحكم سلفا على النتائج ، عندما يتصور الحال التي كنا عليها ، حين يحال بين القائد العام وبين زيارته القطعات العاملة تحت امرته وحين يكتم عنه مقدار وفعالية هذه القطعات ! . . .

وكنا كلما اقتربنا من ١٥ ايار ١٩٤٨ كلما ازدادت الحال سوءاً في فلسطين ، وازدادت الهجرة منها الى البلدان العربية المجاورة . لقــد سقطت يافا عروس فلسطين . . واستشهدت سلمة الباسلة ، وتساقط ما حــولها من قرى الواحدة تلو الاخرى .. وسقطت حيفا . . وكادت القدس تسقط بكاملها لولا ما بذل من جهد شاق في سبيل انقاذ ما يمكن انقاذه منها . .

- ١٤ -

وجاء يوم ١٤ ايار . . . واخذت جحافــل الجيوش العربية تزحف نحو فلسطين . وكنا في عمان وكان عزام باشا معنا ، عندما اخذ الجيش الاردني يمر في شوارع عمــان في طريقه الى المعركة ، وسط مظاهر الفرح والابتهاج وزغاريد النساء وبكائهن تأثراً بالموقف . واذكر انــه راودني بعض الامل في النصر ، لو لم يقطع عزام باشا علي حتى ذلك البصيص من الامل ، حين اكد لي مخاوفه الزائدة من قدرة العــدو واستعداده ومساندة هيئة الامم المتحدة والدول الغربية والشرقية له .

وفي المساء كنا مع الملك عبد الله في وداع القطعات الاردنية عند جسر اللنبي — جسر الملك حسين اليوم — وفي منتصف الليل جاءتنا الاخبار بان طلائع قواتنا عبرت النهر في طريقها الى مراكزها المقررة لها في فلسطين ، وان الجيش العراقي قد تحرك بطريق جسر المجامع الذي نسفه اليهود قبل ذلك بقليل ، وان الجيش السوري والجيش اللبناني قد تحركا كذلك.. وفي الصباح طالعتنا الانباء والبلاغات العسكرية الصادرة عن القاهره ، بالتقدم السريع الذي اخذ يحرزه الجيش المصري في طريقه الى غزة والمجدل وبئر السبع . . . .

وكنا نغفو ونصحو على الامل بتحقيق النصر السريع . وكانت تشتد هجمات اليهود على قواتنا في باب الـــواد في محاولة منهم صادقة لفتح الطريق لهم الى القدس ، ولكنها كانت تبوء بفشل ذريـــع . وكنت اتردد على باب الواد في مهمات رسمية ، وكان قائد الكتيبة السيد حابس المجالي رئيس الاركان الان . كما كنت اتردد على القدس فالتقي فيها باحمد حلمي باشا ، واشهد اني مازلت معجبا بمتانة اعصاب هذا الرجل وقوة ارادته .

وفي ١٨ ايار اتصل بي احمد حلمي باشا وقال لي « ان لم تنجدونا سريعا سقطت القـــدس نهائيا في ايدي اليهود » ! . . وقـــد اطلعت الملك على الامر فتأثر لذلك كثيرا . وفي الساعة الثالثـــة من بعـــد منتصف الليلة ذاتها ، عاد واتصل بي قائلا « اناشدكم الله ان تنجدونا وتنقذوا المدينة واهلها من سقوط مؤكد » ! . . . وقد صعدت في الحال الى القصر ، وكنت اعرف ان يقظة الملك للصلاة قد حانت ، ودخلت عليه فوجدته قـــد تهيأ للصلاة ، فاطلعتـــه على مكالمة احمد حلمي باشا ، وللفور اتصل به هاتفيا مستفسرا عن الحالة في المدينة . وفي الساعة الرابعة والنصف صباحا اصطحبني معه في السيارة ، وذهبنا الى بيت توفيق ابو الهدى رئيس الوزراء ، وطرق المرافق الباب واخبره ان الملك قادم لزيارته فهب ملهوفا ، اذ لم يعتد مثل هذه الزيارة في مثل هذا الوقت المبكر ، وخرج علينا بثياب النوم .

وما ان دخلنا حتى فاتحه الملك بشأن الحال التي ستحل بالقدس اذا لم ينجدها الجيش العربي ، فكان جواب ابو الهدى انه يقدر خطورة الموقف واهتمام الملك، ولكنه يرى ان اي تدخل عسكري في مدينة القدس يعتبر مخالفا لاتفاقه مع المستر بيفن وبالتالي يجر الى مضاعفات دوليـــة بالنظر الى قرار هيئة الامم المتحدة باعتبار هذه المدينة دولية . غير ان الملك اصر على وجوب انقاذ القدس مهما كلف الامر ، وطلب الى رئيس الوزراء ان يجمع مجلس الوزراء في الحال لاقامة مجلس وصاية على العرش لانه سيتولى بنفسه قيادة القوات العاملة في القدس ولتكن النتائج ما تكون . . .

وازاء ذلك ، جرى اتصال بين رئيس الوزراء ورئيس الاركان واتفق الاثنان على جلسة يرأسها الملك في البلاط . وتمّ انعقاد مجلس الوزراء ، برئاسة الملك ، وبحضور رئيس الاركان ومساعده السيد عبد القادر الجندي . وتقرر في تلك الجلسة مبدأ تدخل الجيش العربي في القدس ، وترك لرئاسة الاركان تنفيذ هذا القرار في الحال .

وللفور اتصلت باحمد حلمي باشا ورجوته ان يحث رجاله على المقاومة حتى المساء ، لان اخبارا سارة ستصله في ذلك الوقت . وقد فهم ما قصدت . وفي المساء بدأت القوات الاردنية تدخل مدينة القدس القديمة وتأخـــذ مواقعها المقرره . وقد اتصل بي احمد حلمي باشا وقال« الان استطيع ان انعم بقليل من النوم ، فقد مرّ عليّ ايام لم انم في خلالها ساعة واحدة » ! . . . .

وبعد ايام قامت قطعاتنا من رام الله بهجوم مركز على القدس الجديدة ، استعادت فيه حي الشيخ جراح ،واستمرت في تقدمها حتى وصلت الى موشيرم والنوتردام ، غير انها لضرورات عسكرية عادت وتمركزت في الشيخ جراح . وكانت الانباء تردنا من مختلف الجبهات مقتضبة ومطمئنة ، ولكنها لم تكن تتضمن اية اشارة الى وقوع معارك جديه . . .

امـــا الجيش المصري فأخـــذ يتقدم على طـــول الساحل حتى وصلت طلائعه اسدود والمجدل وبئر السبع والخليل وبيت لحم، تاركة وراءها المستعمرات اليهودية المزروعة في النقب. وكانت خطة المصريين عزل هذه المستعمرات عزلا تاما وقطع الامدادات عنها لتسقط وتستسلم دون ما قتال. وكان يكون في هذه الخطة كثير من الصواب، لو لم تكن المستعمرات محصنة ومعدة لحصار يطول او يقصر، ولو لم يكن هنالك جوانب سياسية لها تأثيرها في الوضع الحربي، كوقوف هيئة الامم المتحدة والدول الكبرى الى جانب قرارها، واصرارها على وضع حد للحرب بيننا وبين اليهود. وهكذا، وبدلا من ان نصفي حسابنا مع هذه المستعمرات في غمرة الاحداث الاولى، فقد تركت ليساعد بقاؤها على ضرب الجيش المصري فـــيما بعد، وعلى إكراهه على التراجع ! . . . .

واما الجيش السوري فقد احتل سمخ وشرع في قصف المستعمرات اليهودية القريبة منها، كما اخذ الجيش اللبناني يقصف المستعمرات القريبة من حدود لبنان.

واما الجيش العراقي فقد تأخر زحفه قرابة اسبوعين عند جسر المجامع وعلى ابواب مستعمرة (جيشر)، بسبب كثافة المستعمرات وقوة تحصينها، مما جعله يغيّر خطته ويدخل فلسطين عن طريق اخرى. وقد تقدم نحو لواء السامره وما كادت طلائعه تصل جنين حتى اشتبك في معركة حامية الوطيس مع الحملة اليهودية التي ارسلت لاحتلال هذه المدينه. وقد ابدت القطعات العراقية شجاعة نادرة استطاعت معها ان تدحر العدو بعد ان انزلت بحملته تلك خسائر فادحه. ثم تقدمت قطعات اخرى من الجيش العراقي الى ما وراء طولكرم وقلقيلية حتى رأس العين، ولم يكن ليفصلها عن البحر الا مسافة عشرة كيلومترات.

وفي ٢٩ ايار أقر مجلس الامن مشروعا يدعو جميع الفرقاء الى قبول هدنة لمدة اربعة اسابيع. وجاء الـــكونت برنادوت لبحث خطوات تنفيذ هـــذا القرار، واخذ يقوم بزيارات سريعة للعواصم العربية من اجل ذلك.

وقد جاء برنادوت الى عمان ، وقابل الملك عبدالله ، وتحدث معه حول ضرورة تنفيذ قرار مجلس الامن وبعض الشروط المتعلقة بوقف اطلاق النار ، وتزويد القدس اليهودية بالماء والغذاء في اثناء الهدنة ،واتخاذ التدابير الضرورية لعدم تمكين اي من الفرقاء الاستفادة من هذه الهدنة لتقوية مركزه او الحصول على اية امتيازات جديده . . وبعد مشاورات بين الدول العربية ، اتفق ان يكون يوم ١١ حزيران الساعة الثامنة صباحا ، موعداً لابتداء هدنة الاسابيع الاربعة ! . .

- ١٥ -

وفي ٣ حزيران ، وفيما العرب واليهود يسعى كل من جهته لتحقيق انتصارات جديدة ، ولتوسيع الرقعة التي في يده ليكتسب له حق السيطرة عليها قبل ابتداء الهدنة ، هاتفنا قائد منطقة الكرك ينبئنا ان اليهود شنوا هجوما واسعا على غور الصافيه مستخدمين فيه السيارات المصفحة الخفيفة ، وانهم اخذوا يشددون الحصار على المخفر ، وانه اذا لم تنجد الحامية الصغيرة الموجودة في المخفر فسيتم للقوات اليهودية المهاجمة احتلال جميع الاغوار وهي منطقة اردنية صرفة ، كما سيسهل عليها احتلال الكرك نفسها ان هي صممت على ذلك .

وكان الموقف حرجا ... ذلك ان قوى الجيش كلها كانت في فلسطين ، وكان جميع القادرين على حمل السلاح في الكرك قد تطوعوا للقتال في فلسطين ، حتى ان قوات الامن في منطقة الكرك كان قد سحب قسم منها ليساعد الجيش في حفظ الامن في المناطق التي كان يسيطر عليها في فلسطين ! . . .

فامرني الملك عبد الله ان آخذ معي مائة بندقية انكليزية وعتادا كافيا ، وان اذهب واعمل كل ما في استطاعتي لنجدة حامية مخفر غور الصافيه .

وللحال هاتفت متصرف الكرك وقـائد منطقتها ، طالبا اليهما الاتصال ببعض العشائر ليكونوا على استعداد للذهاب معي لنجدة المخفر ، وافهمتهما ان لدي مائة بندقية لتسليمها لمـن ليس لديه سلاح ممن سيهب للنجده . وهاتفت كذلك متصرف معان وقائممقام الطفيله ، طالبا اليهما حث الاهلين عـلى نجدتنا في غور الصافيه ... وتحركت الى الكرك فوصلتها ليلا ، ووجدت في انتظاري عددا غير قليل من اقاربي ومن رجال العشائر الاخرى – ومعظمهم يحملون اسلحتهم الخاصة – كما وجدت عددا من المتطوعين ولا سلاح معهم ، فتم توزيع البنادق على العزل من هذا الجمع .

وتحركنا للتو ، قرابـة مائة وخمسين شخصا ، متجهين الى غـور الصافيـة . وفي غور عسال توقفنا طويلا ، عند مـا تبين لنا ان اليهود زرعوا الغاما من صنعهم في طريقنا ، وليس فينا جميعا من يعرف شيئا عن الالغام ، فقد انفجر لغم تحت السيارة الاولى مـن سياراتنا وكانت تحمل لنـا مواد غذائية فنسفت ونجا سائقها باعجوبة . وخيل الينا بعد ذلك الانفجار ان كل ما حولنا الغام لا نستطيع معها ان نخطو خطوة واحده ، وتسمرت سياراتنا حيث كانت عند حدوث الانفجار ، وظللنا قابعين فيها ، فـلم يستطع احدنا مجرد النزول منها الى الارض ! . . .

مساكين هؤلاء المتطوعون . . . انهم شجعان ويجيدون الرماية بالبندقية ، ولكنهم لم يسبق لهم ان واجهوا الالغام والمتفجرات ، ولم يسبق لهم خبرة بالتقاط الالغام وتعطيل مفعولها ! . . . وتأملت قليلا فتذكرت ارمنياً بالكرك له خبرة بالمتفجرات ، واتفق ان يكون هـذا الارمني المسعاف في مزرعة له على مسافة قريبة منا ، فارسلت له من استطاع ان يجيء بـه الينا في سيارة ، فحصر جميع الالغام المزروعة وفجرها . واستطعنا بعد ذلك ان نجتاز المنطقة بسلام .

ولعل حال المهاجمين من اليهود لم تكن باحسن من حالنا ، ويبدو انهم جميعا كانوا من عمال شركة البوتاس في البحر الميت ومن الذين لم يسبق لهم ان اشتركوا في معركة او قتال . . اذ ما ان رأوا سياراتنا تنحدر من اعلى الجبل حتى ولوا مدبرين لا يلوون على شيء تاركين وراءهم بعض البنادق والذخيره .

ولا بد لي هنا من ان اذكر باعتزاز ، اولئك الجنود الفرسان السبعة وعلى رأسهم قائدهم الضابط ابو شلاش ،الذين استطاعوا ان يصمدوا في مخفرهم امام هجوم شنه عليهم خمسمائة يهودي او يزيد ، وفي حصار دام اكثر من عشرين ساعة ، وان اترحم على قـائد المخفر ومن استشهد معـه من الاهلين .

وحطت الحملة « المظفرة » في الصافيه ... وكان علي ان اتدبر امـور تموينها وتنظيمها . ولقد تغلبت على مشكلة المأكل ، ولكني وقفت حائراً امام مشكلة البعوض فقد كان القيظ في عنفوانه ، ودرجة الحرارة في الظل لا تقل عن الخمسين ، وثائرة البعوض وكثافته مما لم أر له مثيلا في حياتي .

ومشكلة اخرى لم تكن في الحسبان : لقد اخـذ المتطوعون يعتدون على اهالي غور الصافي التعساء ، كأن الذي لاقوه على ايدي الاعداء لم يكفهم ، فجاء الاصدقاء المواطنون لتكون على ايديهم الكفاية ! ... غير اني تمكنت من فرض بعض الاحكام الصارمة ، وأبعدت كثيرين من غـلاظ الرقاب وجنبت الحملة زعازع جهالتهم .

وكان لحق بي في هذه الاثناء ، الشريف حسين بن علي ، مرسلا من قبل الملك عبدالله ليشترك معنا في الجهاد ، واني ما زلت اذكر كيف انه كاد يقضي غرقا في بركة الماء الكبيرة هناك لأنه لا يعرف السباحة ، وكيف انه استنجدني لانقاذه فـلم استطع لاني لا اعرفها كذلك . . . ولو لم تقيض العنايـة الشيخ محمد ابو تايه ، الذي ما ان وقعت عيناه على المشهد حتى القى بنفسه في الماء ، وانتشل الشريف ، لكان غرق الشريف ! . . .

وفي ٨ حزيران اخذت الحظ قوارب تتجمع على الشاطيء المقــابل من البحر الميت ، وخشيت أن يقوم علينــا اليهود بهجوم لاينفعنا معه ارتجــال ، فاتصلت هاتفيا بالملك عبدالله ، وتمنيت عليه لو تقوم بعض الطائرات العراقية او المصرية بقصف هذه القوارب . ولم يكذب املي ، ففي عصارى ذلك اليوم جاءت طائرتان ،واعتقد انهما عراقيتان ، غير انهما بدلا من ان تغيرا على مواقع العدو ، اخذتا في ضربنا بنار رشاشاتهــا .. ولا تسل يا قارئي عن حالنا اذ ذاك وكيف اننا اختلط الحابل منا بالنابل وتوارينا في الخنادق والكهوف وحمدنا الله في نهاية غارتهما انه لم تقع بيننا اصابات كنا استمطرناها على انفسنا بانفسنا !.. وبعد قليل جاءت طائرتان ، ولعلهما مصريتان لا نهما قدمتا من الجهة الجنوبية ، فقصفتا مواقع العدو قصفا مركزاً واغرقتا الكثير من القوارب المتجمعة المحتشدة للانقضاض علينا .. وكان من شان هذه العملية من الجو ان هدأت من روعنا على الأرض !... وانني لأذكر كيف اغرب الملك عبدالله في الضحك عندما سألني عن مدى نجدة الطائرات لنا ، واجبته بان تجربتها الاولى كانت فينا !...

ولقد ضقت ذرعا بطلبات افراد الحملة ، ولا سيما ما كان منهــا متعلقا بالعتاد ، مع العلم اننا لم نلتق بالعدو او نطلق عليه رصاصة واحدة . وفي يــوم ٩ حزيران وصلنا مدفعان من عيار ٢٥ رطلا ، مع مفرزة من الجند تولت بهما قصف المستعمرات اليهودية المقابلة لنا ، قصفا سبب فيهــا حرائق وتهديمات . وعلى أثر هذا القصف المركز ،استطعنا ان نوجه حملة مؤلفة من ثلاثين رجلا ، لاحتلال اقرب المستعمرات الينا ، ولقد وفقت الحملة في بلوغ هدفها ،ولكنها انسحبت في الصباح .

وفي اليوم التالي اعلنت الهدنة وطلب الينا ان نتوقف عن اطلاق النار ... فسلمت كــل ما كان معي الى قيادة الدرك هناك ، وعدت الى عمان بعــد ان اديت واجبي المحدود .

ولم البث اياما في عمان ، حتى ذهبت في معية الملك عبدالله الى القاهره ، فقد لبى دعوة الملك فاروق . . وكان في معيته ايضا السيد فوزي الملـقي وزير الخارجية والفريق عبد القادر الجندي مساعد رئيس الاركان .

وقد كان استقبالنا في مصر رسمياً وشعبياً حافلا . فالدعاية الحسنة والسمعة الطيبة التي اضفاها على الملك عبد الله جيشه الباسل ، بانقاذه ما امكن انقاذه من مدينة القدس ، صعدت هتافات المصريين – وخاصة منهم الاخوان المسلمين – الى عنان السماء ، وكانت التحيات الصارخة المنبعثة من هنـا وهناك في خضم الاستقبال تهز اعطافنا وتحرك قلوبنا جذلا واعتزازاً ...

ونزلنا في قصر الزعفران ، وجرت محادثات في الحال بين الملكين ، اشترك فيها النقراشي باشا حول الاوضاع في المنطقة وما ينبغي اتخاذه من خطوات عنـدانتهاء الهدنه . . .

وفي المساء ذهبنا الى جامع محمد علي ، حيث حضرنا المراسم التي تقـام عادة بمناسبة ١٥ شعبان . وقد انتهز الاخوان المسلمون الفرصة فاخذوا يهتفون للملك عبد الله بطريقة تتضمن غمزاً للملك فاروق . . فتركنا الجامع وعدنا الى قصر الزعفران حيث كانت اعدت لنا المفاجأة التي ذكرها الملك فاروق للملك عبد الله ونحن نغادر المسجد عندما قال « حتة مفاجأة يا افندم » ! ...

وكانت المفاجأة حشداً كبيراً من المغنين والمغنيات والفنانين والفنانات ، عـلى مسرح اعد خصيصاً في باحة القصر ، وكـان بينهم نجيب الريحاني وام كلثوم وسامية جمال . . وقد جامل الملك عبد الله فاروقاً بمشاهدة الوان من الرقص ومشاهد تمثيلية وسماع انواع من الاغاني والمونولوجات امتدت حتى الساعة الثانية والنصف صباحاً ، استأذن بعدها وصعد الى غرفته . وعندما لحقنا

به استوقفنا النجومي باشا كبير مرافقي الملك فاروق ، وقال « ما يصحش تروحوا بدري ، افندينا يأمر بمتابعة السهر في مكان آخر » . وذهبت مع من ذهب نزولا على امر « افندينا » ... واذ كنت عائداً مع الفجر في طريقي الى غرفتي في قصر الزعفران ، شاهدت الملك عبد الله يصلي صلاة الصبح ، فخشيت ان يفتضح امري ، وبحركة عفوية وجدت نفسي اصلي وراءه ، وما ان سلّم حتى نهضت ودخلت غرفتي ...

ولدى الفطور اجلسني الى يمينه واخذ يخاطبنا جميعا : « انتم رفقاء سوء ، ما عدا ولدنا — واشار الي — تتركونني أصلي وحدي وليس فيكم من يكلف نفسه الوقوف معي سوى هزاع . . . ماذا سيقول المصريون عنكم؟ . . . الا يقولون ان حاشية الملك على نهج غير نهج الملك ، فهو يصلي وهم لا يصلون » ؟! . . . وبلع الجميع المقلب ، وهم يعلمون اين كنت واين سهرت حتى مطلع الفجر... وغاظهم ان الملك عندما وزع علينا اعطيات لشراء ما يلزمنا من القاهرة ، ضاعف لي العطاء بحضورهم ، مكافأة لي على تلك الصلاة! ... رحم الله الملك عبدالله وغفر لي تلك الزلة ! . . .

وفي اليوم التالي استؤنفت المحادثات في قصر عابدين ، بين النقراشي والملقي ، وكانت تدور حول امكانية تمديد الهدنة وعدم استئناف القتال ، لانه اصبح واضحاً لدى الجميع ان الامور كانت تسير لصالح اليهود ، وان ليس هناك من الممكنات ما يجعلها تسير لصالح العرب !...

وعدنا الى عمان ، لنسافر بعد ايام الى الرياض لزيارة الملك عبد العزيز بدعوة منه . وهبطت بنا الطائرة في الظهران ، وكان في استقبالنا فيها نجله الاكبر الملك الحالي . وكانت حاشية الملك عبد الله كبيرة ، واذكر انه كان في عدادها مثقال الفايز وفلاح المداحه ونور الدين محمود ....

وفي صباح اليوم التالي غادرنا الظهران الى الرياض حيث التقى الملكان في عناق طويل ، ولم يسبق لهما ان التقيا بعد حديث التاريخ في عداوتهما التقليديه . ونزلنا جميعاً في قصر الضيافة في الرياض .

كان الملك عبد العزيز نافذ الشخصية ، وكان مجرد مرآه والاستماع اليه يدل على عبقريته الفطرية وتأثيره السحري وسلطانه القوي . كان يتكلم بلهجة بدوية واضحة وعلى طريقته الخاصة ، وكان يخاطب الملك عبدالله كما يخاطب اهل نجد ملوكهم فينعته بلقب « الشيخ » . . ولقد سمعته يقول للملك عبدالله : « يا الشيخ .. اذا قال لك العرب نعمل كذا وكذا ، جارهم في اقوالهم واعمل ما بدا لك .. انهم يعرفون انهم يخدعون الناس بأقوالهم ويعرفون انهم لا يستطيعون تنفيذ وعودهم ، ولكنهم يقصدون ان تمدحهم الجرائد ويصفق لهم الناس ! »

ولم يكن لهذه الزيارة من هدف ، سوى ازالة سوء التفاهم بين الملكين والبيتين . وقد اكرم الملك عبدالعزيز وفادتنا ، وقدم لنا هدايا تقليدية : عباءة وخنجراً وساعة لكل منا . وكانت تعليمات الملك عبدالله لنا واضحة ، بالاعتذار عن قبول اية اعطيات ماليه . .

وفي طريق عودتنا الى عمان ، عرجنا على بغداد ، ونقل الملك عبدالله الى ابن اخيه الامير عبدالاله – وكان وصياً على عرش العراق – انطباعاته عن السعودية ونتائج زيارته لعاهلها ، ورجا اليه ان يتخذ من هذه الزيارة ستاراً يسدل على الماضي . ولن انسى تلك الابتسامة الباهتة التي ارتسمت على وجه الأمير ابن علي بن الحسين ، فقد افصحت عن ان ما قاله له عمه لم ينل مرتبة الرضا لديه .

وقد زارنا في قصر الحارثية السيد مزاحم الباجه جي وكان رئيساً للوزراء ، وعلى اذنيه سماعة شدت الى رأسه برباط يشبه ما يستعمله الطيارون اثناء طيرانهم .

ودارت بينه وبين الملك عبدالله احاديث حول الموقف في فلسطين .. وكانا متفقين في البداية ، وكان الملك معجباً به وبآرائه . وعلى العشاء تغيرت طريقة مزاحم في الحديث ، ووجه الى الملك كلمة قارصه لعله لم يقصدها ، فصاح به الملك قائلا « ان شر الدواب عندالله الصم والبكم – صدق الله العظيم » .. ونهض قائماً لتوّه وانتهى العشاء ! ..

– ١٧ –

وعدنا الى عمان ، وكانت جامعة الدول العربية على وشك الانعقاد ، للنظر في استئناف القتال في فلسطين او عدم استئنافه . وكان الاتفاق تاماً بين الاردن ومصر على تمديد الهدنة ، وكان رأيهما هذا هو رأي الدول العربية الاخرى . ذلك ان الموقف الحربي قد تبدل كلياً لصالح اليهود نتيجة للهدنة ، اذ وصلتهم صفقات كبيرة من السلاح من دول الستار الحديدي ، كما وصلهم عدد من الطائرات واعداد من المحاربين ، بينما لم تستطع الدول العربية ان تزيد شيئاً عما كان لديها ، او تتدارك النقص الذي نشأ عن قتال دام ثلاثة اسابيع .

وذهب ابو الهدى والملقي لحضور اجتماعات الجامعة ، ورافقهما الفريق عبد القادر الجندي مساعد رئيس الاركان .. وكان رؤساء اركان حرب الجيوش العربية مجمعين على ضرورة تمديد الهدنة بالنظر لما تقدم من سبب . وعلى الرغم من ذلك ، فقد قررت الجامعة استئناف القتال !.. وبلغنا الخبر في عمان وجاء كلوب باشا واطلع الملك على النقص في استعدادنا العسكري وفي الذخيرة ، ولم يخف رئيس الأركان مخاوفه على اللد والرملة بسبب قربهما من اليهود ولقلة

المدافعين عنهما ، اذ كانت الحاميـــة العسكرية هنـــاك لا تزيد عن سرية بقيادة اديب القاسم وعدد من المناضلين .. وتوسل كلوب ان تمدد الهدنة ولو الى حين .. فأملى الملك علي رسالة الى توفيق ابو الهدى ، ذكر فيها مطالعة كلوب وتخوفه واقتراحه ، وطلب اليه بصورة لطيفة ان يبذل جهده ويستعمل نفوذه من اجل تمديد الهدنة فترة يستطاع فيها تدبر الموقف .

وذهب المرافق محمد الحسين يحمل الرسالة الى القاهرة في طائرة ذات محرك واحد . وفي المساء عاد المرافق ومعه الجواب : الاستقالة .. فقد كتب ابو الهدى يرجو تكليف حكومة جديدة ليتسنى لها اعادة النظر في سياسة استئناف القتال التي ارتبط بها باسم حكومته . وللحال ابرقنا الى توفيق ابو الهـــدى برقية باسم الملك ، تضمنت اطيب تمنيات جلالته وانه لم يقصد احراج الرئيس وان الخيرة فيما اختاره الله ! ..

وفي اليوم التالي عاد ابو الهدى وصحبه ، ولدى وصولهم قـــابلوا الملك بحضوري ، وكان عتـــاب طويل ، وكان غريبـــاً حقاً ان يكـــون جواب الرئيس المستقيل منطوياً على حقيقة مره .. ذلك ان القرار الذي اتخذ على الرغم من قرار رؤساء اركان الجيوش العربية ونصائحهم الملحة بضرورة تمديد الهدنة ، انما اتخذ بسبب تعرض كبار الساسة في البلاد العربية للنقد اللاذع ، ولانهم ازاء هذا التجريح لمكانتهم يرغبون في اكتساب ود شعوبهم واسترداد شعبيتهم .. كما اعلمنا السيد توفيق ابو الهدى انه قد تم الاتفاق فى اجتماع الجامعة ذاك ، على ان تقف الجيوش العربية موقف الدفاع ، وان لا تحاول الهجوم البتـــة ، للنقص العسكري الذي حدا برؤساء الأركان لأن يقرروا قرارهم بضرورة التمـــديد كما ذكر .

وهكذا فلتذهب فلسطين ، وليذهب اهل فلسطين ، وليقتل من يقتل في سبيل ان يحافظ هؤلاء الساسة على مكانتهم وليفوزوا لاشخـــاصهم بالشعبية في نظر شعوبهم ! ... وأيـــة شعبية تلك التي تودى بمصـــير شعب الى العيش في المغاور والخيام ، بعيداً عن ارضه التي سلبها العدو سلبا هينا بفعل هذا الطراز من الساسة ؟!... اللهم رحمتك وحنانك ... اللهم لطفك باللاجئين الفلسطينيين المشردين اليوم تحت كل نجم ، نتيجة للسياسة الرعناء سياسة المداهنة واسترضاء الدهماء والغوغاء ! ...

واستؤنف القتال في ٩ تمـــوز ... وتبين منذ ساعاته الاولى التفوق الحربي الذي احرزه اليهود نتيجة للهدنة ، وانقلب موقفهم فاصبحوا مهاجمين بعد ان كانوا مدافعين ، وقد ساعدهم القرار العربي في الجـــامعة على ذلك ... وسقطت اللد والرملة ضحية بريئة وخاتمة محتومة لرغبة الساسة في اكتســـاب « الشعبية العربية » ، وتشرد اهلها كل مشرد ، وكانت اللعنات تنصب مـــن افواههم كالحمم ، على جميع الساسة العرب وعـــلى الجيوش العربية دون استثنـــاء .

وقد كنت أفهم ان يشتم الساسة ، وان يشتم حتى الملك عبـــد الله الذى سفه سياستهم ولم يكن راضياً عنها البته . . اما ان يشتم الجندي الاردني ، فقد كان ذلك كثيراً وكثيراً جداً ، لان الجنود الاردنيين برهنوا عـــن بسالة صادقة فائقة ، وكان حبهم للموت في سبيل فلسطين يفوق كـــل حب ، ولم يكن الذنب ذنبهم ، وانما كان ذنب القادة والساسة العرب ، وكفى ! . .

ولكن اهل اللد والرملة كانوا مع ذلك عـــلى حق . فلقد هـــاموا على وجوههم ، وترك بعض نسائهم وأطفالهم نهبا لقسوة الموقف المريع ، ومات منهم من مات وفقد من فقد .. وعلى الرغم من المساعدات التي بذلهـــا الجيش العربي والهيئات الانسانية واخوانهم من اهل القرى المجـــاورة ، فان نكبتنا في اللد والرمله كانت افدح من اية نكبة اخرى في فلسطين .

وفي ايام ثمانية ، هي كل فترة القتال الثانية ، غنم اليهود اللد والرملة ، وكثيراً من المواقع في جهات متعددة من فلسطين . واضطر الجيش العراقي لان يقصر خطوطه على اثر سقوط اللد والرملة ، وان يتراجع نحو قلقيلية وطولكرم . وكانت الهدنة الثانية والاخيرة في ١٨ تموز ١٩٤٨ .

وعاد الكونت برنادوت للاشراف على ترتيبات الهدنة الثانية ، ولمحاولة التوصل الى مقترحات يقبل بها الطرفان . وقد توصل الى مقترحـــه الاخير ، الذي حث به هيئة الامم المتحدة على القيام بعمل حاسم ، وذلك بتعديل التقسيم بحيث تعاد اللد والرملة والنقب الى العرب ، وتوضع القدس تحت اشراف الامم المتحده . وقد قضى المسكين على يد السفاحين اليهود في القدس ، يوم ١٧ ايلول ١٩٤٨ ، وكان الاستئساد فيهم بلغ حدا لا يرون معه مجالا لتساهل ينـــادي به برنادوت وسيط السلام ! ...

- ١٨ -

وفي اواخر عام ١٩٤٨ شغرت رئاسة بلدية عمان ، فعرضت على الملك عبد الله رغبتي في الانتقال اليها . وفاتح الملك رئيس الوزراء توفيق ابو الهـــدى مبديا رغبته في ذلك ، وكادت تقع ازمة وزارية بسببها . فقد اعتـــذر رئيس الوزراء عن تلبية الرغبة الملكية بداعي انني مـــا زلت صغير السن وان درجتي في الوظيفة لا تسمح بترقيتي الى هذا المنصب ، وانني اذا رقيت اليه فان ذلك يعتبر اخلالا بنظام الموظفين . ولكنه عاد وعدل عن رأيه ، وعينت رئيساً لبلدية العاصمة .

غير ان رئاسة البادية ومهامها الجسيمة واعمالها الكثيرة لم تصرفني عـن ترددي على القصر . فقد كانت الرغبة الملكية ان اواظب على حضور مجالس الملك في كل مساء، كما كنت ارافقه في اكثر زياراته داخل المملكة. وكان علي اذا انتقل الملك الى مشتاه في الشونه ان اقضي في الشونة ليلتين من الاسبوع هناك .

وهنا تقتضيني امانة المذكرات ، ان لا اقتصر على ذكر الجانب الرسمي من جوانب الملك عبد الله ، فقد كانت علاقتي الوطيدة به مما جعلني اقف على حياته الشخصية ، وهي ذات افق فسيح وسماء امد من جو التشريفات والرسميات..

لقد كان الملك عبـد الله اولا وقبل كل شيء انساناً بكل مـا في كلمة الانسان والانسانية من معنى. كان رقيق الحاشية ، عالي الجناب ، كبير القلب، كريماً الى حد لم يكن يفرق معه بين الدينار والخمسة أو العشرة من اوراق النقد .

وكان متقد الذكاء ، حلو الحديث ، حاضر البديهة حليماً فيلسوفاً اديباً كاتباً شاعراً . وكانت مجالسه غاية في الظرف والانس . كـان يشعر انه أب للجميع اكثر منه ملكا على الجميع ، ويعتبر الاردنيين والاردنيات ابناءه وبناته. وقد ساعد بابه المفتوح يومياً لسائر الناس وزياراته المستمرة لانحاء المملكة كافة ، ومجالسه الجامعة الشاملة التي لا تنقطع ، على معرفته باكثرية الناس معرفة تامة ، ولا سيما وان سكان الاردن لم يكونوا اصلا يتجاوزون نصف المليون عددا .

كان من عادة الملك عبد الله ان يجلس في كل امسية من اماسي الصيف ، في الحرش الواقع في منطقة القصور . وكنت ترى في مجلسه السياسي والاديب والصحفي ورجل الدين وشيخ العشيره . وكان الحديث في مجلسه يتنـاول كل شأن ويأخذ بكل طرف . . . مـن سياسة الى ادب ، ومن شؤون عسكرية الى اجتماعية ، ومن مساجلة في الشعر الى حديث عن الخيل والابل والزرع والضرع . وكان كل يدلي بدلوه والملك ينصت للحديث ثم يعلق عليه باسلوب حاو لبق . وكان يطرب للنكتة ، ويدرك مدى النفاق في الحديث من الصدق فيه ، ويظل المجلس حتى صلاة العشاء ، وبعدها ينتقل الملك ومن عنده الى مائدة العشاء ، ثم يودعونه فيذهب هو الى النوم تواً .

وكان يحافظ على اوقات طعامه ونومه محافظة دقيقة : يفيق قبل صلاة الفجر ، فيتوضأ ويقرأ القرآن ، ثم يصلي ويقرأ بعض السور القصيرة ويذهب قبل شروق الشمس الى الفطور . وبعدها يقوم بجولة على قدميه الى اصطبل الخيول ، يتفقد فيها جميع خيوله . ثم يذهب لزيارة العوائل في القصور ، زيارة لا تطول اكثر من ربع ساعه . ويعود يستقبل جميع الزائرين ، وغالبا ما يكونون مئات جماعات وافرادا ، فيستمع الى مطالب اولئك او شكوى هذا وظلامة ذاك ، ويأمر موظفيه بمتابعة ما يرى بشأنها .

وكانت له طريقة خاصة بالسلام يعرفها الاردنيون ، فكان المرء يحس بمدى الرضا الملكي عليه بهذه الطريقة الخاصه . كان من عادته ان يسمح بتقبيل يده ، فتارة كان يمدها مبسوطة علامة الرضا ، وتارة مقبوضة دلالة على عدم الرضا ، وأحياناً كان يضع يده على ذقن أحدهم مبالغة في الرضا عليه ، واحيانا يمد يده لتقبل باطنها وظاهرها ثم يسمح هو بتقبيل وجنته ، علامة على الرضا التام . . وكثيرا ما كانت هذه الطريقة على تنوع مظاهرها ، محورا للتعليقات واساسا للشائعات حول احتمال تعديل وزاري ، او تعيينات في مناصب عليا ومراكز كبرى . .

كان من عادة الملك عبد الله مع موظفيه المتصلين به ، ان يراهم معه في الصلاة وعلى المائدة في الفطور والغداء والعشاء ، وكان مفهوما ان ذلك جزء من واجباتهم الرسميه . ولقد كانت المشكلة الرئيسية عندي في هذا هي مسألة الفطور ولا سيما في الشتاء عند ما نكون في الشونه . اذ كنا في سبيل ذلك نتعرض لبرد قارس او لمطر في بعض الايام ، ناهيك عن ان الملك كان اذا لاحظ اننا جئنا قبل الموعد المعين للفطور ، فانه كان يتقصد قراءة القرآن ساعة او ساعتين ، ويتركنا في باحة القصر نعاني برد الغور في الصباح . واذا تأخرنا عن الموعد – وهذا ما كان يحدث احياناً – طلبنا على عجل ولفت نظرنا

الى هذا التأخر وهذا الاهمال في الواجب .. ومما كان يزيد في مشكلة الفطور ، انه بحد ذاته لم يكن ليستحق مثل هذا العناء والتدقيق . . شاي بكثرة ، وحبات قليلة من الزيتون ، وقطعة من الحلاوة الطحينية ، او الجبن احيانا . . انه فطور تستطيع ان تجد مثله او احسن منه عند الرجل العادي . ولكنـــه فطور الملك عبـــد الله الذي كان يعامله المسؤولون عن تقديم الطعـــام وفي وجبتي الغداء والعشاء معاملة غير كريمة .. فلم نكن نبش للطعام الا اذا جاءنا ضيوف وأوصى هو بنفسه على اكلات معينه . ولطالما شكا لنا من معاملة المسؤولين عن طعامه ، واذكر انه خاطبهم مرة في ذلك قائلا لهـــم : « اطعموني واكسوني وخـــذوا كل مخصصاتي » ! .

ولقد تمردت مرة – وكنا في الشونه – فاضربت عن حضور الفطور ، وقيل في تبرير هذا التأخر انني مريض . وفي اليـــوم الثاني لم احضر للفطور ، فادرك الملك انني تعمدت ذلك تعمداً ، واذا بي اسمع انـــه استدعى رئيس ديوانه – وكان الشريقي – واذا بكتاب رسمي لي من رئيس الديوان ، يلفت فيه نظري الى ضرورة المواظبة على حضور الفطور في معية جلالته وان ذلك جزء من واجباتي الرسميه . وقد اقسمت ان لا ارضخ لهذا الجزء من واجباتي... فغضب الملك لذلك ، وكثرت حكايات موظفي القصر عنى فنبشوا جميع مخالفاتي السابقة واختلقوا على لساني اشياء لم يكن لي بها علم ! . . . مسكين موظف القصر ان اخطأ وعـرّض نفسه لغضب الملك ! . . . غير ان حظا غريبا انقذني من المأزق ، اذ اتفق ان طلب الملك من الموظفين الموجودين في الشونه عملا ما ، فقاموا به على خلاف ما كـــان يرغب ، فثارت عليهم ثائرته وطردهم ، ثم استدعاني واسترضاني وأعفاني من حضور الفطور .

كان الملك عبدالله يملي رسائله وخطبه في الصباح ، وكان فياضاً يمليها بسرعة ولا يستعيدها ، وغالبا ما كانت آية في البلاغة وعذوبة الاسلوب وسداد الرأي . وكان يميل الى الكتابة في الصحف ، فيساهم احيانا في كتابة افتتاحيات الصحف وتعليقات الاذاعـــة ، وكانت له قدرة خارقة في هذا الباب .

كتب مرة بجريدة « الصريح » مقالا في نقد جهة معينة ، وثار رئيس الوزراء وكان سعيد المفتي ، فاتصل بالملك مستأذنا في اغلاق الجريده وتوبيخ صاحبها ، ووافقه الملك على ذلك .

وجاء هاشم السبع لمقابلة رئيس الوزراء ، فبادره السيد المفتي قائلا : « من هذا الـ... الذي كتب المقال » ؟ فاجاب « هذا سيدنا يا باشا » !... وهدأت ثائرة الباشا وسكت وسكتنا . . . ولطالما حرك الملك عبد الله بمقالاته — وكانت تنشر بلا توقيع — اقلام الكتاب ، سواء في السياسة او في الأدب ، فيخلق موجة من النشاط الفكري من حيث لا يعلم الكتاب المحرّك والمنشط ! . . . ولو لم يكن هذا المحرك المنشط ملكا ، لكان صحفيا معلقاً وناقداً من الطراز الاول ! . . .

وكان من عادته ، اذا تأخر عن زيارته احد الذين تعودوا زيارته ، ان يكلّف احد موظفي القصر بالسؤال عنه ، فان كان مريضا لم ينس ان يطمئن على صحته باسلوب من اساليبه اللبقة المهذبه . وكان من عادته كذلك ، انه اذا حل ميعاد الطعام ووجد ان من في معيته قليل ، امر بالاتصال ببعض الشخصيات واستدعائهم في الحال للجلوس معه الى المائده .

وكان مولعا بلعبة الشطرنج ، وبين من رأيتهم يترددون على مجالسه للعب معه ؛ ابراهيم هاشم والشيخ الشنقيطي والشيخ نديم الملاح وزهاء الدين الحمود . . فكان يلاعب احدهم او يطلب اليهم ان يلعبوا بحضوره ، وكانت كـثيرا ما تقع مشادات بين اللاعبـين ، وكان هو يشجع على مثـل هذه المشادات ! . . .

ومن عاداته رحمه الله ، انه كان يكره المشتكي ويقدّر الرجولة. والويل للمغلوب من افراد حاشيته ، ان جاءه شاكيا زميلا له . . . عندئذ تكـون نزلت به نازلتان : من خصمه ومن الملك على التوالي ! . . . واذا قدّر لك مثلا ان تكون في عـداد موظفي القصر في عهده ، فما عليك الا ان تتولى حمايـة نفسك بنفسك ! . . .

- ١٩ -

وأستعير الآن من لطف القارىء ، لاعــود الى الحــديث عن رئاستي لبلدية العاصمه ...

اذكر انني حين عينت لهذا المنصب ، تعرضت لحسد الكثيرين ، ولاسيما الطامعين فيه . . . وكنت اعجب لشأن هؤلاء ، وقد يكــون مرد عجبي اني ما حسدت انسانا قط في حياتي ، سواء على مركز وصل اليه او على ثروة اصابها . كما اني لا اذكر انني أسيت لخلو جيبي من المال ، او ازدهيت اذا امتلأ الوفاض . لقد جربت مرّ الحياة وحــلوها ، عسرها ويسرها ، شقاءها وسعادتها ، وخرجت بنتيجة واحدة وهي ان كل شيء الى زوال وليس يبقى الا الذكر الحسن . والغريب اني وجدت ان الذين كانوا يحسدونني هم الذين كانوا اكثر الناس توددا الي في القصر ! ...

ولقد زادت تلك الظاهرة في نشاطي عندما باشرت عملي الجديد ، فاقبلت عليه بهمة لا تعرف الملــل ، وأفدت من علاقتي الوثيقة بالملك وصداقتي له في سبيل تحسين العاصمة ما وسعني التحسين . فاخذت اشق الشوارع واوسعها ، ولا اتردد في هدم المنازل التي كانت تعترض ذلك ، والتي وقفت منــذ زمن طويل حائلا دون التحسين المنشود ، بسبب ان اصحابها او مشغليها كانوا من ذوي النفوذ واصحاب المكانات المرموقة . ولقد اثار اقــدامي على تنفيذ تلك الخطوة الجبارة في اكبر مدينة في المملكة ، موجة عارمة من التهجم عــلي مضافة الى المتاعب التي كنت القاها في اول الامر . ولكن العاصفة مالبثت ان هدأت ، عندما أخذت العاصمة تبدو في طلعتها الجديدة المحسنة ، وبات معلوما لدى الناس كافة ان اجراءات التحسين قد شملت الجميع ولم اراع فيها احدا مهما كانت منزلته .

كنت اقوم بكثير من التحسينات دون مراعاة لاحكام قانون الاستملاك المعمول به اذ ذاك ، بسبب الوقت الطويل والشكليات العديدة التي كان يتطلبها هـذا القانون . وقد سبّب لي ذلك متاعب مع الحكومة ، غير اني لم اكن آبه بلومها او نقدها اياي . وكنت اشرك الملك معي في الوقوف على العمال في اثناء فتح بعض الشوارع او توسيعها، وهدم بعض المنازل تبعا لذلك . وكان رحمه الله يفرح للتحسينات ويباركها ، ولا سيما وانه كان يطالب من سبقني من الرؤساء بالقيام بها فكانوا يجبنون امام حرفيةالقانون وامام بعض ذوي النفوذ عندما تصطدم مصالحهم مع عمليات التحسين . ولا بد لي في هذا الصدد من ان اقرر اني لم أتجنّ على صداقتي للملك ، وانما كنت اهتبلها فرصة ملائمة للقيام باحسن ما يمكن القيام به في سبيل عمران العاصمه وتجميلها ، ومع ذلك فقد كنت اتوصل الى اتفاق سريع مع صاحب الملك على تعويض عادل ...

ومن طريف ما اذكر من القصص التي كنت احياها في غمرة ذلك الاصلاح الشامل في العاصمة ، اننا كنا في صدد توسيع وتحسين شارع الملك طلال ، وقد تم لنا ذلك كله باستثناء فرن صغير كان قائما في وسط الشارع . وعبثا حاولنا الوصول الى اتفاق على تعويض عادل مع صاحبه ـ واسمه روفان النحاس ـ وقد زدنا له مقدار التعويض حتى لا نلجأ الى الاستملاك بالطريقة التي نص عليها القانون والتي تحتاج الى سعة في الوقت ، فابى ذلك ...

وذات مساء هيأت مائة عامل وسيارات نقل ، وما ان اغلق روفان فرنه حتى تحركت الورشة الكبيرة ، وانا على رأسها ومعي بعض رجال الشرطة . وفي ساعات قليلة تم هدم الفرن ونقل انقاضه ، بعد ان وضع العجين الذي كان فيه في دكان قريب . وفي الصباح جاء صاحب الفرن ليجد ان لا أثر لفرنه البتة ، وكان يصيح كالمجنون : « اين فرني ياجماعة » !؟... وظلت قصة روفان النحاس وفرنه حديث الناس في عمان طيلة فترة الاصلاحات .

على ان عملي في تحسين العاصمة لم يقتصر على شوارعهـا وحسب ، ولا على تزيين هذه الشوارع بغرس الاشجار على جوانبها ، وانما صرفت من الهمة والجهد في تحسين شبكة المياه فيها وزيادة آلات الضخ والخزانات ، مـا جعل الحركة العمرانية تزدهر في عاصمة المملكة ازدهاراً بدت معه وكانها كلها ورشة كبرى . . وكانت السنتان اللتان قضيتها رئيساً لبلديتها جهداً متواصلا ومثمراً معاً ، مما حدا بالناس جميعاً لان يمحضوني محبتهم وتقديرهم واحترامهم ، ومما حدا بالملك عبد الله لان يقلدني قلادة ذهبية نقشت عليها هـذه العبارة : (قلادة تقدير تهدى الى رئيس بلدية عمان هزاع المجالي تبقى لاخلافه الرؤساء من بعده) .. وما زالت هذه القلادة في امانة العاصمة ، يضعها الامنـاء في اعناقهم في المناسبات الرسمية ، وما زلت كلما رأيتها على احدهم اشعر باعتزاز وغبطة وتغمرني ذكرياتها الجميلة .

ولا بأس من ان اذكر انني في خلال تينك السنتين ، اقتنيت اول سيارة خاصة بي ، وكـان لذلك قصة لا تخلو من طرافة : فان المجلس البـلدي قرر شراء سيـارة لاستعمال رئيس البلدية واشتراها وتسلمتها . وشـاء وزير الداخليـة اذ ذاك ، ان يشجب هـذا الاجراء من قبل المجلس البلدي وان ينقض قراره ، وكانت مشادة بيني وبين الوزير بلغ امرها الملك ، فما كان منه رحمه الله الا ان سدد ثمنها من جيبه الخـاص .

ولا بأس كذلك ، وما دام السياق قارب الخصوصيات ، ان اذكر انني في خـلال مدة رئاستي لبلدية العاصمة ، استطعت ان ابتني بيتا صغيرا على جبـل الحسين ، وفي الحي الذى كنـت اقطن فيه من قبل مستأجراً . . . ويقتضيني الواجب ازاء من اشعر انني مدين له بمكانتي – الملك عبـد الله – ان اذكر انه ساعدني بجزء غير قليل من اكلاف البيت ، كمـا ان شركة مواد البناء يسرت لي الاكلاف الاخرى باقساط شهرية . . ويهـون الامر اذا شاء ربك ان تهون الامور .

هذا وقد رزقت وزوجني طفلنا الثاني (ايمن) في ٢٠ شباط ١٩٤٩ ، وكنا قبله رزقنا طفلة لم تلبث ان قضت وهي في الشهر العاشر من عمرها .

- ٢٠ -

ونعود الى الحديث عن الهدنة الثانية لنربط بها ذيولها ، ولنجد ان هذه الذيول كانت ادهى وأمر من الهدنة نفسها... فعلى الرغم من تأكيدات الفريقين المتهادنين التزامهما نصوص تلك الهدنة ووجوب احترامهما لها ، فان حوادث اطلاق النار وتبادل القصف بالمدفعية ، وشن الغارات الموضعية والخطف والقتل ، كانت من الحوادث اليومية المألوفة ... وكان اليهود دائماً هم الجانب الفائز في هذه الاخلالات ، فاستمرت قوتهم في ازديادها المطرد ، وزاد في قوتهم وسلطانهم انهم عندما قتلوا برنادوت رسول هيئة الامم المتحدة ، لم تفعل هذه الهيئة الكبرى شيئاً ذا بال ، ولم تحاول ان تثأر لهيبتها المهدورة على ايديهم في « قدسها المدولة » ! ...

وفي تشرين الاول من تلك السنة ، قام اليهود بهجوم مركز على مواقع الجيش المصري ، على طول الجبهة . . . وقامت المستعمرات اليهودية الواقعة خلف الخطوط المصرية بدور فعال في شل حركة الجيش المصري . وقد تسنى لليهود في برهة وجيزة احتلال بئر السبع واسدود والمجدل ، بعد ان تراجع الجيش المصري عنها.. وعزلت حامية الفالوجة ، وكان مؤسفاً ؛ بل ومؤلماً ، ان تكون الجيوش العربية من الضعف بحيث لم تتمكن أن تفعل شيئاً لنجدة المصريين أو تخفيف الضغط عنهم ! ... وقد بذلت محاولات

عديدة لاتخـاذ التدابير التي تقتضيها وحـدة القتال ، ولكنها كلهـا لم تسفر عن اية نتيجة . ولعل محاولة القيادة المصرية التستر على اخبار تلك المعركة ، واحاطتها بسياج قوي من الكتمان ، كانت من اقوى العوامـل التي سببت الكارثة ! .. وهكذا تسنى لليهود ان يوسعوا الرقعـة الممنوحة لهم على حساب العرب ، غير ملتفتين الى قرار التقسيم ، حتى كانت اتفاقية الهدنة في رودس .

في هذه الاثناء برز اسم عبد الله التل كمثل لبطولة الجيش العربي . . وقد ساعده وجوده على رأس القوة التي دخلت القدس القديمة لحمايتها من السقوط في يد اليهود ، وتعيينه حاكماً عسكرياً لمدينة القدس فيما بعد – اثر استقالة احمد حلمي من هذا المنصب – على تقريبه من الملك عبد الله ورجال حكومته ، فاستغل منصبه استغلالا بارعاً ، واستطاع ان يلفت اليه الانظار في داخل الاردن وفي العالم الخارجي ، وكان واضحاً من اسلوبه انه يتطلع الى الشهرة العارمة والعاجلة معاً . ولعل هذا التطلع في عبدالله التل ، هو الذي دفع به الى سلوك يتنافى وواجبه كجندي ، كما يتفانى وواجبه في الولاء لملك احسن الظن فيه وائتمنه .

لقد تمخضت نتيجة معارك الجيش اليهودي والجيش المصري عن اجتماع للفريقين في رودس بحضور وسيط هيئة الامم المتحدة الدكتور رالف بنش ، وذلك لتوقيع اتفاقية للهدنة بينهما ... وحذت سوريا حذو مصر ... وقد اسفرت هاتان الاتفاقيتان عن تأكيد ضياع مدن وقرى ومناطق عربية شاسعة في الجبهتين المصرية والسورية . وفي شباط ١٩٤٩ سافر وفـد عسكري اردني الى رودس للالتقاء باليهود وعقد اتفاقية جديدة للهدنة معهم . وكان الوفد بجملته وتفصيله ونوعيته مما لا يبشر بالخير ، حتى ان اليهود انفسهم تمنوا لو يتم تغيير شخصياته باخرى ذات وزن سياسي وعسكري ، وذكروا اسماء معينة ! . . .

وفي هذه الأثناء استأذن توفيق ابو الهدى في السفر الى لبنان – كعادته – للراحة والاستجمام !.. وكان يقصد من وراء هـذه الاجازة ان تتم الامور في غيابه ليلقي التبعة على غيره ، ولكن اليهود كانوا اذكى منه فقد رفضوا ان يوقعوا اي اتفاق او ان يقبلوا بأي حل لا يوقعه ولا يقبل به توفيق ابو الهدى بالذات !

واذكر ان وفداً من لواء نابلس ، زار الملك عبدالله في الشونه ورجاه ان يشرك مع الوفد في رودس شخصيات فلسطينية تعرف المواقع وتساعد على تبيان الحقائق وتكون على بينة من الامور ، فتقبل الملك رجاءهم وأراد أن يحقق مطلبهم ، وتكلم مع الحكومة في ذلك راغباً اليها تنفيذ مطلب الوفد ، غير ان الحكومـة اعتذرت بحجة ان المفاوضات الدائرة هي مفـاوضات عسكرية محضة ، ولن يترتب عليها من النتـائج ما يخل بالحقـوق السياسية لأي من الفريقين عند التسوية النهائيه !..

لقد تضافرت عدة عوامل على ضياع المثلث نتيجة لاتفاقية رودس : منها اعلان العراقيين رفضهم التفاوض مع اليهود وتفويضهم الاردن بذلك وتصميمهم على سحب قطعاتهم من فلسطين .. ومنها ان الـوفد المفاوض في رودس كان يتألف من احمد صدقي الجندي رئيساً ومعه نفر من الضباط فيهم علي ابو نوار ، وكلهم لم تسبق له خبرة باصول المفاوضات ولا كان لهم اي المام دقيق بالمواقع في فلسطين . وحتى المستشارين الحقوقيين لهـذا الوفد لم يكن لهم المـام كاف باصول المفاوضات ولا كان لهم اي اطـلاع على المواقـع موضوع بحث الاتفاقيـة ، ولا يعرفون الانكـليزية التي كانت لغـة المفاوضات .. ومن تلك العوامل ايضاً ضغط اميركا الملح المتمادي ، عن طريق قنصلها في القدس « ستيبلر » على المسؤولين الاردنيين . ومنها تطمينات عبد الله التل بان طلبات اليهود معتدلة ومعقولة وانه لن ينشأ عنها اي ضرر للجانب العربي ، لا في الممتلكات ولا في القرى !..

وقد تعثرت المفاوضات في رودس ، فعاد رئيس الوفد الى عمان ، وعقد اجتماع بين الجانبين الاردني واليهودي ، حضره بعض اعضاء الوزارة القائمة اذ ذاك . وبحضور عبد الله التل تم وضع المبادىء الاساسية للاتفاقية . . وحملها رئيس الوفد معه في اليوم التالي الى رودس ، حيث جرى التوقيع عليها هناك توطئة لاقرارها من المراجع المسؤولة في البلدين .

ولقد اسفرت هذه الاتفاقية وما سبقها من اتفاقيات مع مصر وسوريا عن ضياع مئات الألوف من الدونمات مع مدنها وقراها .. ويكفي للدلالة على اجحافها ، تعليق الدكتور رالف بانش عليها اذ قال « ان الوفد اليهودي طلب القميص وكانت الوفود العربية كريمة فسلمتة القميص والبنطلون » ! . .

وعاد الوفد من رودس .. وتسامع الناس في لواء نابلس بخبر الاتفاقية وما ستجره عليهم من خسائر فادحة ومآس مبكية ، فجاء وفد منهم على رأسه سليمان طوقان وهاشم الجيوسي وقابل الملك . ولقد تأثر الملك كثيراً لكلامهم ، فاستدعى بعض الوزراء واستدعى عبد الله التل كذلك ، وواجههم بالوفد الحزين الساخط ، وطالب بعودة توفيق ابو الهدى للمداولة في الأمر .. وما ان خرج الوفد حتى سمعت عبدالله التل يقول مخاطباً الملك : « لا تلتفت يا سيدي الى أقوال هؤلاء ، فأهل فلسطين طول عمرهم سلبيون ، وهذا ما جعل قضيتهم تصل الى هذه المرحلة .. ان طلب اليهود معتدل ومعقول وليس فيه ما يضر سوى انه يتناول ولفترة موقتة عزل بعض القرى الصغيرة لا اكثر ولا اقل » !..

وعاد توفيق ابو الهدى ، واجتمع مجلس الوزراء وتداول في الامر طويلا . . . واشتد اذ ذاك ضغط اميركا بضرورة اقرار الاتفاقية . . . ونقل عبد الله التل الى المسؤولين عزم اليهود على استئناف القتال ان لم تقر الاتفاقية ...

وكـــان جواب رئيس اركان الجيش – ردا على طلب مجلس الوزراء تقدير الموقف العسكري في حالة استئناف اليهود القتال – ان الجيش بمفرده وبوضعه آنئذ لا يستطيع الصمود امام هجوم اسرائيلي . . . وكان بنتيجة ذلك ان وافق مجلس الوزراء بالاجماع على الاتفاقية كما وقعت في رودس ! . . .

وبعد هذا شرع الجيش العراقي في الانسحاب من مواقعه في فلسطين ليحل محله الجيش العربي الاردني . وبدأ تطبيق بنود الاتفاقية على الارض . . وهنا اتضح للمسؤولين فداحة الخسارة وقساوتها . . ولقد هبت مظاهرات صاخبة على أثر تسليم بعض القرى مع اراضيها لليهود نتيجة لاتفاقية رودس ، وظهرت للملأ مهارة المفاوض اليهودي وسعة اطلاعه ووقوفه على كل شبر من الارض وعلى كل بئر من آبار الماء .. كما ظهرت غباوة المفاوض العربي وجهله المطبق لمدار الامور موضع البحث في الاتفاقيه ! . . .

وواضح ان مسؤولية الحكومة الاردنية في هذا الموضوع – موضوع اتفاقية رودس – كانت مسؤولية تامة وموجبة للسخط والاستنكار . فهي التي كانت مسؤولة عن تأليف الوفد وعدم اشراك فلسطينيين فيه ، وهي التي كانت مسؤولة بالنتيجة عن الموافقـــة على الاتفاقيـــه . وليست بالـــتي تستطيع ان تتنصل من هذه المسؤولية العظمى والخطيئة الكبرى ، بحجة ان المفاوضات كانت مفاوضات عسكرية لا تؤثر في التصفية النهائية لدى تسوية القضية الفلسطينية ، ان اتيح لها تسوية سلميه . . فقد رأينا باعيننا كيف وضع اليهود ايديهم على مئات الالوف من الدونمات الخصبه . وكانت الحكومة تستطيع بحكم مسؤوليتها وهيمنتها العامة على مختلف شؤون الدولة ان ترفض هذه الاتفاقية ، ولا سيما وان قرار مجلس الامن كان مقتصرا على وقف اطلاق النـــار وتثبيت الوضع القائم آنذاك كحد يفصل بين الفريقين المتحاربين ، مع تخلي جيوشهما عن مسافـــة متساوية من كـــلا الجانبين تؤلف منطقـــة محظورة على

العسكريين . كما انه ليس بالذي ينفي عن الحكومة مسؤوليتها ، قولها بوجود ضغط عليها .. فقد كان في مقدورها ان تستقيل وتتخلى عن الحكم فتتحاشى وقوع هذه المأساة المؤلمة ، وهي التي كانت تستقيل لاتفه الاسباب . ولئن صح ما كان يردده توفيق ابو الهدى مفترضا انه لو حوكم الذين قاموا بدور فعال في اتفاقية رودس لظهر انه غير مسؤول جزائيا ، فلن يصح بحال من الاحوال تجنيبه مغبة المسؤولية المسلكية والتاريخيه . ولعل اتفاقية رودس هي التي ظل شبحها الرهيب يطارده ويلاحقه حتى قرر لنفسه تلك النهاية الشاذه!..

- ٢١ -

وعلى اثر اقرار اتفاقية رودس وتنفيذ بنودها ، جرى توسيع الوزارة بادخال عناصر فلسطينيه . فقد عدل توفيق ابو الهدى وزارته في ايار ١٩٤٩ ، واشرك فيها السادة روحي عبد الهادي وخلوصي الخيري وموسى ناصر ، وبعد فترة وجيزه اشرك فيها السيدراغب النشاشيبي . وكان سبق اشتراك الفلسطينيين في الوزارة عدة مؤتمرات من اهل فلسطين طالبوا فيها بضم الضفتين : غربي الاردن الى شرقي الاردن . وفي مؤتمر اريحا ثم في مؤتمر نابلس الكبير ، تنادى الفلسطينيون مطالبين باعلان هذا الانضمام في اقرب فرصة ممكنة . . . .

وفي صيف ١٩٤٩ قام الملك عبدالله بزيارة لشاه ايران في طهران ، وكان في معيته السادة سمير الرفاعي وروحي عبد الهادي وفرحان الشبيلات . . . ومن طهران ابرق الملك الى حكومته انه اسند الى السيد سمير الرفاعي منصب وزير البلاط . ولاول مرة في تاريخ الاردن يصار الى هذا المنصب ، ولعل وجود وزير للبلاط الايراني وازماع شاه ايران زيارة الاردن فيما بعد ، اوحيا للملك باحداث هذا المنصب وتعيين السيد سمير الرفاعي له .

ولدى عودة الملك من زيارته لايران ، لم ينتظر طويلا حتى قام بزيارة الى لندن . وكان توفيق ابو الهدى قد سبقه اليها واجرى فيها محادثات تمكن بها من التوصل الى اتفاق مع المسؤولين البريطانيين لاستبدال كلوب باشا رئيس الاركان ببريطاني آخر . غير ان الملك عبد الله لم يوافق على هذا التغيير تمسكا منه بالمبدأ القائل «ان وجها تعرفه خير من وجه لا تعرفه» وما دام رئيس اركان الجيش العربي الاردني سيظل انكليزيا فان كلوب باشا خير من اي انكليزي سواه.

وفي اليوم الاول من سنة ١٩٥٠ ، وتمشيا مع سياسة ضم الضفتين وادخال عناصر فلسطينية في الوزارة ، صدر مرسوم بحل البرلمان ، وتم تعديل قانون الانتخاب بحيث منح الفلسطينيين حق انتخاب عدد من النواب مساو لعدد النواب من اخوانهم في الضفة الشرقية ، وبهذا تقرر مبدأ الدخول بالمملكة في طور جديد .

ولقد سافرت في هذه الاثناء مع السيد سمير الرفاعي وزير البلاط والسيد محمد الشريقي الوزير المفوض في ايران ، لدعوة شاه ايران لزيارة الاردن ردا لزيارة الملك عبد الله لايران . وفي طهران قمت بتقديم قلادة الى بلديتها من بلدية عمان ، ومكثنا في العاصمة الايرانية خمسة عشر يوما اتيح لنا خلالها مشاهدة معالمها وما حولها . وقابلنا الشاه ووجهنا له دعوة الملك عبد الله فتقبلها شاكراً . كما قابلنا عددا من المسؤولين الايرانيين ، بينهم رئيس الوزراء ووزير الخارجية ، وقمنا معهم بمحادثات حول موقف ايران من اسرائيل ، وضرورة مجاراة شعور العرب في عدم الاعتراف بها وعدم تبادل التمثيل الدبلوماسي معها ، وكان لهذه المحادثات أثرها الايجابي . . . وقد عدنا الى عمان في يوم ماطر وجو عاصف كاد يودي بطائرتنا . وفور وصولنا عمان توجهت الى القدس حيث كان الملك يقضي ليلته فيها ، وعرضت عليه نتائج محادثاتنا مع الشاه والمسؤولين الايرانيين .

وفي نيسان جرت الانتخابات النيابية ، واسفرت عن قيام مجلس يمثل الضفتين ، فاستقال توفيق ابو الهدى ، وعهد الى السيد سعيد المفتي تأليف وزارة جديده . وقد اشترك في هذه الوزارة من الضفة الغربية : روحي عبد الهادي وراغب النشاشيبي وانسطاس حنانيا وسعيد علاء الدين ، بالاضافة الى محمد الشريقي وفوزي الملقي وفلاح المدادحه وسليمان سكر من الضفة الشرقية . وافتتح الملك عبد الله اول دورة لهذا المجلس في مهرجان حافل . واجتمع مجلس الامة اعياناً ونواباً ، واتخذ قراره التاريخي بضم الضفتين في دولة واحدة هي المملكة الاردنية الهاشمية . وقد تخلل تلك الجلسة التاريخية مشادات حادة بين بعض النواب وبعض الاعيان ، وكان هدف النواب من مناورتهم الحصول على وعد بتعديل الدستور بحيث تصبح الحكومة مسؤولة امام مجلس النواب .

وقد سارعت بريطانيا فاعترفت بهذه الوحدة في نفس اليوم الذي اتخذ فيه القرار بها ، واعتبرت المعاهدة الاردنية البريطانية شاملة الضفة الغربية من اجل اغراض الدفاع ، ما عدا مدينة القدس فان الاعتراف بها كان واقعيا لا قانونيا كالاجزاء الاخرى من الضفة الغربية ، وذلك تحاشيا لامتعاض هيئة الامم المتحدة او اغضابها . . . واعترفت دول كثيرة فيما بعد بهذه الوحدة ، وليست الدول العربية منها حتى يومنا هذا ، فهي لم تعترف قانونيا بضم الضفة الغربية الى الاردن لاعتبارها هذا الاجراء خروجا على قرارات جامعة الدول العربية وخطراً على قرارات هيئة الامم المتحدة . وقد اثيرت حملة عنيفة من الاتهامات ضد الاردن ازاء هذا الاجراء من جانبها ، وكانت مصر هي التي اثارت الاتهامات وقادت حملتها . . غير ان ما تم بمشيئة اهل الضفة الغربية ومحض ارادتهم ، جعل الضم امراً واقعيا لم تلبث الاتهامات معه ان تلاشت واستتب الامر الواقع .

وتألفت من رجال القانون في الضفتين لجنة مشتركة برئاسة ابراهيم هاشم لتعديل الدستور وتوحيد القوانين والانظمة ، وباشرت عملها فورا وحققت جزءاً كبيرا جداً من الغاية التي تألفت من اجلها .

واني لأذكر في هذه الفترة ميلاد ابنتي « تغريد » في ١٦ آب ١٩٥٠ .

استدعاني الملك عبد الله ذات يوم الى الشونه ، وطلب الي ان ازور السيد سمير الرفاعي وان افاتحه في امر تأليفه الوزارة ، وان استطلع رأيه في عدد من المسائل السياسيه ... وكان السيد الرفاعي قبل ذلك قام باتصالات مع السيد سليمان النابلسي وشلته المكونة من السيدين عبد الحليم النمر وشفيق الرشيدات وغيرهما ، واتفقوا على التعاون معه في كتلة واحده ...

وزرت السيد الرفاعي في بيته ، وفاتحته برغبة الملك فاعرب عن استعداده لتأليف الحكومة .. وعندما سألته عن برنامج حكومته ، رجاني ان انقل الى الملك رايه فيما كان يشغل بال الرأي العام اذ ذاك ، وكان رأيه انه من الخير للاردن ان لا ينفرد بحل القضية الفلسطينية بل يجب ان يكون النظر فيها وحلها بموافقة جميع الدول العربية . اما عن علاقة الاردن بالجامعة العربية — وكان الخلاف على اشده بيننا وبين بعض دول الجامعة العربية بسبب ضم الضفتين — فقد كان رأيه بانه ليس من مصلحة الاردن الانسحاب من الجامعة ما بقيت الامور كما هي ، وانه في حالة تضارب المصلحة الاردنية مع سياسة الجامعة فسيتمسك بالمصلحة الاردنية ولو ادى ذلك الى الانسحاب من الجامعة . وكان من رأيه في المسائل الداخلية ، ضرورة اشراك بعض الشباب معه في الوزارة ، وضرورة القيام باصلاحات جذرية في الادارة والاقتصاد .

ونقلت الى الملك كل ما دار بيني وبين الرفاعي في مقابلتي له في منزله ، وكان ان قال لي الملك انه سيتحدث الى الرفاعي شخصيا ، وان عليه ان يتهيأ للامر ويهيىء وزراءه في خلال اسبوع .

وحدث في هذه الاثناء أن اشتبكت وحداتنا مع القوات اليهودية في وادي عربه ، ولم تطلع الحكومة الملك على تفاصيل الاشتباكات . . وقد استكثر الملك أن تكتم الحكومة عنه هذا الامر ، فاغتاظ جداً ، وتحرك من الشونة الى عمان دون ابطاء ، وما ان وصل القصر حتى طلب الى سعيد المفتي ان يستقيل ، فقدم استقالة حكومته في الحال ، رغم توسل روحي عبدالهادي والتماسه من الملك عدم قبول الاستقالة والاكتفاء بقبول اعتذار الحكومة .

وكان واضحاً لدينا سلفاً ، ان الملك سيعهد بتأليف الوزارة الجديدة الى السيد سمير الرفاعي . ولقد استدعاه وما ان جاء وسلم على الملك ، حتى بادره الملك بقوله : « الله يعينك على حملك » .. واستأذن السيد الرفاعي ان يتحدث الى الملك على انفراد ودار بينهما حديث قصير ، طرق سمعي منه اسم السيد انور الخطيب ، فأدركت انه سيكون وزيراً في الوزارة الجديدة .

واستأذن السيد سمير الرفاعي بالانصراف ليباشر في اجراء مشاوراته لتأليف حكومته ، ولم اكن اعلم حتى هذه اللحظة اني سأكون في عدادوزرائه. وقد بقيت لدى الملك ، وبدأنا نلعب الشطرنج بحضوره - الشيخ الشنقيطي وانا - وفي اثناء ذلك طلب الملك الي ان اتحدث هاتفياً مع السيد الرفاعي في امر من الامور فلم اجده في بيته ، فقال لي رحمه الله : « اسأل عنه في بيت السفير البريطاني تجده هناك » ، وقد وجدته هناك ، وبلغته امر الملك ، الذي كان يعلق على المناسبة قائلا : « هذه مصيبتي مع جميع رؤساء الوزارات . . . انهم لا يفعلون شيئاً الا بعد اطلاع السفير البريطاني عليه » ! . . .

وبعد العشاء مع الملك ، هممنا بتوديعه ، فامسك بيدي وابلغني اني وزير في هذه الوزارة ، وان علي ان اذهب للتو الى بيت رئيسها لاكون الى جانبه في مشاوراته الوزارية . وكانت مفاجأة لي ، وما من شك انها كانت مفاجأة سارة ، فقد كنت اطمع في الوزارة ولكني لم اكن اتوقعها في مثل تلك السن المبكرة ، اذ كنت لم اجاوز الثانية والثلاثين بعد ! ...

وللحال قصدت الى بيت السيد الرفاعي ، حيث رحب بي وشكرني على قبولي الدخول في وزارته . وبحثنا في الخطوط الرئيسية ، وتم الاتفاق على تأليفها من عباس مرزا ، وسليمان النابلسي ، وعبد الله غوشه ، وانسطاس حنانيا ، وعمر مطر ، وانور الخطيب واحمد طوقان وانا .

ولاشراك السيد انور الخطيب في الوزارة قصة لا تخلو من طرافه . . فقد كان الدكتور ناظم القدسي رئيس وزراء سوريا آنذاك ، ضيفاً على الحكومة الاردنية ، وكان يبشر لمشروع اتحادي لجميع الدول العربية ، ومر يوم استقالة وزارة السيد المفتي بالقدس ، حيث اقيم له احتفال القى فيه السيد انور الخطيب كلمة اعجب بها الملك عبد الله ، فطلب الى السيد الرفاعي ادخاله في عداد وزرائه مع العلم انه لا يعرفه مطلقاً ! . . . .

وثارت ثائرة بعض اخوان الصفا ـ شلة سليمان النابلسي ـ عندما تناهى اليهم نبأ دخول سليمان النابلسي الوزارة ... فقد كان بعضهم يطمع في ان يكون وزيراً فيها ، واعتبروا قبول النابلسي دخوله الوزارة بمفرده انانية منه ، وانه كان يتوجب عليه ان لا يقبل بالوزارة الا وبعضهم معه فيها . وهنا تدخلت في الموضوع شخصياً ،ورجوت الملك ان يستدعيهم ويسترضيهم وهكذا كان ، وتخلص سليمان النابلسي من مضايقات الدكتور محمد حجازي على الاقل ! ...

وانجزت مراسيم تأليف الوزارة ظهر اليوم التالي للتكليف ، وتقبلنا التهاني في حفله تقليدية اقيمت في مجلس الامة ، حيث حضر رئيس الديوان الملكي في السيارة الملكية وقرأ الارادة السامية بالتأليف . واذكر اني عندما عدت الى بيتي بعد هذه الحفلة التقليدية ، استقبلت سيلا من الوفود ، جاءت لتهنئني بالمنصب الجديد ، ولتصب علي عبارات المدح والثناء بحساب وبغير حساب ! ...

ولم انم تلك الليـــلة ... فلقـــد اصبحت « صاحب معـــالي » ! ... وستحمل سيارتي في الصباح التالي لوحة حمراء مكتوب عليها «حكومة» !.. وسيركب الى جـــانب سائقها شرطي برتبة عريف !.. انها اشياء براقـــة يتشهاها خيال الشباب ويطمح اليها الطامحون ... ولقد فزت بها فحرمتني النوم وما ان اصبح الصباح حـــتى هيأت نفسي وذهبت مبكراً الى مبنى وزارتي ، ودخلت مكتبي قبل حلول وقت الدوام الرسمي . ولا تسل عن الموظفين ، كيف جاءوا جميعاً يتنافسون على تهنئتي واسترضائي ، وكيف ان بعضهم استغاب البعض الاخر في خلال ذلك.. كما وجاء لتقديم « فروض التهاني » جمهور غفير من المسلّمين ، اعتادوا السلام في مثل هذه المناسبة، والطواف على جميع الوزراء بالاسلوب ايـــاه ! ...

لم تخدعني تلك المظاهر ، ولا ازدهاني المديح الوثني او اغرتني عبارات الثناء المنمقة المستفيضة . فقد كنت رئيساً لبلدية عمان ، وهو منصب في مثل مرتبة الوزير . وكنت احد جلساء الملك واحد اصدقائه الخلص . ولكن شيئا خلابا واحداً كان ينقصني ، هو لقب « صاحب المعالى » ! . . . واذكر اني فرحت فعلا عندما دخلت الوزارة لاول مرة، وتأثرت عندما تركتها ... غير انني لم اكن لافرح بعدئذ، عندما كان يطلب الي الاشتراك في وزارة، ولم اكن لاتأثر عندما كنت استقيل ، ولطالما استقلت مختارا من وزارات عدة فيما بعد .

- ٢٣ -

واخذت الوزارة تمارس حياتها وتباشر اعمالها ، وكانت باكورة هـــذه الاعمال تبيان اخطاء الحكومة السابقة واظهار مساوئها ، كما هي عادة كـــل حكومة تألفت في هذا البلد مع الاسف ! ... وكأن الطبيعة شاءت ان تقف منا في تلك السنة موقف من يناصبنا العداء ، فبخلت علينا بالمطر الذي هو حيـــاة

البلاد ، وكانت سنة عجفاء لم يسقط في خـلالها من المطر الا النزر اليسير الذي لا ينفع الزرع او الضرع ... وكانت المشكلة التي ترتب علينا ان نواجهها ، هي مشكلة الحبوب وتأمينها سواء للاستهلاك أو للبذار . وقد استطعنا ان نبعد شبح المجاعة المخيف وان نخفف على الناس من بلوى القحط الشامل ما امكننا التخفيف .

على ان مشكلة من نوع لم يكن يتوقع ، جابهتنا يوم سافر الملك عبد الله الى تركيا في ١٥ ايار ١٩٥١ ، فقد ظهرت على الامير طـلال – ولي العهد ونائب الملك اثناء غيابه عن المملكة – علائم مرض خطير اضطر معه لان يسافر الى لبنان للمعالجة والتداوي ! ... واتخذنا في مجلس الوزراء قـرارا بتنصيب الامير نايف نائبا عن والده الغائب ، وطير النبأ الى الملك فهزه هزا عنيفا كما هزنا جميعا نظرا للمحبة التي كان يكنها الاردنيون لولي عهدهم المحبوب .

وكأن القدر أراد ان يصب جام غضبه على البلد في الاشهر السبعة التي عاشتها تلك الوزارة ، فقد كانت حياتها القصيرة مليئة بالمشاكل والاحداث الجسام .

ففي عهد هذه الوزارة ، عقدت الاتفاقية المالية بيننا وبين بريطانيا على تصفية تركة الانتداب في الجزء الذي انضم الى الاردن من فلسطين ، ووقعها سليمان النابلسي وزير المالية نيابة عن الحكومة . وقد جـلبت لنا هذه الاتفاقية الكثير من لغط الناس وانتقادهم ايانا ، بداعي انها الحقت بحقوق الفلسطينيين اضراراً جسيمة واخلّت بالالتزامات المـترتبة لهم في ذمة حكومة الانتداب . واني اقرّ هنا باني ما زلت اجهل حقيقة الأضرار التي نجمت عن هذه الاتفاقية .

وفي هذه الفترة بالذات ، اصبحت وزيراً للعدلية ، بعد ان سئمت العمل في وزارة الزراعة ، وكانت في تلك السنة كثيرة المتاعب ، وزاد في متـاعبها وسأمي ان اكثر المسؤولين فيهـا رغم اخلاصهم وتفانيهم في العمل صم لا يسمعون الا بشق الحنجرة ، وكان ما بهم من صمم يعقد التفهم والتفهيم في كل قضية من القضايا المطروحة للبحث .

وقد اشتط القدر في تجنيه على وزارتنا تلك ، حين جاء رياض الصلح الى عمان بدعوة من الملك عبدالله . فقد حل الزعيم اللبناني الكبير ضيفا على الملك في فندق فيلادلفيا ، وجرت بين الراحلين العظيمين محادثات على جانب كبير من الاهمية ، استهدفت الوضع العربي العام وضرورة تنقية الجو العربي من الشوائب التي كانت تخيم عليه بسبب الخلافات القائمة بين الدول العربية . واذكر ان الاثنين انسجما معاً واتفقا اتفاقاً لم يسبق له مثيل ، وكانا معجبين كل منهما بالآخر ايما اعجاب مقدرين بعضهما بعضاً تقديراً متبادلا . وقد اقيمت على شرف الضيف عدة حفلات رسمية وشخصية . وما زالت تلك الحفلة التي اقامها له سعيد المفتي وما تخللها من احاديث ونكات وما مازجها من فرح ونشوة تملأ ذكراها خاطري وتعيد لي ملامح الرجل في مادته ومعناه .

وفي اليوم التالي اقام له رئيس الوزراء حفلة غداء رسمية في فندق نادي عمان ، ولدى انتهاء تلك الحفلة سبقناه الى المطار لوداعه هناك .. وبينما نحن في انتظاره في المطار ، فوجئنا بنبأ مقتله ، وهو في طريقه من الفندق الى المطار ، وكانت مفاجأة مذهلة اهتزت لها نفوسنا من اعماقها ، وعندما بلغ النبأ مسامع الملك تأثر تأثراً بليغاً لم اشهده من قبل على وجهه .

ولقد احدث اغتيال رياض الصلح في عمان على ايدي القوميين السوريين موجة من الاستياء والسخط على حكومتنا وتعرضنا لنقد مرير في اننا قصرنا في تأمين الحراسة الكافية لضيف كبير ، معروف عنه انه مطارد من جماعة القوميين المذكورين ، واني لاعترف هنا بالمسؤولية الادبية النسبية التي تترتب علينا حيال مقتل الزعيم اللبناني ، فقد كان يتوجب علينا ان نقيم عليه حراسة شديدة تجنبه ذلك المصير الدامي ، الذي ادمى قلوبنا كما ادمى قلوب اتباعه ومحبيه في لبنان نفسها . ولكني اشجب بشدة ، ما زعمته بعض الصحف العربية من ان اغتيال رياض الصلح كان أمراً مدبرا ، وان دعوته الى عمان انما كانت مرتبة لهذا الغرض ، فلقد كان مجرد سوء طالع الحكومة ان الحادث المشؤوم وقع في عهدها .

على ان مقتل رياض الصلح لم يكن الا نهاية الفترة المحمومة التي تسبق الفاجعة العظمى والمأساة الكبرى. فالمارد الجبار الذي انتصب امام تلك الوزارة واخذ يسدد للبلد ضربات موجعات، كان في كل ما فعل يمهـد لضربته التي يتمت هذه المملكة الفتية، اذ غيبت عنها مؤسسها وبانيها وباعث كيانها.

- ٢٤ -

كان يوم الخميس في ١٩ تموز ١٩٥١ عندما اعلن الملك عبدالله عن رغبته في السفر الى القدس لقضاء ليلة فيها والصلاة في المسجد الاقصى ظهر يوم الجمعة التالي. وفي مطار عمان، وبحضور الوزراء ورجال الدولة، شهد تشكيل نواة سلاح الجو الملكي الاردني وسلم تلك النواة علمها الخاص. وفي خطابه في تلك المناسبة، حمد الله كثيراً، على انه شهد في حياته وقبل ممـاته، تشكيل نواة السلاح الذي يتدارك به النقص الذي كان يراه في قواتنـا المسلحة، اذ ليس يستطيع جيش مهما كانت قدرته على القتال، ان يضمن لنفسه الصمود والغلبة دون مساعدة او حماية جوية.

وكنت لدى الملك عبد الله في قصره قبل ذهابه الى مطار عمان بسويعات، وقد طلب السفير الاميركي (درو) مقابلة خاصة ومستعجلة مـع جلالته، وجاء السفير ناصحاً بعدم سفره الى القدس، لأن هناك مؤامرة يدبرها اشخاص انتقاماً لمقتل رياض الصلـح... واذكر اني توليت الترجمة بين الملك والسفير على ضعفي في الانكليزية، واني حرت في ترجمة جواب جلالة الملك على النصيحة بقوله «قل لن يصيبكم الا ما كتب الله لكم»، فجعلت الجواب شكر الملك للسفير اهتمامه بابلاغه هذه المعلومات!..

لم يكن الملك عبد الله ليدخل في روعه ان احـــداً سيتعرض لحياته او ان تمتد اليه يد بسوء . انه لم يكن يخشى شيئاً من هذا القبيل ، اذ انه ما دام كرس حياته لخدمة امته ولخير بلاده ، ففي معتقده ان ليس لمواطن مجال لان يفكر في ايذائه ، هذا الى انـــه كان قدرياً يؤمن بان المقدر سيكون وليس الى تفاديه من سبيل ! . . .

وسافر الرجل العظيم الى القدس بالطائرة من مطار عمان ، وقد طلب الي البقاء في العاصمة لتصريف بعض الشؤون . ونام تلك الليلـــة في القدس . وفي صباح الجمعة قام بزيارة الى رام الله ثم الى نابلس ، وقد الح سليمان طوقان في الرجاء اليه بأن يصلي صلاة الظهر في نابلس ويتغدى فيها ، ولكنه كان اعتزم ان يؤدي فريضة الجمعة في المسجد الاقصى ، فعـــاد الى القدس . . وكانت التعليمات صدرت بتشديد الحراسة على الذات الملكية ، وكان حابس المجـــالي يتولاها بنفسه على رأس قوة كبيرة من كتيبة الحرس الملكي . ولما وصل الى باب الجامع رفض بشدة ان يرافقه الحرس الى داخل المسجد . . وهناك وعند المدخل تصدى له ، من مكان قريب ومن بين المصلين ، من ارداه قتيلا ! . .

كنت في مكتب سليمان النـــابلسي وزير المالية ، مع ان اليوم كان يوم الجمعة ، وكان جاءنا الى المكتب المذكور فرحـــان الشبيلات رئيس الديوان الملكي اذ ذاك . وكنا نتجاذب اطراف الحديث في شؤون عادية ، عندما رنّ جرس التلفون واذا بالمتكلم يسأل عن فرحان الشبيلات فتدور بينهما مكالمـــة مقتضبة ، فينثني الينا الشبيلات لينبئنا ان القصر افضى اليه انه اثنـــاء الاستماع الى راديو القدس ، انقطعت قراءة القرآن على اثر عيـــار ناري سمع صوته في الراديو ! . . . فاستهجنا الخبر ، وللحال طلبت رئيس الوزراء فقيل لي انـــه مشغول في مكالمة مع القدس . فاقترحت ان نذهب الى بيت الرفاعي ، وهناك التقانا يبكي بكاء مرا ، فادركنـــا ما حدث قبل ان يقول لنا ان النار اطلقت

على الملك وانه جريح . . . وعلى اثر ذلك رن جرس التلفون وتناول الرفاعي السماعة ، واذا به يسقط فجأة الى الارض والتلفون في يده وهو يبكي بأعلى صوته ويقول « مات الملك . . . مات الملك . . . » فاجهشنا جميعاً بالبكاء .

ثم اخذت اتحدث الى الرفاعي قائلا « انك رئيس الوزراء المرجى في مثل هذا الموقف وان واجبك ان تتمالك اعصابك » فنهض للحال .. وقد اعجبت بمتانة اعصاب الرجل وسلامة تفكيره في مثل تلك اللحظة الحرجة الحاسمة . فقد استدعى كلوب اليه في البيت وكان خارج عمان ، وأمر باعلان حالة الطوارىء والحيلولة دون اعتداء الجيش على احد في القدس ، وانزل الجند الى الشوارع في عمان التي لفتها هالة مخيفة للشعور بالفراغ الهائـــل الذى خلفه الملك عبد الله . ولقد ضاعف من دقة الموقف وحرجه ، ان الامير طلال ولي العهد كان في سويسرا قيد المعالجة ولم يبت في شأنه بعد . غير ان النظام والطاعة ، اللذين كان يتحلى بهما الجيش العربي ، ووجود قيادة مفكرة حكيمة على رأسه ، ساعدت في عدم تعريض البلـــد لحالة لا يستبعد فيها ابداً قيام اضطرابات ونهب وسلب ، او نشوب حرب أهلية تضيع معها الضفة الغربية .

وللحال ابلغنا سمو الامير نايف بما جرى : اما سمو الامير حسين (جلالة الملك الان) فقد كان مع جده وشهد مصرعه واصطبغت بزته العسكرية بدماء جده الزكية . وذهبنا الى المطار برفقة الامير نايف ، فاستقبلنا جثمان الراحل العظيم في بكاء مر ضج له جو المطار ، وحملناه الى قصر رغدان بين عويل النساء ونحيبهن .

وفي المساء عقد اجتماع هام ، حضره بالاضافة الى هيئة الوزارة : رؤساء الوزارات السابقون ، ومحمد الشريقي وزير البلاط ، وفرحان الشبيلات رئيس الديوان الملكي . وفي هذا الاجتماع تداولنا في امر تنصيب وصي على العرش ، وكان الاتفاق تاما على تنصيب الامير نايف وصيا . غير ان خلافا نشأ حول طريقة

التنصيب اتكون بالمناداة بولي العهد ملكاً ثم يكون تنصيب الوصي ، ام تكون بغير المناداة بالملك الجديد ؟ . . ولقد كان من رايي انه لا بد من المناداة بالامير طلال ملكا على البلاد قبل تنصيب الامير نايف وصيا على العرش ، اذ لا يجوز ان يكون وصي على العرش ما لم يكن معلوما صاحب العرش ومعلنا عنه ، ثم لسبب من الاسباب التي تحول دون ممارسته مهامه الدستورية يجري تنصيب الوصي .. غير ان الجميع رأوا ان ينصب الامير نايف وصيا دون اعلان ملكية الامير طلال ، الى ان يبت في مصيره من ناحية مرضه واحتمال قدرته على مباشرة مهامه الرسمية . وليتهم اخذوا برأيي اذن لكنا تحاشينا ما ترتب على هذا الاجراء من نتائج خطيره فيما بعد ، عرّضت كثيرين لتهمة التآمر على سلامة العرش .

لقد انتابت البلاد من قاصيها الى ناصيها موجة من الذهول لدى مصرع الملك عبد الله ، ولفها الحزن العميق والاسى البالــغ للمصيبة بفقد من له عليها اليد البيضاء التي لا تنسى . وكنت ترى عمان وقد ارتفعت على كل منزل فيها راية سوداء علامة الحداد ، واصبح ليلها ساكنا رهيبا جليلا رهبة الموت وجلاله . وكنت تسمع على كل لسان عبارة تنبيك عن ان الفراغ الهائل في الاردن لا تستطيع قوة ان تسده ، وان اشتطاط المأساة بمرض ولي العهد جعل الفراغ اكثر اتساعا والموقف اكثر حدة وحرجا . ولم يبدد مخاوف المشفقين على البلد من ذلك الوضع الدقيق ، ان الامير نايف قد نصب وصيا على العرش ، فالاحساس العام كان ان الخسارة لا تعوض ، وانه كتب على الاردن بمصرع الملك عبدالله ان يمر في فترة روائية فاجعة .

ومن غريب المناسبات ، ان الملك عبدالله استدعاني مرة من مجلس الوزراء ، وكانت الجلسة منعقدة ليــلا في رمضان ، وكان ذلك قبل مصرعه بايام ... وطلب مني ان انقل الى رئيس الوزراء وان احضه على اتخاذ خطوة ايجابية في موضوع ولاية العهد ، اذ انه اصبح يحس بدنو اجله ويعتقد ان حالة ولي العهد

الصحية اصبح ميئوسا منها وان الامير نايف لا يصلح لهذا المركز ، وانه ـ اي الملك ـ يرجو ان يعلن الامـير حسين بن طـلال وليا للعهد ، وانه سيكفل امر اعداده وتهيئته للمنصب الخطير بالنظر لما يتوسمه في الامير الفتى من الصفات والمؤهـلات . . وختم حديثه في انه يعتمد علي اعتمادا كليـا في حمـل الرئيس على تنفيذ تلك الخطة . وكان جوابي ان يتمهل جلالته في هذا الموضوع وان يستأخر الامر ، لان البرلمان منحل ، والعالم العربي متسخط علينا يتهمنا بالمؤامرة على ولي العهد « بسبب عداوته للانكليز وكرهه اياهم » ، وان عملا من هـذا القبيل الذي يرتأيه ، قـد يؤكد للملأ مزاعم اولئك المتنطعـين في ادعاءاتهم . . ثم إن حالة ولي العهـد الصحية لم يبت فيها بعـد بشكل من الاشكال . . . وكان تعليقه على كلامي هذا ـ رحمه الله ـ ان رجـاله لا ينظرون الى الامور نظرة واقعية جدية كما ينظر هو ، واننا نعالج المشاكل دائما معالجة عاطفية ، واضاف : « تخطئون اذا كنتم تعتقدون اني لا احب طلال ، فطلال ولدي ، والوالد يتمنى لـو يكون ولده احسن منـه ، ولكني مدرك ان طلال مريض وان مصلحة البلاد تقتضي البت في هذه القضية امامي ، ومع هذا فانني لا اصر عليكم به بل اترك هذا للرئيس ، فاطلعه عليه ، وسترون فيما بعد نتائج هذا الحديث » .

ترى ، هل كان الملك عبد الله يقرأ الغيب عند ما كان يتحدث الي بهذا الحديث ، وانه كان فعلا يشعر بان اجله قد دنا ! . لقد كان رحمه الله يقول « لا اتمنى على الله سوى ان اقتل وانا في الصلاة على يـد فاسق وان تصيبني الرصاصة جانب رأسي هنا » ـ واشار بسبابته الى ذلك الموضع من رأسه ـ ولقد اصابته الرصاصة في ذلك الموضع بالذات ! . . وانا الان كلـما استعدت في ذاكرتي هذا الحديث اشعر بجوانحي تختلج لروعة الاحساس المرهف والبصيرة النافذة التي كان رحمه الله يتصف بهـا وتشرق نورانيتها في وجهـه وتجري على لسانه .

واذكر انني عندما عدت الى مجلس الوزراء وافضيت الى الرئيس الرفاعي بحديث الملك الي وما كان من جوابي على ذلك ، استحسن الجواب ، وقال ان الظرف لا يساعد على اتخاذ مثل تلك الخطوة التي لمعت في خاطر الملك .

وهنا استوقف نفسي قليلا ، لاسجل انطباعاتي عن سمير الرفاعي في خلال زمالتي وصداقتي له . فلقد عرفت الرجل زميلا داخل الحكم ، وعرفته صديقا لفترة قصيرة خارج الحكم ، واستطيع التقرير أنه يمتاز بذكاء حاد يلفت النظر . وعلى الرغم من انه لم ينل تعليما عاليا ، فهو يجيد الانكليزية ويتكلمها بطلاقة ، كما يجيد الخطابة والكتابة ، ويتقن المناورات البرلمانية ، ولـــه خبرة واسعة في الحكم والادارة ، فقد تدرج من موظف بسيط وتقلب في عدة مناصب حكومية حتى وصل الى منصب الرئاسة . وهو كانسان ، قريب الى النفس ، حلو الحديث ، كريم . ولكنه في الحكم غيره خارج الحـــكم . يؤخذ عليه انـــه عاطفـــي ، والعاطفة اذا تحكمت في رجل السياسة القيادي ، جرّت الى متاعب كثيرة ومخاطر جمة . ويؤخذ عليه تسرعه في الحكم على الاشخاص وعلى المسائل ، حتى ليقال انه لو استعمل بعض ذكائه واستغله مسبقا في معالجته المسائل التي تعرض عليه ، لما احتاج الى كل ذكائه لتبرير ما يقع فيه من اخطاء .

واعود الى الحديث في اعقاب مصرع الملك عبدالله ، فاقول ان وفـــودا عربية كثيرة جاءت الى عمان للاشتراك في تشييع جثمان الفقيد العظيم . وقـــد جاء الامير عبد الآله ونوري السعيد وصالح جبر عن العراق ، وأثار العراقيون مسألة محادثات كانت جرت بينهم وبين الملك الراحل ، حول قيام اتحاد بين البلدين ، وادعـــوا ان الرئيس الرفاعي على علم بذلك وان رسائل قد تبودلت في هذا الصدد . والواقع اني – من جهتي – ما زلت اجهل طبيعة تلك المحادثات

واجهـــل الصورة التي اقترحت لأن يقوم فيها ذلك الاتحاد . ولعـــل الرئيس الرفاعي كان على عـــلم بها ، ولكنها كتمت عنا رغم اننا كنا وزراء واصدقاء للملك الراحل .

ولقد جرى حديث عابر بيني وبين صالح جـــبر في هـــذا الموضوع ، فانتقدت العراقيين وقلت ان مجيئهم ليس للتعزية اذن وانما لأخذ الاردن ، فان كان الامر كذلك فقد اخطأوا التقدير واخطأوا اختيار الزمان . . واضفت اننا دعاة وحـــدة ولكن الوحدة تـــتم عن طريق محادثات رسمية يجريهـــا ممثلون عن البلـــدين ولا تتم بمثل هذه الطريقة التي ارتجلوها وسلكوهـــا . وتأثر صالح جبر من حديثي ، فنقله الى نوري السعيد والامير عبد الاله . . وكان رأيي هذا هو رأي رئيس الوزراء والوزراء كذلك . . فقد كان الملك عبدالله ما يزال جثة بين ايدينا لم ندفنه بعد ، وكانت اثارتهم الموضوع ابعد ما تكون عن الكياسة وحسن التقدير !...

وقبل دفن الملك عبدالله — وقد تأخر الدفن ثـــلاثة ايام — لاحظت ان محادثات كانت تدور بين توفيق ابو الهدى ونوري السعيد، فقلت في نفسي ان وراء الاكمة ما وراءها في تلك المحادثات مع توفيق !..

وبعد دفن جثمان المغفور له الملك عبدالله ، اجتمع مجلس الوزراء ، وافتتح الرئيس الرفاعي الكلام ، فتحدث عن الموقف الدقيق الذي نشأ نتيجة لمصرع الملك ، وذكر ان المصلحة والواجب يقضيان بالعمل على سد الفراغ ما امكن ، وانه لذلك يقترح ان تحشد كل الامكانيات لمواجهة الموقف ، ومن ذلك قيام وزارة جديدة تسند الرئاسة فيها الى احد الرؤساء الاربعة — ابراهيم ، توفيق ، سمير ، سعيد — ويشترك فيها سائرهم وبعض الشخصيات القوية الاخرى ، على اعتبار

ان اجراء كهذا من شأنه ان يساعد على الاستقرار وعلى حل المشاكل المقبلة . وما كان من الوزراء جميعا الا ان ثنوا على هذا الرأي ، وقلنا لدولتهانا نترك معالجة ذلك له وانه في حل من اشراك اي منا في الوزارة الجديدة .

غير ان الموقف تبدل في اليوم التالي . . فقد استطعت ان افهم ان الوزارة الجديدةسيكون رئيسها توفيق ابو الهدى ، وانه حر في اختيارزملائه الوزراء ، كما استطعت ان افهم ان نوري السعيد كان له أثر فعال في هذا التحول الـــذي طرأ على الموقف .

وفي المساء اجتمع مجلس الوزراء ، وتدارس موضوع الاستقالة وبالتالي قررها . . ومن طريف الاراء والتعليقات في ذلك الاجتماع ، ما قـــاله وزير الداخلية عباس مرزا اذ قال : « نحـــن الذين نصبنا الامير نايف وصياً عـــلى العرش فكيف نرفع اليه استقالتنا » ؟ ! ...

وقد طلبنا الى الرئيس الرفاعي انيعقد مؤتمراً صحفياً يبين فيه ناحية الحق الشرعي في تسنّم العرش ويوضح ويؤكد ان صاحب الحقهو ولي العهد الامير طلال ، وانه في حالة قيام مانع صحي يحول بينه وبين رئاسة الدولة ، فان الحق عندئذ ينتقل في خط مستقيم الى النجل الاكبر من انجال الامير طلال . . وكان قصدنا من ذلك واضحاً ، وهو الرد على بعض الاجتهادات القائلة بانه في حالة تعذر المناداة بالامير طلال ملكاً على البلاد فان الحق الشرعي في الملك ينتقل الى اخيه الامير نايف . ولقد كان الرفاعي موفقاً في مؤتمره ذاك كل التوفيق ، اذ ابرز هذه الجهة ووضحها مستشهداً بالدستور وبالقواعد الفقهية ، فلم يترك مجالا لمتقّول او متشكك .. وكان بارعاً في بيانه الى حد بعيد .

وتقدمت وزارتنا باستقالتها في اليوم التالي ، وعهد الى توفيق ابو الهدى بتأليف الوزارة ،فالفها مشركا معه السيد سعيد المفتي نائبا للرئيس ،والشنقيطي والمدادحة وسليمان طوقان وآخرين عن الضفة الغربية .

وكانت البلاد على ابواب انتخابات نيابية ، بعد حوالي شهر من استقالة وزارتنا ومجيء وزارة توفيق ابو الهدى ، فذهبت الى الكرك لأرشح نفسي في معركتها ، وكان مقدرا لها سلفا انها معركة حامية ..وقد زاملني فيها احمد الطراونة وجريس الهلسة ، فكنا قائمة ، وكان فلاح المدادحة على رأس القائمة المناوئة – وكان وزيرا للعدل وكانت الحكومة تؤيده وتدعمه وتتمنى فشلي . وكان أن أســاء السيد المدادحــه ظنه في المتصرف – وكان المرحوم عبد الرحيم الخطيب – فأتهمه بمما لأتي وطالب بنقله من الكرك فتم له ذلك ،ولكني تكلمت مع الامير نايف محتجاً على تصرف الحكومة مع متصرف بين يدي الانتخابات ، فلم يتردد الامير في الايعاز الى الحكومة باعادته فوراً الى الكرك ، فاعيد اليها .

كان المتصرف عازماً في بدايــة الامر على ان يقف منا موقفاً حيادياً صرفاً ، فلما كان ما كان من ظنة فيه ، جنــح الى مساعدتنا كل ما وسعته المساعــدة . على انه كان من الواضح ان مساعدته لم تكــن وحدها السبب في نجاحنا وسقوط القائمة الاخرى . فالانتخابات في الكرك تعتمد عــلى الجاه اولا ، وعلى المال ثانياً ، وقد توفر هذان العنصران في قائمتنا ، فنجحت في هذه الانتخابات ،التي شاءت الحكومــة ان تزوّر فيها لمصلحة وزيرهـــا ، ووقف المتصرف حائلا دون تنفيذ مشيئتها ... !

كانت سياسة توفيق ابو الهدى اذ ذاك ،تستهدف – كما كان يبدو لنا – قيام اتحاد بين الاردن والعراق . . . وكان يمهد لهذا بالاسلوب الديموقراطي وعن طريق ممثلي الامة . ومن اجل ذلك جاءت بعثة عراقية الى عمان ،واتصلت بتوفيق ابو الهدى وبعض المسؤولين معه ، وقدمت مساعدات انتخابية لكثيرين

من النواب من الضفة الغربية ، ولبعض نواب عمـــان ، ومن اجل ذلك بعث توفيق ابو الهدى بعوني عبد الهادي سفيرا الى القاهرة ليهيء لقيام هذا الاتحاد ، كما طلب من فرحان الشبيلات ان يكون سفيراً للاردن في العراق ليساعد على تحقيق المشروع .غير ان توفيق ابو الهدى تبدل فجأة . . . فما سر هذا التبدل؟ ! . .

لقد عاد توفيق ابو الهدى من زيارته للمملكة العربية السعودية يلبس كسوة عربية طويلة فضفاضه ! .. ولقد كان منظره غريباً بل ومنفراً ، وهو يرتدي العباءة ويعتمر مع نظارته الكوفية والعقال ! ... ما الذي حدث للرجل الرصين المتزمت ؟ ! . . . لقـــد عاد الرجل الى عمـــان مثقلا بالكثير من الهـــدايا الثمينة ! ... ان الذي كان محمولا عنـــه فكرة عـــدم القابلية للاستهواء قد استهواه عرض زائل ، وكان هذا الاستهواء نقطـــة التحول الخطيرة جداً ... نقطة انطلاقة الانقلاب المخيف في عبـــاءة رئيس الوزراء النحيف الضعيف ! ....

يضاف الى هذا ، ان الانكليز تلفتوا فوجدوا انفسهم في حرج متزايد حيال الرأي العام في الاردن والبلاد العربية وخارجها .. كان الرأي العام يتهمهم بانهم تآمروا على الامير طلال فاصطنعوا له قصة المرض اصطناعاً وزعموه عنه زعماً لا اساس له من الواقع ، في حين انه صحيح معافى وان لا مرض فيه ! .. وكان هذا التيار الظالم يلفح وجه بريطانيا بلا هوادة او رحمة ، وعبثا كان يحاول العاقل المتجرد عن الهوى ان يقرر الحقيقة ويدلل عليها .

هذا هو ما دفع توفيق ابو الهدى الى تغيير رأيه فجأة ، فظهر بمظهر المدافع عن حق الملك طلال في العرش ، واتهم غيره بالمؤامرة على طلال ! ... لقد انقلبت الحقائق بين عشية وضحاهـــا ، ولو لم يكن توفيق ابو الهدى لمـــا استطاع احد ان يتقحم هذه المغالطات التي كان لها أثرها في تاريخ الاردن .

لماذا جاءت البعثة العراقية ؟ ولماذا سهلت لها مهمتها فطافت في الوية الضفة الغربية كافة ، واتصلت باكثر المرشحين ؟!... لمـذا جيء بتوفيق ابو الهدى بدلا من سمير الرفاعي ؟!.... اليس العمل للوحدة امر مرغوب فيه ، ومفخرة تتوق اليها نفس كل عربي ؟ ثم اليس مخجلا ومعيباً ان تعمل لهذه الوحده ، وما هي الا طرفة عين حتى تنقلب فجأة وتغدو تعتبر العمل للوحدة خيانة تستحق العقوبة ؟! هكـذا تراقصت المفاهيم واختلت المقاييس في تلك الفترة العجيبة التي صاحبت الانتخابات في عام ١٩٥١ وتلتها بمدة وجيزة .

في مستهل تلك الفترة العجيبة ، جرت الانتخابات عندنا في الكرك ، في جو مفعم بالحماسة وبالتنافس على اشده ، ونجحت قائمتنا . والتـأم مجلس الأمة لأول مرة بعد انتهـاء الانتخابات ، وكان يضم نخبـة من رجالات الضفتين ، اذكر منهم سعيد المفتي وعبد الحليم النمر وخلوصي الخيري وموسى ناصر وانور الخطيب وحكمت المصري وعبد القادر الصالح وقدري طوقـان ووليد الشكعه ورشاد الخطيب واحمد الطراونه ووحيد العوران والريمـاوي ونعواس . . . وكانت باكورة اعمال هذا المجلس المناداة – بنـاء على طلب الحكومة – بطلال ملكاً دستورياً على الاردن ، وتثبيت ذلك بقرار صادر عن مجلس الأمة بهيئتيه الاعيان والنواب . وكان طلال وصل الى عمان من سويسرا في ذلك النهار ، وحضر تواً الى قاعة مجلس الأمـة فاقسم اليمين الدستورية بين تصفيق النواب والاعيان وهتافاتهم الحارة ! . . .

لقد كان الملك طلال يتمتع بشعبية لا نظير لها . كان يمثل من وجهة نظر الشعب ، معنى المقاومة ضد الانكليز وضد الاجانب . وقد ضاعف من شعبيته شعور الناس بأنه كان مغموط الحق في معاملته كأمير ولي للعهد ، وجاء اعتقاد الناس بانه لم يكن مريضاً وان قصة مرضه لم تكن سوى مسرحيـة مفتعلة من وضع الانكليز ، عاملا قوياً في ازدياد تلك الشعبية ، معززاً لها ايمـا تعزيز .



ولم يكن في مقدور احد مهما اوتي من قوة الحجة ، ان يغير من تفكير الناس او اتجاههم هـذا . فلقد زحفت الجماهير تستقبل الملك الجديد بالتهليل والتكبير وبدموع الفرح ، وكانت تصفق لتوفيق ابو الهدى وتهتف باسمه ! . . اوليس هو الذي حافظ على عرش طلال واعاد الى الشعب مليكه المحبوب ؟ ! . . .

وهنا برزت في الأفق انباء عن مؤامرة قيل انها كانت تحاك لمصلحة الامير نايف تارة ، ولمصلحة العراق تارة اخرى . . وذكرت اسماء «ابطال» المؤامرة على انهم الرفاعي والشريقي والعجلوني والشبيلات والمجالي ـ حابس وانا ـ في حين لم يكن بين هؤلاء جميعاً رابطة ما ، واقسم ان مجرد الجمع بينهم على ما اشيع وارجف كان مدعاة للدهشة البالغة وفي انفسهم بالذات ، ولكن ماذا تقول في اراجيف عمان ابان تلك الفترة الخصيبة الخيال ؟ ! . . .

قد يكون الامير نايف طمع في العرش لنفسه مثلا ، ولكنه كان ضد العراقيين على خط مستقيم . اما تفسير الشريقي للدستور ، بأنه في حالة تعذر المناداة بطلال ملكاً على البلاد فان الحق عندئذ يكون لاخيه نايف ، فقد كان مجرد رأي فقهي لرجل قانون... واما العجلوني فلا رابطة تربطه بهؤلاء لا من قريب ولا من بعيد ، واما حابس المجالي فقد كان قائداً لكتيبة الحرس الملكي ولا رأي له في المسائل السياسية ، ولعل مختلق الرواية رأى انه لا بد من عنصر عسكري في مجموعته فكان حابس المجالي . . واما سمير الرفاعي فقد كان له رأي واضح في هذا الموضوع اعلنه في مؤتمر صحفي ، ولا علاقة له الا بي وحدي من الوزارة ، واقل ما في نفسينا عتب على الامير نايف وعلى العراقيين معاً ! . . . وهكذا ، ومع ان الاشاعة لم تكن ذكية ، فقد راجت على كل لسان وتناقلتها صحف الشرق والغرب ! . . . اجل ، ان توفيق ابو الهدى لم يكن ذكياً بالقدر الذي كان يتبدى للمشتغلين بالسياسة في هذا البلد ! . . .

لقد اراد توفيق ابو الهدى من هذه الروايةان يبدو في مظهر المنقذ للعرش والمحب لطلال ، واراد ان يتستر على اندفاعه مع العراقيين في السياسة المشار اليها ، واخيراً — وهو المهم — اراد توفيق ابو الهدى ان يضرب نطاقاً حول الملك الجديد وان يقيم من دونه ستاراً حديدياً يحول بين الساسة وبين مقابلته والتحدث اليه ، ولقد كان هذا في نظره وسيلة ممتازة للثأر من هؤلاء الساسة والنكاية بهم ! . . .

ولم يلبث توفيق ان اجرى على وزارته تعديلا ، ادخل فيها معه عناصر جديدة ، مثل عبد الحليم النمر وموسى ناصر ، واخيراً ادخل خلوصي الخيري واحمد الطراونه . وعلى الرغم من ان الدستور لم يكن يقتضي الحكومة ان تتقدم من المجلس بطلب الثقة ، فقد تقدم ابو الهدى بطلبها ، ولقد نالها ، وبالاجماع ، بما فيهم انا ، فقد اضطررت لاعتبارات شكلية لان امنحه الثقة مشروطة بالوعد بتعديل الدستور ، بحيث يصبح ناصا على طرح الثقة بالحكومة في المجلس وغير ذلك.

كان توفيق ابو الهدى يحقد علي ، اذ كان يرى فيّ عدوه اللدود سمير الرفاعي. ازاء ذلك غاليت في المحافظة على الصداقة المتينة التي تربطني بالسيد الرفاعي. وكانت زياراتي له في بيته تزداد في حين تنكر له الكثيرون وانفضوا من حوله بل وانقطعوا عنه كلياً ، لأن توفيق ابو الهدى سخر رجال التحري بمطاردة كل من يزوره وبتقديم تقرير عنه . وبلغت نقمة توفيق على سمير وانتقامه منه ، ان تسبب في اقصاء نسيبه حيدر شكري عن مديرية البنك العثماني .

مساكين هؤلاء الذين يكتب لهم ان يكونوا رؤساء وزارات !.. انهم كالضرائر ، يضمرون الكيد لبعضهم ويطوون قلوبهم على سوء ، ويتظاهرون امام الناس بالصداقة ويقومون بعضهم لبعض بكل مجاملة . ولقد كتب لي ان اكون واحداً من هؤلاء ، غير اني والحمد لله لم أسلك مثل الذي وصفت عندهم من سلوك .

قلت ان توفيق ابو الهدى ضرب نطاقا حول الملك طلال واقام من دونه ستارا حديدياً ، ولقد استعان بوثنيــة حافظ عبدالهادي ، الذي عينه رئيساً للتشريفات ، على احكام ذلك النطاق . فعلى الرغم من صلتي بالقصر وبالعائلة المالكة ، وصداقتي للملك طلال نفسه ، فانني لم اتمكن من زيارته ومقابلته قبل مرور شهرين على طلب تلك المقابلة ! ...

وكانت الاخبار التي تتناهى الى اسماع الناس عن صحة الملك طلال متناقضة متضاربة : فالحـكومة تؤكد انه يتمتع بصحة جيدة ، وغيرهـا من المصادر المختلفة تؤكد غير ذلك . وبنتيجة هذه الاخبار من هنـا وهناك نشأت بلبلة في الرأي العام حول الملك وصحته . والواقع الذي لا مراء فيه ، ان الحكومة لعبت دوراً مخزيا في هذا الشأن ، اذ كان عليها ان تصارح الرأي العام بالحقيقة التي لا تضير المصارحة بها احداً ، الا توفيق ابو الهدى وحده . فـالمرض أمر يمكن حدوثه لكل انسان ، سواء اكان شخصاً عادياً ام ملكاً ، وليس عيباً ان يمرض الملك ، غير ان العيب ، كل العيب ، ان يخفي المسؤولون امر مرضه الذي هو حقيقة واقعة ، ولأن في ذلك من الخطورة ما قد يضيع معه مستقبل البلد ، وليس هذا بالامر الذي تنفع معه نكاية رئيس وزارة برئيس وزارة آخر !..

وقد استهتر توفيق ابو الهدى بسمعة الاردن وغامر بهـا يوم حمل الملك طلال على زيارة السعودية . لم يكن هناك من لا يقول بالتقارب الهاشمي السعودي وضرورتـه ، وليس من يعترض عـلى زيارة ملك عربي لملك عربي ، ولكن الاعتراض ينصب بشدة على حمل ملك مريض على زيارة مملكة اخرى يقابل فيها مسؤولين نقادا ، وهو الذي لا تسعفه حاله الصحية على القيام بزيارة ما ، ولا تسمح له حقيقة كرامته الملكية بان يفعل ذلك .

- ٢٦ -

سبق وذكرت انني واحمد الطراونة فزنا معا في النيابة عن الكرك . فلما عدنا الى عمان واستقرت بنا الحال ، افتتحنا مكتبا للمحاماة ، لم نكن نتوقع انه سيسجل ذلك النجاح السريع الذي حققه . .

وعلى انني كنت وزميلي الطراونه في المجلس على طرفي نقيض ، فقد كنت واياه على طرفي نقيض كذلك في المكتب . كان هو في المجلس يجامل الحكومة ويؤيدها وكنت انا احمل على الحكومـــة وانا صبها العداء وابتعد كل البعد عن مجاملتها . وكان هو في المكتب يبالغ في تقدير اجور الدعاوى التي نوكّل بها ويميل الى الزيادة فيها زيادة فاحشة ، وكنت انا اتوخى الاعتدال وما هو اقل من الاجر المعتدل ، مراعيـــا حالة الموكل وقيمة الدعوى . واخيرا تدخل بعض الاصدقاء وفرضوا حلا مرضيا نتحاشى معه مثل هذا الخلاف امام الموكلين على الاقل ، وطلبوا الي عدم التدخل في تقدير اتعاب المحاماة وفي سائر المسائل المالية . واشهد ان اسلوبه استطاع ان يوفر لنا مبلغا كبيرا من المال بحيث صرنا من اصحاب الودائـــع في البنوك ، ولاول مرة في حياتي حملت في جيبي دفتر شيكات ! .

على ان ما كان بيني وبين احمد من خلاف ، لم يمنع من ان نظل صديقين حميمين . فكنا نقضي النهار معا في المكتب ، وكنا وعائلاتنا معنا نقضي سهرة الليل معا كذلك في بيت احدنا او في زيارة لبعض الاصدقاء . ولست اشك في ان للسن المتقاربة وللبلدة الواحدة ، والمهنة الواحدة وصداقة المدرسة الواحدة ، الأثر الاكبر في ذلك الانسجـــام الشخصي الذي يشد اواصر الصداقة ويمتنها . حتى انه لما دخل الوزارة مع توفيق ابو الهدى ، لم تتأثر صداقتنا ، بـــل حافظنا على صلاتنا الشخصية كسابق عهدنا ، وقليلون جدا في هذا البلد هم الذين لا يفرقون بين الصداقة الشخصية والاراء السياسية ! .

كانت باكورة اعمال مجلس ١٩٥١ تعديل الدستور الاردني . فقد بدىء في وضع هذا التعديل في زمن الملك الراحل ، وظل مشروعا الى ان جاء عهد الملك طلال فاحيل المشروع الى مجلس الامة وتم التعديل . وكانت اللجنة القانونية تجتمع احيانا في بيتي لدراسة المشروع ، اذ كنت مقرر تلك اللجنة . فاسفر التعديل عن تقرير كثير من الامور التي كان يطالب بها نواب الامة وجماعات الشعب . فعقد المعاهدات واعلان الحرب والصلح والاتفاقيات التي يترتب عليها التزامات مالية اصبحت كلها من جملة حقوق مجلس الامة . واصبحت الحكومة مسؤولة امام مجلس النواب ، غير انه اشترط لاسقاطها توفر ثلثي اعضاء المجلس . ولم نتشدد في هذا ، بل قبلناه كخطوة في سبيل مرور الدستور الجديد في مراحله الدستورية وعلى قاعدة خذ وطالب . والواقع الذي لا جدال فيه ، ان تعديل الدستور كان من مفاخر عهد الملك طلال .

واخذ الطوق المضروب حول الملك طلال ، تنفذمنه اخبار عن اشتداد مرضه ، واخذت الامور تميل الى الدخول فيما لا يسر النفس الانسانية . ولم تمض فترة طويله حتى سافر الملك طلال لأوربا طلبا للعلاج .

وفي ٤ حزيران ١٩٥٢ دعي المجلس لاجتماع طارىء وبصورة غير رسمية ، اذ لم تكن الدورة قائمة ولم يدع المجلس الى الاجتماع بالطريقة الدستورية . وفعلا اجتمع المجلس ليستمع الى بيان رئيس الوزراء حول حاجة الملك الموجود في اوروبا الى المعالجة وامتناعه عن ذلك ، وكان الاجتماع سريا . وكنت الوحيد الذي تكلم في هذه الجلسة . وقد قصرت كلمتي على اننا استمعنا لبيان دولة الرئيس واحطنا علما بما جاء فيه ، وانه ما دامت الجلسة غير قانونية فاننا نكتفي بهذا الاعلان ، وان الحكومة وحدها تتحمل مسؤولية كل اجراء تتخذه . كما أثرت في هذه الجلسة قضية وجود رئيس الوزراء في هيئة النيابة عن العرش ، وان ذلك مخالف للدستور والفقه الدستوري ، فوعد رئيس الوزراء بتسوية هذه المسألة .

وفي ذات اليوم قرر مجلس الوزراء، نتيجة للتقارير الواردة اليه من اللجنة التي ارسلت خصيصاً للتوسل لدى الملك طلال بقبول مبدأ المعالجة – والمؤلفة من سعيد المفتي وسليمان طوقان – ونتيجة للتقارير الواردة اليه من سفيرنا في باريس الامير عبد المجيد حيدر، ان الملك طلال غير قادر على تولي سلطته الدستورية، ولهذا فقد تقرر تعيين « هيئة نيابة » من ابراهيم هاشم وعبد الرحمن الرشيدات وسليمان طوقان لممارسة صلاحيات الملك اثناء غيابه، على ان تستمر في ممارسة هذه الصلاحيات الى ان تثبت بالتقارير الطبية قدرة جلالته على تولي السلطة .

وقد حضر الامير عبد الاله الى عمان قبل اتخاذ هذا القرار ، وطالب بان يكون احد اعضاء البيت المالك رئيسا لهيئة النيابة ، وبلغني انه ذكر الامير زيد بن الحسين على انه العضو المقصود . ولكن الحكومة اعتذرت دون تلبية طلب الامير بحجة ان الدستور لا يساعد على ذلك . وقد كان هذا الاعتذار في محله ، ولكن المؤسف حقا ان توفيق ابو الهدى اذاع بيانا هاجم فيه الامير مهاجمة شديدة ، وكانت مقتضيات اداب السلوك ان تطوى القضية بالاعتذار عن طلب الامير وان تنتهي عند حد هذا الاعتذار .

وفي ١٠ آب ١٩٥٢ دعي مجلس الامة الى اجتماع طارىء في اليوم التالي. وفي صباح ذلك اليوم زارني احمد الطراونة – وكان وزيرا – بداعي انه عنّ له ان يتناول طعام الفطور معي في البيت . وعلى الفطور – ولم يكن معنا احد سوى زوجتي – ذكر لي ان الغرض من الاجتماع هو بحث حالة الملك طلال الصحية واتخاذ قرار حاسم في صددها وان هذا يتفق مع رأيي في الموضوع .

لقد كان توفيق ابو الهدى يتوخى ان ينال تأييد جميع اعضاء المجلس . فالموضوع على جانب عظيم من الاهمية والخطورة ، واية معارضة له تؤثر فيه تأثيرا كبيرا ، وليس هو بالمسألة القانونية التي تصح فيها المخالفة ولا تنكر معها المعارضة . . ان المسألة مسألة رئيس الدولة ! . . ولذلك طلب توفيق ابو الهدى من احمد الطراونه ان يسعى لكسب موافقتي ، وقد تعهد الطراونه له بهذه الموافقة على ما بدا لي . وكان جوابي للطراونه غير مرض ، فنهض عن الفطور غاضبا وذهب .

وذهبت الى البرلمان لحضور الجلسة ، وكانت سرية ، وكان البرلمان قد احيط بعدد غير قليل من الجند . وافتتح توفيق ابو الهدى الجلسة بخطاب استعرض فيه المراحل التي مر فيها الملك طلال والتطورات التي طرأت على صحته ، وانتهى الى القول بانه باسم الحكومة يعلن ان الملك اصبح غير قادر على ممارسة السلطة المنوطة به في الدستور ، وطلب ان يقرر المجلس انهاء ولاية الملك طلال ، ثم طلب رأي النواب والاعيان في الموضوع .

كان لقاء اعضاء مجلس الامة لقاء حزينا ، وكان الوجوم باديا على الوجوه قبل ان يتكلم رئيس الوزراء . . وبعد ان تكلم ما تكلم ران على المجلس صمت رهيب . ثم تطلع الجميع الي وكلهم يعتقد انني متكلم لا محالة ، وكانت اغلبيتهم بما فيها الحكومة تريد ان تسمع رأيي اولا ، ولذلك فقد كانت تنتظر كلمتي بلا ابطاء . . . واذكر اني وقفت ولم اقو على الكلام الا بعد لأي ، فلقد كانت الخواطر تزحم على اللسان قدرته على الانطلاق السريع ، وكان طيف طلال قد ملأ القاعة مهابة وجلالا كما ملأها أسى وحسرة . . . .

ولقد قلت اول ما قلت : اننا نواجه قضية هامة ودقيقة وخطيرة للغاية ، ولذلك يجب ان تعلو على خلافاتنا ومآخذنا على الحكومة . ثم قلت اننا لو اردنا استغلال هذا الموقف ضد اعمال الحكومة وتصرفاتها الشاذة ، من حبس الناس وترويعهم واستغلال المراكز ، لفعلنا ذلك بكل سهولة ، ولكننا وفي هذه الفترة بالذات ، نجد انفسنا ملزمين لان نعالج هذه القضية بعيداً عن المشاكل السياسية الاخرى . وأهبت بالمجلس ان لا تنفض جلسته قبل ان يتخذ قراره الحاسم في الموضوع ، وطالبت ان تدرس لجنة طبية التقارير المعطاة بحق الملك طلال حتى تلك الساعة ، وان ترفع هذه اللجنة في تقرير نهائي مبني على التقارير المشار اليها توصياتها الى المجلس ، وان يقبل المجلس تلك التوصيات . .

وعلى اثر كلمتي هذه ، نهض توفيق ابو الهدى وأثنى على موقفي وامتدح اقتراحي وشكرني كثيراً ، وتكلم بعده عدد من النواب والاعيان فايدوا اقتراحي . وتألفت لجنة من الشنقيطي وعبد الله الكليب وسعيد علاء الدين وانور الخطيب وفلاح المدادحة ووصفي مرزا ومحمد علي بدير وحكمت المصري ونفسي . . ووقع اختيار هذه اللجنة على ثلاثة اطباء ، هم الدكتور جميل التوتونجي والدكتور شوكت الساطي والدكتور شوكت المفتي ، لمراجعة التقارير الطبية والخروج منها برأى حاسم .

وبحضور اللجنة البرلمانية ، قدمت اللجنة الطبية تقريرها الذي جزمت فيه ان الملك طلال لا يستطيع ممارسة صلاحياته الدستورية ، وانه ليس يؤمل له الشفاء من مرضه . وبناء على هذا التقرير اتخذت اللجنة البرلمانية توصيتها للمجلس بانهاء ولاية الملك طلال ، والمناداة بالامير حسين ملكا دستورياً على المملكة الاردنية الهاشمية. وقد تألفت لجنة وصاية على العرش ، قوامها ابراهيم هاشم وسليمان طوقان وعبد الرحمن الرشيدات ، لتمارس صلاحيات الملك حسين الى ان يبلغ سن الرشد المنصوص عنها في الدستور ، وهي الثامنة عشرة .

وبعد تنصيب مجلس الوصاية هذا ، كان اهم ما لفت الانظار ، وابرز ما تصدّر الصحف وشغل الافكار ، البحث في ازمة الكيان الاردني. وكان اول من اثار البحث ، قدري طوقان عضو مجلس النواب آنذاك . فقد طلع على الناس بسلسلة من المقالات في جريدة فلسطين ، تحاورها عدد من الكتاب بين اخذ وردّ ، وتحبيذ وتفنيد .. واصبح الموضوع دعوة ما فتئت ان انتقلت الى قاعة البرلمان ، وكان ابرز فرسانها في البرلمان انور الخطيب وخلوصي الخيري ، كما كان عبد الله الريماي واغلب نواب الضفة الغربية من القائلين بها .

وتتلخص الدعوة في ان امكانيات الاردن المالية والاقتصادية ، لاتتناسب وجسامة المسؤولية الملقاة على عاتقه بعد نكبة فلسطين . وان الاعتماد كليا على معونات اجنبية امر ينطوي على مخـاطر جمة لا تخفى على احد . وان السبيل الوحيد لحل هذا الاشكال ، هو قيام اتحاد بين الاردن ودولة عربية كالعراق تستطيع مواردها ان تفي بحاجة دولة الاتحاد . هـذا فضلا عن ان الاتحاد او الوحدة ، ضرورة قومية تفرضها حاجات الامة ومصالحهـا وان الاتحاد بين دولتـين يعتبر خطوة هامة في تقريب الـوحدة الشاملة واستعجالها . وكان واضحا منذ اثارة هذه الدعوة انها تستهدف قيام اتحـاد بين الاردن والعراق ، على اعتبار ان امكانيات الاتحاد مع العراق متوفرة اكثر منها مع اي قطر آخر : فالارتباطات الخارجية لكلا البلدين واحدة ، والعائلتان المـالكتان في البلدين واحده ، ومـاديات العراق من الوفرة والقدرة بحيث تستطيع مواجهة نفقات الاتحاد ومتطلباته .

ولم يكن خافيـا ابداً ، ان الدعوة لاقت قبولا حسنا لدى الرأي العام الاردني ، وانها قوبلت في الضفة الغربيـة خاصة بحماسة في التحبيذ والتأييد بسبب مخاوف ابنائها من توسع اسرائيلي جديد عـلى حسابها . وكان من شأن هذه الدعوه وبسببها ، ان امتلأت اعمدة الصحف بالنقد المر الموجه للجامعة العربية وبعض دولها ، لانها كانت تقف حجر عثرة في سبيل تحقيق تلك الامنية الغالية .

واذكر ان توفيق ابو الهدى وقف في جلسة سرية ، مهدداً متوعداً بعض النواب الذين تشددوا في الترويج للدعوة والالحاح فيها ، بحجة ان « الاحوال » لا تسمح ببحث الموضوع !. وكان مما قاله في تلك الجلسة في معرض التهديـد والوعيد بانه يعتقد ان الحصانة البرلمانية لا تجدي المدرعين بهـا نفعاً ما دامت احكام قانون الدفاع تجيز لرئيس الوزراء اعتقال اي كان ولأية مدة يراها ، وضرب مثلا لذلك اعتقال علي ماهر عضو مجلس الشيوخ المصري في اثنـاء الدورة البرلمانية بمقتضى قانون الدفاع اياه !..

هكذا كانت الحال ، وكانت الصحف تطلع على النـــاس في كل يوم بفريق جديد من انصار الدعوة وبموجـــة جديده من تصريحاتهم ، كأن الأمر اصبح استفتاء شعبيا يتزاحم قـــادة الامة وممثلو الشعب عـــلى الادلاء بآرائهم فيه . عـــلى انني – من جهتي – وقفت حيال هذه الدعوة موقف المعتدل ، لا لأني لم اكن مؤمنا بضرورة هذا الاتحاد ، ولكن لاعتقادي ان اختيار الزمان له لم يكن موفقاً ، نظراً لأن رأس الدولة ما يزال اذ ذاك صغير السن وبعيداً عن الوطـــن ، وان وجود مجلس وصاية يقوم باعباء الملك ، يخشى معه ان تفسر الدعوة – وخاصة في الدول العربية الأخرى – على انها اهتبال لفرصة ، هي للمؤامرة على الوضع ، اكثر منها لتوكيده واستشراف افق اوسع وايسر له . فالمسألة في نظري كانت مسألة توقيت مغلوط ، وليست مسألة مبدأ مغلوط او دعوة غير مرغوب فيها .

– ٢٧ –

ولقد استشرى امر توفيق ابو الهدى بعد هذا . . وعلى الرغم من الوعود التي قطعها على نفسه بان يعيد النظر في سياسته ، وان لا يشتط في تطبيق احكام قانون الدفاع وان لا يبالغ في الاعتقالات وان يقوم بتطهير الجهاز الاداري .. فقد نقض جميع هذه الوعود ، ونفرت النفوس منه نفرة لا يفيد فيها شيء الا رجوعه عن غيه الدكتاتوري او تواريه عن مركز الاقتدار في الدولة . وقامت ضده على اثر ذلك معارضة قوية ، سواء في البرلمان او في خارج البرلمان . ومع ان هذه المعارضة كانت شيعاً شتى لا يربطها في لونها السياسي رابط ، فقدانصبت كلها واتفقت على شيء واحد ، وكان ذلك الشيء هو الحـــد من تصرفات توفيق ابو الهدى واستبعاده عن مركز القدرة ! ....

وفي ١١ تشرين الثاني ١٩٥٢ ، عقد مجلس النواب جلسة للثقة بالحكومة ، وقد تعمد بعض النواب في هذه الجلسة ان يتناوشوا توفيق ابو الهدى بقارص الكلام ، حتى وببذيء اللفظ ، لعلهم اذ يرمون بالقفاز في وجهه ، ويثيرونه بالاساءة اليه ، يحرجونه فيخرجوه . وكان بين المتكلمين عبد الله نعواس ، الذي لم تقتصر كلمته على مهاجمة رئيس الوزراء وحده ، بل تعدته الى مؤيديه من النواب . وهنا تصدى بعض نواب الضفة الشرقية – وفيهم حمد بن جازي والشراري البخيت – وخرجت من فم الشراري كلمة قدح بحق الفلسطينيين ، فاحتج نواب الضفة الغربية وانسحبوا من الجلسة ! ...

وهكذا ظهرت فجأة نذر انقسام المجلس الى ضفة شرقية وضفة غربية ، وخشيتُ مغبة هذا التطور الخطير ، فلحقتُ بالمنسحبين ومعي وحيد العوران ، وطمأنتهم الى ان الشراري البخيت لا ينطق باسم الضفة الشرقية وانه ان اساء الكلام فلا يعني ذلك ان نواب هذه الضفة يناصبونهم العداء ، وهدأت من ثائرتهم وتركت لهم اختيار الطريقة التي تتم بها تسوية هذه القضية المؤسفة .

وعادوا ، وتكلم انور الخطيب باسم المنسحبين فطالب باعتذار الحكومة عن الحادث ... ولقد كان طلباً غير محق . فالحكومة وان لم تكن راضية عن طريقة مهاجمة المعارضة لها ، الا انها لم تكن راضية كذلك عن العبارة التي قالها الشراري البخيت ، ولم تكن ترغب في النتيجة التي آل اليها النقاش . ولقد حاولت الحكومة ان تعرب بلسان رئيسها عن اسفها لما حدث ، غير ان المعارضة اشترطت اعتذارها ، الامر الذي رفضته الحكومة مخافة ان يفسر اعتذارها بانها شريكة في الحادث . فعادت المعارضة وانسحبت ، وجلها من نواب الضفة الغربية ، فاضطررت تحت تأثير ان لا يكون الانقسام على مستوى فلسطيني وأردني ، ان انسحب مع المنسحبين ، ورافقني في الانسحاب وحيد العوران مشاركاً في الاعتبار اياه . وذهبنا في الحال الى فندق (بارك) حيث عقدنا اجتماعاً خاصاً اتخذنا فيه عدة مقررات سنجيء على ذكرها .

كان رئيس المجلس النيابي آنذاك السيد حكمت المصري . وقد طلبت الحكومة ان تستمر الجلسة وان تعتبر قانونية ، على الرغم من انسحاب سبعة عشر نائبا من المجلس الذي يعد اربعين نائبا . وعلى الرغم من صراحة الدستور في ان النصاب القانوني لاية جلسة يعقدها المجلس يكون في ما لا يقل عن ثلثي عدد الاعضاء . فقد استمرت الجلسة ، وجرى التصويت على الثقة بالحكومة ، فنالتها طبعا باثنين وعشرين صوتا ! .

وبلغتنا نتيجة الجلسة ونحن في الفندق . وكان رجال الشرطة والتحري يحيطون بالفندق ويقفون في مداخله من كل ناحية . وتدارسنا الامر في كثير من الجد ، فقر قرارنا ، اولا وقبل كل شيء ، على تجميد النشاط الفردي لكل منا نحن المجتمعين ، وتقرير مبادىء ثابتة نلتف حولها وندعو لها دون سواها ، وعند تحقيقها ينفرط عقد هذا التكتل ، اذ اننا لم نكن حزبا بالمعنى الصحيح ، ولم نكن من لون سياسي واحد او مدرسة فكرية واحدة ، ثم توصلنا الى اتخاذ القرار التالي :

ان المعارضة التي تكن اعمق الولاء للعرش المفدى ، وتتمسك بوحدة الامة ومحاربة الذين يكيدون لهذه الوحدة ، تتبنى المطالب الآتية :—

١ — اقالة السيد توفيق ابو الهدى .

٢ — تعديل الدستور تعديلا يضمن للشعب السيطرة على مصيره ، وذلك بجعل الثقة الوزارية بالاكثرية العادية .

٣ — الغاء القوانين الاستثنائية ، وتعديل قانون الدفاع ووقف العمل به ، واطلاق سراح المعتقلين او احالتهم للقضاء .

٤ — مقاومة الغلاء والبطالة .

٥ — المحافظة على حقوق اللاجئين وحمايتهم من استبداد وكالة الغوث .

٦ — تطهير الجهاز الاداري .

واتخذنا ايضا القرار التالي :ـ

١ ـ قررت المعارضة تبني المطالب الشعبية الواردة في ميثاق المعارضة .

٢ ـ قررت تكوين مكتب يتألف من السادة : عبد القادر الصالح ، هزاع المجالي ، انور الخطيب ، يوسف عباس عمرو ، عبد الله الريماوي ، وعبد الفتاح درويش ، ويكون هزاع المجالي سكرتيرا لهذا المكتب .

٣ ـ قررت توجيه كتاب الى رئيس المجلس النيابي ، لرفعه الى مجلس الوصاية ، شرحت فيه تفاصيل جلسة المجلس النيابي في ١١ تشرين الثاني ١٩٥٢ .

٤ ـ قررت اعداد بيان يوجه الى الشعب ، لشرح الموقف قبل جلسة الثقة وبعدها وينطوي على ميثاق المعارضة والخطوات التي اتخذتها اثر ذلك.

وفي الصباح تقدمنا بعريضة الى هيئة الوصاية شرحنا فيها تفاصيل جلسة الثقة ، وما تخللها من ظواهر وملابسات تعتبرها المعارضة ماسة بوحدة الامة وتحمل الحكومة مسؤوليتها ، واشرنا الى المخالفة الدستورية في استمرار تلك الجلسة واعلانها نيل الثقة ، واختتمنا العريضة بالطلب من هيئة الوصاية ان تقيل الحكومة في الحال . وظهرت جريدة فلسطين في اليوم نفسه ، وفيها لي حديث جامع حول الموضوع ، كان له أثره في توضيح الازمة وتسبب الحكومة بها ، وان استقالة تلك الحكومة التي يرأسها توفيق ابو الهدى اصبحت ضرورة وطنية تحتمها مصلحة الامة ووحدة صفوفها .

وقامت مظاهرات في اكثر مدن الضفة الغربية ، مطالبة باقالة الحكومة ، فعمدت هذه الى اجراء سلسلة من الاعتقالات وتهديد عدد من النواب .. وكاد زمام الموقف يفلت من الجميع ، لولا بقية من امل في ان الوضع القائم اذ ذاك وضع مؤقت ، وان سلامة الوطن وسلامة الضفة الغربية بوجه خاص ، تستدعي الحكمة والتبصر ، وان جلالة الملك الشاب سيعود بعد فترة وجيزه وانه غير راض عن تلك الحكومة .

وتجمد الموقف السياسي بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ الاردن. فالحكومة وانصارها في جانب وعلى مبدأ « انصر اخاك ظالما ومظلوما » والمعارضة في الجانب الاخر ومعها غالبية الشعب والشارع . . وارتسم في جو البلد معنى الوضع على ان الحكومة تناصب شعبها العداء ، وانه ليس يرضي الشعب من تلك الحكومة الا تواريها عن صدر البلد . ومما زاد في حدة الموقف ودقته ، انه لم يكن للدولة رأس ياخذ بيده زمام المبادره ، ويقترح حلا للاشكال القائم ، اما باقصاء الحكومة او بحل البرلمان . ومجلس الوصاية منقسم على نفسه ، فسليمان طوقان مؤيد المعارضة ، وعبد الرحمن ارشيدات مؤيد الحكومة ، وابراهيم هاشم يلعب على الحبلين اذ يشجع الحكومة على المعارضة ويشجع المعارضة على الحكومة ! . . . وهكذا كانت الحال : قوتان متعادلتان تتأرجحان بلا راجح او مرجوح ، فلا الحكومة تخشى السقوط او الاقالة ، ولا البرلمان يخشى الحل ، وميزان السياسة متبلد متماد في تبلده ! . . . .

وكانت المعارضة تترقب اية هفوة من الحكومة ، لتتخذ منها قضية تثيرها في البرلمان وتمسح بالحكومة البلاط . وشاء سوء طالع الحكومة ، ان قررت تخفيض غلاء المعيشة للموظفين — وكان وزير المالية عبد الحليم النمر — فاتخذت المعارضة من هذه القضية قميص عثمان ، وتبنتها ، واضرب الموظفون ، فرضخت الحكومة في النتيجة لرغبة المعارضة .

واحس نواب من الموالين للحكومة اذ ذاك ، حاجتها اليهم ، فانتهزوها فرصة للاثراء على حساب الامة والوضع الشاذ ، واستغلوا الموقف ففرضوا ارادتهم على الوزارات والدوائر الحكومية ، فكانت « حبوب الاقراص » تمنح لهم المرة تلو المرة ، وذهب الجشع ببعضهم ان طالب بتركتورات وحتى باعطيات مالية . وقد اشتهر وصفي ميرزا في هذه الفترة بالكرم الحاتمي ، ولم يبخل وزميله في المجلس سليم البخيت ان يقدما الكثير من الهدايا لزملائهم نواب الموالاة . ولكم حدثني بعض هؤلاء النواب ، عن استجابة الحكومة لطلباتهم وقضاء مصالحهم ، حتى لقد جاهروني بانهم يتمنون ان نطلب طرح الثقة بالحكومة مرارا وتكرارا كي تتكرر الاعطيات والمنح .

ولقد بلغنا ذات مرة ، ان نواب لواء عجلون يقضون فترة «شم هواء» في لبنان ... فقدمنا طلبا لطرح الثقة بالحكومة ، وكلنا امل في ان يزيد عدد الذين يحجبون الثقة على عدد الذين يمنحونها الثقة .

وعقدت الجلسة ، ووضعنا يدنا على الزناد لنطلق قنبلة الحجب ، حتى اذا ما قاربت الجلسة دور التصويت ، تطلعنا فاذا المعجزة حدثت والمفاجأة تدلف الى قاعة المجلس... لقد دخل علينا نواب عجلون يرافقهم متصرف اربد عمران المعايطه ، وكان تولى استدعاءهم ليلا من بيروت فوصلوا اربد في الصباح ، وتحرك بهم توا الى البرلمان في عمان !...

واستدعاني ابو الهدى مرة الى رئاسة الوزراء ، وتطارحنا الحديث في مختلف الشؤون السياسية ، فتحدث طويلا عن موقف المعارضة وتزمتها ، وتحدثت طويلا عن موقف الحكومة وتزمتها كذلك .. ولقد افهمني بصورة جلية انه قادر على الاستمرار في الحكم الى الوقت الذي يشاؤه ، وان علاقته بالبيت المالك وعلاقته بالانكليز تتيحان له البقاء في الحكم ما يشاء ، وان يقترح الرئيس الذي يخلفه فيما اذا رغب في الاعتزال . وكان يقصد من وراء هذا كله اظهار نفوذه ومدى قوته ... ثم طلب مني ان انسحب من المعارضة وبين لي انه سيكون قادرا على هزيمتها لو اني افعل ذلك ، وانه سيهيئني لأن اخلفه في رئاسة الوزراء فيما بعد ، لانه يعتقد انني اهل لذلك ولأني موثوق لدى العائلة المالكة . ولقد اعتذرت بلباقة عن هذا العرض ، وقلت للرئيس الداهية ان المعارضة ضرورة للبلد ضرورة الحكومة له ، وانها – اي المعارضة – الوسيلة الوحيدة لاستقامة الحكم النيابي الديمقراطي .

ولقد حاولت حكومة ابو الهدى ، امتصاص نقمة الناس عليها ، بسبب استشراء الفساد في دوائر الحكومة ، فلجأت الى سن قانون لتطهير الجهاز الاداري ، غير ان القانون بقي حبرا على ورق ، وظل كبار المقصودين بهذا القانون في حماية الحكومة وانصارها . ولم يكن يطمئن النفوس ويهون عليها ، سوى قرب عودة الملك الشاب وتسلمه سلطاته الدستورية ، والاخبار التي كانت تسبقه الى عمان وتقول انه على علم تام بمجريات الامور في الاردن ، وانه عازم على تغيير الحكومة بمجرد وصوله وتوليه مقاليد الملك .

وعاد الملك حسين الى ارض الوطن ، بعد ان انهى دراسته في انكلترا ، واستقبل استقبالا منقطع النظير . ولقد كان الناس يتلهفون لهذه العودة ، وكأنها عودة الروح ، ويرجون على يدي العائد العزيز اول ما يرجون ، تغيير الحكومة القائمة واراحة البلد منها . وكان يصحب الملك الشاب سفيرنا في لندن السيد فوزي الملقي ، وكان واضحاً ان اختيار جلالته سيقع على الملقي لتأليف الحكومة الجديدة .

وقبل ٢ ايار ١٩٥٣ – وهو موعد تسلم الملك حسين سلطاته الدستورية – قام جلالته بسلسلة من الزيارات التفقدية لعدد من المدن والقرى وللخطوط الامامية . وكان الناس يستقبلونه احر استقبال ويفضون اليه بذات نفوسهم ، وكان هو يستمع الى احاديثهم والى انتقاداتهم للحكومة وهمساتهم عنها ، وباهتمام المتحسس بمسؤوليته العظمى كان يتفهم روح الشعب على حقيقتها .

وقمت ولفيف من الاخوان ، اذكر منهم سليمان النابلسي وشفيق الرشيدات بزيارة للملقي في فندق فيلادلفيا حيث كان يقيم في جناح خاص . وبعد حديث طويل اقتضته المجاملة ، وبعد تناول بضعة أقداح من الوسكي ، افضى الينا فوزي الملقي بأنه مكلف بتأليف الحكومة وانه يعتمد علينا وعلى مؤازرتنا بالدرجة الاولى لتحمل المسؤولية في سبيل خدمة البلد . واضاف انه رغم الصداقة التي تربطه معنا ، فقد مضى عليه سنتان بعيداً عن الوطن ، فلما عاد اليه عاد بروح الحيادي الذي لا يميل الى ان يستأثر اصدقاؤه بما هم له اهل ، ولذلك فسيعمد الى تأليف حكومة ائتلافية ، اي من المعارضة والموالاة معا .

وقد تولى سليمان النابلسي الاجابة ، وكان منفعلا ومتأثراً ، فقال انه لا ينصح بتأليف الحكومة والاعتماد فيها على المعارضة ، الا في حالة واحدة وهي ان تتبنى مطالب المعارضة ، وطلب الى الملقي ان يتحاشى اشراك اي وزير من الوزراء الموجودين في حكومة توفيق ابو الهدى او من ناصرهم سوى عبدالحلم النمر .

فابدى الملقي معارضته لهذا الرأي ، وقال انه اصدقاء في كلا الجانبين: المعارضة والموالاة ، وانه لم يكن طرفاً في النزاع القائم بينهما ، ولذلك فان من الحق وحفاظاً على وحدة الصف ، ان تكون حكومته على شكل ائتلاف يؤلف بين القلوب ويضع الجميع في خدمة الملك والشعب .

واصر النابلسي على رأيه ، فتدخلت في الموضوع واردت ان اهون الامر على الملقي ، فوعدت بتأييده شريطة ان يتبنى مطالب المعارضة وعلى ان يترك له امر اختيار الوزراء . وهنا انسحب النابلسي من المجلس ، فلحقت به وقد اخذ يصيح بأعلى صوته انه لا يوافقني على رأيي ، وان فوزي الملقي جاء ليجني ثمن معارضتنا دون ان يقدم اي جهد فيها ، ووصفه انه تلميذ نجيب لتوفيق ابو الهدى .

وفي اليوم التالي ، اجتمعنا في منتزه الرصيفة ، بدعوة من توفيق قطان على شرف الملقي . وفي الرصيفة اختلى بي فوزي الملقي جانبا ، وكلفني ان اكون معه وزيراً في وزارته ، وان اعينه على بعض رفاقي كانور الخطيب وحكمت المصري . وقد ابدى استعداده لتبني برنامج المعارضة ، وافضى الي بأنه سيكلف سعيد المفتي لان يكون في وزارته نائباً للرئيس . فقبلت ، واستدعيت المصري والخطيب ، فقبل الاول واعتذر الثاني مبدئيا .

ومما يجدر ذكره ، ان سليمان النابلسي كان ما ينفك في تلك الآونه يحذرني من الاندفاع في تأييد فوزي الملقي ، وكان يشرح لي طبيعة الرجل مذ كان زميلا له في الجامعة الاميركية ببيروت ، ويدلل على انه ليس ممن يعتمد عليه في عمل قيادي . ولم اكن اميل الى الاقتناع بما كان يسوقه لي سليمان من كلام له في قادم من لندن ليكون رئيساً للوزراء .

وذات ليلة هاتفني الملقي وطلب الي ان ازوره في الفندق . وذهبت اليه فاذا هو قد ألمت به وعكة صحية ، واذا به في موقف المتألم النافر من البلد ويقول لي انه عائد الى لندن . . فأستوضحته السبب في هذا التحول الطارىء ، فقال لي : الجماعة وضعوا (فيتو) على اسمك – ويعني بالجماعة القصر – فأجبته ان المسألة بسيطة وانني اعفيه من وعده بالمزاملة في وزارته ، وان عليه ان يثابر ليؤلف حكومته ، ووعدته بأن اؤيده وان اكون الى جانبـــه في الرأي ما دام سيتبنى مطالب المعارضة . وكان رائدي التخاص من توفيق ابو الهدى ووضع حـــد للسياسة التعسفية التي اتبعها في الآونة الاخيرة بوجه خاص . وما علمت ان « الفيتو » الذي اشار الملقي اليه ، كان من فعل توفيق ابو الهدى وانصاره ! .

وجاء اليوم الموعود، يوم ٢ ايار **١٩٥٣** ،وتسلم الحسين سلطاته الدستورية ، وتقدم ابو الهدى باستقالة حكومته وعهد الى الملقي أن يؤلف وزارته العتيدة ، وكانت مهيأة لا ينقصها سوى صدور المراسيم الشكلية .

وبعد ان حلف الملك حسين اليمين الدستورية في مجلس الامة ، دعانا الى تناول طعام الغداء في معيته في القصر .. وعلى المائدة كان توفيق ابو الهدى يتطلع نحوي ويبتسم ، وكأنه يريد ان يفهمني انه هو الذي حال دون دخولي الوزارة الجديدة . وكان من الجانب الآخر يشير الى فوزي الملقي بان يقوم بأمور معينة ويفعل كيت وكيت ، ولسان حاله يقـــول انظروا فها هو فوزي لا يخرج عن رأيي ! . . .

وانتهى الغداء ، وصدرت المراسيم بتأليف الحكومة الملقية . . . وقـــد دخلها سعيد المفتي نائباً للرئيس ، والدكتور حسين فخري الخالـــدي وزيراً للخارجية ، وبهجت التلهوني للداخلية ، وشفيق الرشيدات للعدلية والمواصلات. كما دخلها انور الخطيب وحكمت المصري وسليمان سكر وانسطاس حنانيـــا واحمد طوقان .

وتقدمت الحكومة الجديدة باول بيان لها توضح فيه سياستها ، فذهبت فيه شوطاً بعيداً تجاوز ما كانت المعارضة ضمنته بياناتها ومطالبها . ولأول مرة سمعنا حكومة تقول انها جاءت لتحكم وفقا لرغبات الشعب وحاجاته ، فنالت تأييداً وثقة جماعية . وشرعت مع الايام في اجراء سلسلة من التعديلات في القوانين الاستثنائية، اقرها مجلس الامة في الحال . كما شرعت تفرج عن المعتقلين فوجا فوجا ، واخرجت من الوظيفة بعض كبار الموظفين والحكام الاداريين ممن كانت تدور حولهم الاقاويل والشبهات وممن تعرضوا بسبب ذلك لنقمة الناس . وهكذا تبدلت الحال في البلاد ، وحلت الحرية والانطلاق محل الكبت والتزمت ، وحظيت الحكومة بالشعبية التي كان يرنو اليها الحاكمون .

- ٢٩ -

وفي هذه الاثناء سافرت الى الولايات المتحدة الاميركية في رحلة استطلاعية ، بدعوة من بعثة العمل الاميركيه ، لمشاهدة المراعي التي تنشأ في صحاريها القاحلة ، وللوقوف على عمليات حفظ التربة وغير ذلك من شؤون الزراعة الواسعة . وقد اتاحت لي هذه الزيارة مشاهدة معالم الحضارة الحديثة في العالم الجديدوالاستمتاع برؤيةاقصى ما وصل اليه الفن والعقل البشري من آيات..

ان كل ما تقع عليه العين في الولايات المتحدة يشيد بعظمة العقل البشري وقدرته على تسخير قوى الطبيعة لخدمة الانسان . فالبنايات الشاهقة ، والجسور الطويلة الواسعة ، والسدود الهائلة ، واعمار الصحراء ، ووسائل النقل الجبارة فوق شبكة المواصلات الواسعة الشاسعة ... كلها تحدث الزائر

عن مدى التطوير الزراعي والصناعي والاقتصادي الهائل في الولايات المتحدة . يضاف الى ذلك الحلول الاجتماعية التي تقوم على اساسها الحياة الاميركية الحديثة ، والتي تتعاون على ادائها والقيام بها مؤسسات شعبية وحكومية معاً . فالتأمين ضد العجز والمرض والعاهة وضد كل ما يمكن ان يشكو منه الانسان ، امر شائع في الولايات المتحدة . . ومشاكل العمل والعمال وحق العامل ، مسائل كلها اصبحت محلولة هناك .

كما اتاحت لي هذه الزيارة ، التي استغرقت شهرين تقريباً ، الاتصال بالشعب الاميركي البعيد عن واشنطن ونيويورك والمدن الكبرى . ان الشعب الاميركي شعب بسيط وكريم ، ويمتاز بطيبة نادرة ، وليس في الناس هناك من يحدثك عن السياسة وفي شؤونها ، واذا ما سألتهم شيئاً في امرها كان الجواب ان ذلك موكول الى الكونغرس ... « اننا نراقب ايا من الحزبين يقدم رخاء للولايات ، وفي كل اربع سنوات نعطي اصواتنا للحزب القادر على خدمة الشعب الاميركي اكثر من سواه » !...

ولقد لاحظت انهم يكثرون هناك من السؤال عن الشيوعية ومدى تغلغلها في الشرق ، ويناقشون في امرها على انها غول يهدد سعادتهم . فالشعب الاميركي في غالبيته العظمى عدو لدود للشيوعية والقائلين بها والضالعين معها . ومن حقه ان يكون كذلك ، فالذي ينعم بنظام معين يحقق له الخير والسعادة والحرية ، له الحق ملء الحق ان يعض على هذا النظام بالنواجذ ، تمسكاً به وكرهاً لغيره من الانظمة .

اما الصهيونية فليست بمحبوبة الشعب الاميركي كما يخيل للكثيرين منا ، غير ان الاميركيين مأخوذون بالدعاية لها في حين لا يعرفون شيئاً عن العرب . والدعاية في اميركا لها المقام الاول في كل شيء ، وتكاليفها واساليبها اقتدر اليهود عليها ولم يقتدر العرب . هذا ناهيك عن ان الكثرة من الاميركيين

كمسيحيين ، لديهم رواسب دينية من التوراة من شأنها الاعتقاد بأن اليهود لا بد وان يعودوا الى ارض الميعاد « فلسطين » ، وهم على هذا الاساس من العقيدة المترسبة يجادلونك بحق اليهود في فلسطين ! ...

لقد رافقني في هذه الرحلة عاكف الفايز ومحمد علي العجلوني والشيخ حمد بن جازي ومحمد المنور الحديد ويعقوب الساطي . وكان ان ترتب على هذا الخليط العجيب من الرفقاء، مفارقات طريفة ومضايقات اطرف !... فالكراهية على اشدها بين ابن جازي وبقية اعضاء الوفد ، والشجار كان يتوقع في كل ساعة بل وفي كل دقيقة . وشكراً لعاكف ومحمد المنور فقد ساعداني كثيرا على حل المشاكل الفجائية التي كانت تنتصب كالعفريت النشيط بين حمد وبقية الاعضاء ، كما ساعدا في « الحجز » بين اعضاء الوفد عموما مما كان يقع باستمرار . على اننا كنا في كل امسية نجلس جلسة خاصة نستعرض فيها حصيلة يومنا من المضايقات والمفارقات ، وكان استعراضها يهيء لنا جوا فريدا للتندّر والضحك ، وان كان شر البلية ما يضحك ! ... ولا يفوتني ان اذكر كيف نصب الشيخ حمد من نفسه استاذا في العربية اذ حاول ان يعلم لغة الضاد الى مرافقينا من الاميركان، فكان يذكر لهم مثلا كلمة (فرس) ويكررها على اعتبار ان التكرار وسيلة من وسائل الترسيخ في اذهان « الطلبة » ثم يصيح (حصان) بضم الحاء والمد الطويل فيها ونطقها بما يشبه مخارج اللفظ لدى الاطفال !.. وهكذا مفردات اخرى غير الفرس وغير ترجمتها بالحصان !...

وقررت ان اقطع رحلتي بسبب هذه المضايقات ، وكذلك قرر عاكف الفايز ومحمد المنور والشيخ حمد نفسه . . وعدنا بطريق لندن ، وقد قضينا فيها ليلة في ضيافة سليمان النابلسي الذي كان عين حديثا سفيرا للاردن لدى بلاط سانت جيمس. . وقد انزل الشيخ حمد في احد فنادق لندن ، حيث اخذ يصيح باصحاب الفندق ان يهيئوا له زيارة « بيك باشا » الذي كان قائداً للجيش قبل « كلوب باشا » . . غير ان ادارة الفندق لم تفهم كلمة واحدة مما اراد ، ولو انها فهمت لما استطاعت ان تجمعه بالكولونيل فردريك بيك باي حال . وعندها استطاع الشيخ ان يدرك انه في بلدة اكبر قليلا . . . من الرشاديه .

وعدنا الى عمان بطريق فرانكفورت – اسطنبول – بيروت ، وكان في استقبالنا عدد من الاهل والاصدقاء ، كما كان في استقبالنا سعيد المفتي نائب رئيس الوزراء وعدد من الوزراء . وفي الاستقبال بلغني انه تقرر اشراكي في الوزارة وزيرا للداخلية ، وان الامر موقوف على موافقتي . . وفي المساء زرت رئيس الوزراء الدكتور الملقي ، وكان مريضا فاعتذر بمرضه عن زيارتي ، وحدثني برغبته ورغبة جميع الاخوان في ان انضم اليهم ، ولم يمض يومان حتى تسلمت وزارة الداخلية . وكان قد مضى على الوزارة ستة شهور عندما اشتركت فيها .

– ٣٠ –

وحين اخذت اصرف شؤون وزارتي ، ادركت منذ اليوم الاول ان مركز الوزارة لم يكن قوياً كما كان في بدء عهدها . وسبب ذلك في رأيي ، انها اعلنت في مستهل هذا العهد عن اباحة الحريات العامة والافراج عن المعتقلين وتعديل القوانين الاستثنائية ، وقد نفذت معظم ما اعلنته من وعود . غير ان مطالب الناس عندنا لا حد لها ، ولا تتناول الممكنات وحسب ، بل تتعداها الى غير الممكنات وتلحف في طلبها على انها ممكنات . ولعل الانتقال فجأة من جو طابعه الكبت في كل شيء ، الى جو من الحرية التامة ، من شأنه ان يدفع بالكثيرين ولا سيما الذين يتصيدون في الماء العكر ، الى اساءة استعمال هذه الحرية ، والى استغلالها في اظهار معتقداتهم الحزبية الممنوعة بحكم القانون ، والى تنفيذ مآربهم الشخصية ومطامعهم التي كثيراً ما تكون واسعة بل وغير ممكنة التطبيق .

ثم ان الناس كانوا يطالبون بتحقيق عدد من المشاريع الاقتصادية لتمكننا من الاكتفاء الذاتي .. واين نحن من مرحلة الاكتفاء الذاتي ، في بلد شحيح الموارد وميزانية الدفاع فيه ضخمة ، وعلى كتفيه تقع اعباء القضية الفلسطينية ؟!. وهل بلدنا في وضعه الراهن ، ومهما حاولنـــا استغلال امكانياته الطبيعية والبشرية ، يمكن ان يكتب له الاكتفاء الذاتي ، الا اذا وقعت المعجزة المأمولة وتفجرت فيه ينابيع البترول !..

وطلبات أخرى انهالت علينا .. ان تغيير القيادة الانكليزية في الجيش العربي الاردني ، والغاء المعاهدة البريطانية ، مطلبان شعبيان كانا يدقان باب وزارتنا هذه في كل يوم مرارا .. وانهما لطلبان معقولان ، ولكنا كمسؤولين اين لنـــا تنفيذهما والمعاهدة البريطانية في ذلك الحين هي المعوّل عليه في موازنة ميزانيتنا ؟. لقد كان طالب الوظيفة او طالب القرض ، او المراجع العادي ، يذيل استدعاءه بطلب اغلاق المنافي الصحراوية ، ووقف العمل بقانون الدفاع ، وتغيير قيادة الجيش العربي !..

اما من حيث الافراج عن المعتقلين في « المنافي الصحراوية » فقد اكملت ما كانت شرعت الوزارة فيه من افراج ، والقيت بيانا في المجلس النيابي ، رداً على سؤال للنائب العزة ، ذكرت فيه ان معتقل الجفر الصحراوي قد اوصدت ابوابه ولم يبق فيه سجين واحد . واني لاقرر هنا ، ان في محيطنا مسائل معنوية تلعب دورها في المواضيع الهامة ، وان على رجل السياسة ان يراعي هذه المسائل ويأخذها بعين الاعتبار . ان اي سجين ، ولو انه لص زنيم ، يرسل الى الجفر ، يصبح في نظر الناس معتقلا سياسيا ويقضي الواجب « الوطني » بالمطالبة الملحة بالافــراج عنه ، بينما مئات المساجين بموجب القوانــين الاستثنائية تعج بهم سجون المملكة ، فلا يسأل عنهــم احد ولا يذكرهم الا اهلهم وذووهم . وعندي ان اكبر خطأ ترتكبه الحكومة الاردنية – ايــة حكومة – هو ارسال

المعتقلين الى سجن الجفر ، فذلك اعلان للناس بـل وتكليف لهم لان يقدموا الطلبات برقيا وكتابيا للافراج عنهم ، اليسوا من ضيوف الجفر المظلومين « في سبيل الوطن » ؟ ! . . بينما لو ان الحكومة – اية حكومة – اكتفت بسجن كل مستحق للسجن في بلاده ، لما وجدت صوتاً يرتفع مطالباً بالافراج عنه ، حتى اصوات اهله فانها تضيع ولا يسمع لها صدى .

ولقد شهدت عمان في تلك الآونة ، مظاهرة اشتركت فيها جميع المدارس ، وكانت احتجاجا على فصل عدد من الطلاب الاردنيين من الجامعة الاميركية ببيروت . فرافقت المظاهرة بنفسي ارقبها ، بعد ان طلبت الى رجال الامن الا يقوموا باي عمـل ضد المتظاهرين الا اذا اقتضت الحـال وبعد الحصول على موافقتي . وسارت المظـاهرة سيرها الصاخب ، فاخترقت شوارع العاصمة مصعـدة نحو السفارة اللبنانيـة في جبل عمـان ، حيث خطب عـدد من المتظاهرين مطالبين بعودة الطلبة المفصولين ، فوعد السفير بذلك .

وعادت جموع المتظاهرين ، بعد ان بدا ان المظاهرة استنفدت غرضها ، غير ان عاملا جديدا طرأ عليها . ذلك ان طالبات المدارس خرجن ولاول مرة يشتركن في المظاهرة ، فما ان شاهدهن الطلاب حتى اشتدت حماستهم ، وتأجج ضرام الجموع الملتهبة على الشوق الى الصخب والمبالغة فيه . غير انني استطعت ان اهدئها ، وطلبت الى المتظاهرين والمتظاهرات العودة الى مدارسهم بعـد ان انتهت مسألتهم بابداء شعورهم ومطالبهم امام السفارة اللبنانية ، فوعدوا بذلك وعند ما وصلت المظاهرة موقع الدوار الاول من الجبل ، عدت بعد ان طلبت من رجال الامن عدم التعرض لها . ولم البث ان استدرت اليها فجأة بعد ان سمعت طلقات نارية تنبعث منها تتبعها صيـاح وضجيج يصمان الاذان . واذا بي ارى معركة بالحجارة تدور بين المتظاهرين ورجال الامن . فصحت برجال الامن ان يكفوا عن اطلاق النار ارهابا وطلبت من المتظاهرين وقف الرمي بالحجارة .

وفي هذه الاثناء رأيت سيارات نقل كبيرة محملة جنودا تشق طريقها قادمة الى حيث المظاهرة ، مما اثار سخط المتظاهرين وهتافاتهم المدوية بسقوط الخونة وسقوط القيادة الانكليزية . فعرجت على اقرب هاتف ، وتحدثت الى رئيس الاركان وطلبت منه عدم انزال الجنود الى الشارع حالا وذكرته بان اجراء كهذا كان ينبغي له موافقتي . وهدأت ثائرة المتظاهرين بعد ان قلت لهم ان الجنود كانوا في مهمة في خارج المدينة وعادوا ، وليسوا يقصدون تفريق المظاهرة بالقوة كما بدا للمتظاهرين . وخفتت الاصوات التي كانت تنادي الجنود مطالبة اياهم بالثأر لقبية . ثم اخذت المظاهرة تتفرق من تلقاء نفسها واخذ الطلبة يعودون الى مدارسهم .

وكانت حدثت مجزرة قبية التي اقترفها اليهود ، وكنت اذ ذاك في رحلتي لاميركا . غير ان اثار تلك المجزرة كانت ما تزال عالقة في اذهان الناس الذين كانوا يحملون قيادة الجيش مسؤولية التقصير في الثأر للجريمة اليهودية النكراء .

وعدت الى مكتبي ، وأعددت مذكرة الى رئيس الوزراء ، شرحت فيها ظروف المظاهرة ، وكيف انها بدأت سلمية عادية ، وانها كادت تتفرق لولا اثارة المتظاهرين بتدخل رجال الجيش . واحتججت — كوزير للداخلية — على معالجة قضايا الامن من قبل الجيش او وزارة الدفاع ، وبينت رأيي بصراحة : وهو انه لا يجوز لاية هيئة اخرى غير وزارة الداخلية المسؤولة عن الامن الداخلي ، ان تتدخل في اجراءات الامن ، الا في حالة تأزم الموقف وعجز وزارة الداخلية عن تلافيه واخماده وطلبها التدخل من قبل الجيش . وقد اشرت في رسالتي الى ضرورة تزويد رجال الامن بالوسائل اللازمة لقمع المظاهرات عند الضرورة ، كخراطيم المياه والخوذ الفولاذية . ورفعت نسخة عن هذه المذكرة الى جلالة الملك ، وارسلت نسخة اخرى الى رئيس الاركان . وكانت سبباً في عدم رضا وزارة الدفاع وقيادة الجيش على وزارة الداخلية ، او بعبارة اصح ، على وزير الداخلية وعلى الحكومة كلها .

وتكاثر خصوم « حكومة الشعب »... سواء في البرلمـــان أو في خارج البرلمان ، وتألبت عليها قوى متعددة . فكان رئيس الديوان الملكي عبد الرحمن خليفة ، ووزير البلاط سليمان طوقان – وهو من كان اقترحه رئيس الوزراء ليكون عوناً للوزارة – وكانت مجموعة توفيق ابو الهدى ومجموعة سمير الرفاعي ؛ كل هؤلاء اخذوا يحملون على الحكومة ويحاولون تشويه اعمالها . ومما ساعد على اضعاف مركز الوزارة ان الصحف العقائدية المتطرفة انتهزت فرصة اطلاق الحريات العامة ، فاخذت تجهر « بعقائدها » وتدعو اليها . وكتبت جريدة الحياة البيروتية خبراً زعمت فيه ان الملك سعود حذر الملك حسين ، حين التقيا في بدنة ، من بعض الوزراء لانهم كانوا يشتغلون لصالح العراق ، فاحدث نشر هذا الخبر مجالا للنيل من الوزارة ، كما اعتبرت زيارة الملك لبدنة ولقاءه فيها بالملك سعود ، وما جرى في ذلك اللقاء من محادثات سياسية دون اصطحاب رئيس الوزراء او وزير الخارجية ، امراً يتصل بعدم الثقة بالوزارة .

فاجتمعت ببعض الوزراء ، ومنهم الخطيب والمصري وطوقان والرشيدات ، وتدارسنا الموقف في ضوء جميع الملابسات ، واستقر رأينا في النهاية على كتابة استقالاتنا ووضعها تحت تصرف رئيس الوزراء يفعل بها مايريد ، وذلك تحاشياً لاحراجه . وقابلته في الصباح وابلغته ما استقر عليه الرأي ، فابدى اسفه لهذه النتيجة ، ولكنه مع ذلك قدر لنا موقفنا ووعد بان يتخذ منه دافعاً لان يفاتح الملك به ويباحثه في نقاطه .

كان فوزي الملقي ذكيا وخطيباً ، ولقد نال حظاً وافراً من التعليم العالي ، وتقلب في عدة مراكز سياسية ، الا انه لم يكن يخرج عن رأي وزرائه ، حتى لقد قيل بهذا الصدد اذ ذاك « ان في الوزارة عشرة رؤساء ووزير واحـــد هو فوزي الملقي » ! ... وكان الملقي يفتخر بهذا الكلام ويعتز به على اساس انـــه استطاع ان يتعاون مع وزراء اقوياء ، بينما كان خصومه يعتـــبرون ان الملقي لم يكن يتمتع بمزايا الشخصية الآمرة القادرة على تولي القيادة .

واخذ الملقي يتباحث مع الملك كما ذكرنا وانتهت مباحثاته بتوجيه دعوة لمجلس الوزراء لتناول طعام الغداء على المائدة الملكية . وقيل في تبرير هذه الدعوة ، انها دليل على ثقة الملك بالوزارة وباعضائها جميعاً ، غير ان هذه المجاملة وما تلاها من مجاملات لم تكن لتخفي ما وراءها من رغبة في التخلص من الوزارة في اقرب فرصة ممكنة ... فلقد كانت هذه الظواهر اشبه بالعقاقير المسكنة منها بالعلاجات الناجعة ، وكان واضحا ان سياسة حكومته باطلاق الحريات العامة بمثل هذا التساهل وبغير ما تحوط ، افقدتها هيبة الحكم ، لان الفئات المتطرفة استغلت الوضع واستهترت بمعنى الدولة ، الامر الذى لم يعد يرضي المعنيين بالاستقرار ، اذ لا يعقل ان يسكتوا عن الانحراف او ان يسلموا بشرعية المبادىء الهدامة . وكان موقف البرلمان من شكره ممثل روسيا وسكوت الحكومة ازاء ذلك الموقف ، مادة لدى خصوم الوزارة للنيل منها ودمغها بالتطرف ونعتها بالشذوذ .

وتقدمت الحكومة برأ بوعدها بتعديل للدستور ، من شأنه جعل الثقة بالوزارة بالاكثرية المطلقة . فادخل المجلس تعديلا على مشروع التعديل المقدم اليه ، يقضي بان تتخلى الوزارة التي تعمد الى حل المجلس عن الحكم الى وزارة انتقالية تشرف على الانتخابات . ولقد كان لهذا التعديل اسوأ الاثر ، لا على الوزارة وانما على السياسة العامة في الاردن ، ذلك انه سابقة لا مثيل لها في الدساتير الاخرى ، وقد ترتبت عليه نتائج خطيرة قيدت الحكومات المتعاقبة وحدت من نشاطها الى حد كبير .

وبمناسبة يوم الجيش ، كتبت مجلة (الرأي) التي كان يصدرها القوميون العرب ، مقالا هاجمت فيه اوضاع الجيش وقيادته وسياسته ، فاصدرت امراً بمصادرة عدد المجلة ذاك . وفي اليوم التالي طلعت جريدة (النضال) لصاحبيها احمد الطراونة ورياض المفلح ، تهاجم شخص رئيس الوزراء بشكل جارح وتتهمه اتهامات خطيرة وغير لائقة . فدعي مجلس الوزراء لاجتماع عاجل ، تعرضت فيه لهجوم من بعض الزملاء ، بسبب عدم صدور امر مني بمصادرة عدد (النضال). فاوضحت ان سياسة الحكومة قائمة على اطلاق الحريات ، وانه

لا يجوز انتهاج سياسة كيفية تعرضنا للنقد . وكـــان من رأي بعض الوزراء ان الافضل للوزارة ان تستقيل من ان ترجع عن سياسة اختطتها وانتهجتهـــا . ووافق الجميع على ان ينقل فوزى الملقى الى الملك ، رغبـــة مجلس الوزراء بالاستقالة . ولكن الرئيس اخبرنا في اليوم التالي انه عرض على الملك رغبـــة مجلس الوزراء هذه فرفض جلالته قبول الاستقالة ! ...

كان ذلك في ١ ايار ١٩٥٤ . وفي ٢ ايار وكان يوم عطلة رسمية ، كنت مدعوا في جرش . وفيما انا في طريقي اليها ، اخذت اقرأ صحف اليوم ، فاذا بي اقع في جريدة الجهاد على مقال ادركت على الفور انه من قلم احد الوزراء وانه – اي المقال – سيكون القشة التي ستقصم ظهر الوزارة . وكان المقال يدور حول موقف الوزارة من بعض الاحداث العامة ، وصمودها في وجه الجهات الاستعمارية ورغبة هذه الجهات في التخلص منها . وعند مدخل جرش استوقفني شرطي السير وقال لي ان رئيس الوزراء يطلب الي العودة في الحال ، فادركت مغزى الطلب . ومن اقرب تلفون تكلمت مع الرئيس وسألته الخبر ، فكان جوابه انه طلب اليه تقديم الاستقالة وانه ينتظرني لذلك ، فقلت له عليك بتقديمها دونما حاجة لانتظاري او انتظار غيري من الوزراء . ولم يمض على هذه المكالمة ساعة او بعض الساعة – حتى سمعت من محطة اذاعتنا البلاغ الرسمي بتقديم الاستقالة وقبولها .

- ٣١ -

وعهد الى توفيق ابو الهدى بتأليف حكومة جديدة ، فتألفت واشترك فيها الطراونه والخيري والجيوسي وجمال طوقان والعكشه وغيرهم . وكانت عودة توفيق ابو الهدى الى الحكم نكسة تأثر لها الرأي العام اسوأ تأثر ، وتلقى الديوان الملكي سيلا من برقيات الاستنكار للحكومة الجديدة ، كما تلقى برقيات تهنئة بها . واصدر ابو الهدى بيانا ضمنه رغبته في احترام الحريات العامة ، واحترام التكتلات السياسية ، وعدم المساس بالقوانين التقدمية التي صدرت عن البرلمان.

وفي هذه الفترة بالذات ، قمنا بالدعوة لتأليف حزب سياسي بمبادىء مقررة للحيلولة دون ترك المجال للشيوعيين والبعثيين في العمل الحزبي المنظم . وتم لنا وضع مبادىء الحزب الجديد الذي اطلق عليه اسم (الحزب الوطني الاشتراكي) ، وتقدمنا بطلب رسمي الى وزارة الداخلية للترخيص للحزب وفقا للقانون الخاص بتنظيم الاحزاب . ولم تعترض السلطات الحكومية المختصة على قيام هذا الحزب ، نظراً لأن الموقعين على طلب الترخيص كانوا يؤلفون كتلة نيابية عددها ثلاثة عشر نائبا ، منهم عبد الحليم النمر وانور الخطيب وحكمت المصري وجريس هاسه ورشاد طوقان ورشاد الخطيب والعزة .. ونظرا لحاجة الحكومة لتأييد هؤلاء لها في المجلس . والى ذلك فقد كان هنـاك سبب آخر ، حدا بتوفيق ابو الهدى لان يوافق على قيام هذا الحزب ، وهو رغبته في قطـع الطريق على سمير الرفاعي الذي تقدم بطلب مماثل لتأليف حزب سياسي آخر باسم (حزب الامة) ضم نائبين بالاضافة الى اعضاء آخرين من خارج المجلس .

وتمت الموافقة على تـأليف الحزب الوطني الاشتراكي ، وكان واضحا ان من ابرز اهداف الحزب الدعوة الى الاتحاد العربي ، كما كان مفهوما لدى اعضائه انه يستحسن التأسيس للأتحاد الشامل باتحاد الاردن والعراق ، على اعتبار ان العراق هو البلد الوحيد ذو الامكانيات المادية الواسعة ، وان طبيعة علاقاته الخارجية كطبيعة علاقات الاردن ، وان العائلة الهاشمية هي المـالكة في كلا القطرين ، وان الجيش العراقي المدرب القوي يشكل مع الجيش العربي الأردني المدرب . جيشا موحداً مرهوب الجانب ... كل هذه العوامل – وقد اخـذها الحزب بعين الاعتبار – راى فيها ما يساعد على تحقيق هـذا الاتحاد وقدرته على البقاء والصمود ، على ان يعمل فيما بعد – وبعد الغاء المعاهدتين الاردنية البريطانية والعراقية البريطانيه – لتحقيق الاتحاد مع سوريا . اذ ان الحجة التي كانت تعترض مطالبة الحزب في الاتحاد مع سوريا اولا ، هي ان سوريا غير مرتبطة بأية التزامات خارجية غير عربية ، وان السوريين لا يقبلون باتحاد

يلزمهم بالتزاماتنا ، كما ان حالة سوريا المادية لا تساعدها على مواجهة حاجات الاردن المالية ، وانها تتاخم اسرائيل فهي – من جهة النظر الى اسرائيل – لا تزيد في اتحادها مع الاردن جديداً على ميزان القوى بيننا وبينها . بهذا المفهوم في الاتجاه السياسي تأسس الحزب ، وعهد الي أن اكون امين سره .

واستقال سليمان النابلسي من وظيفته كسفير للأردن في لندن وعاد الى عمان ، وكنا جميعاً في استقباله . وقدجرى البحث فيموضوع ادخاله فيالحزب فأعترض بعض الاعضاء على ذلك ، بحجة انه قد أخذ عليه تهاونه في الاتفاق المالي مع بريطانيا فهدر بذلك حقوقاً عربية ليست بالتي يستهان بها . اما انا فقد رأيت ان يتجاوز الاخوان عن هذه الحجة وأيدت انتسابه للحزب ودخوله فيه ، ولا سيما وان معظم المؤسسين كانوا فيما قبل كتلة واياه تنسب اليهوتسمى باسمه ، وان كانوا هم يسمون تلك الكتلة « الجبهة الوطنية » . . . وقد قرّ الرأي على التريث في هذا الشأن الى الوقت المناسب ! . . .

وتقدمت حكومة توفيق ابو الهدى ببيانها طالبة الثقة عليه من المجلس . وتضمن البيان عهدا قاطعا باحترام الحكومة حريات المواطنين العامة ومعارضتها القوية لكل فكرة ترمي الى الحد منهذه الحريات او تتعرض للقوانين التقدمية التي كان اقرها المجلس . فكانت سياسة الحكومة في بيانها ترديداً لسياسة « حكومة الشعب » التي سبقتها .

واجتمعنا لأول مرة – كحزب – في بيت صالح المعشر ، وحضر الاجتماع بعض الاعضاء من غير النواب كما حضره النائب سعيد المفتي من غير الاعضاء . وكان رأيي في ذلك الاجتماع تجنيب البلد هزة انتخابات جديدة تنشأ عن حل البرلمان ، اذ ان توفيق ابو الهدى سيعمد حتماً الى حله فيما اذا احس انه لن ينال ثقته ، وعليه فان المصلحة تقضي بان يقف نواب الحزب موقفاً معتدلا ، فيمتنعون عن التصويت ، وبذلك يتسنى للحكومة نيل الثقةدون

مساهمة الحزب فيها . وكان الاتفاق تاما على انه لا اعتراض البتة على سياسة الحكومة كما وردت في بيانها ، ولكن توفيق ابو الهدى بالذات لا يؤتمن على التقيد ببيانه . ولقد كان الاخوان على حق فيما ذهبوا اليه ، بالنسبة لما علمتهم التجارب مع توفيق ونزعته الدكتاتورية . كما كنت من جهتي على حق فيما ذهبت اليه ، في مطالبتي بالاعتدال ، لاني كنت متأكداً من انه سيقدم على حل البرلمان في حالة عدم منحه الثقة ، وبهذا تكون النتيجة العودة بالبلاد القهقرى الى حالة من عدم الاستقرار ليست في مصلحة احد .

وكأن المتطرفين في الحزب كانوا يريدون هذه النتيجة ، فهزم رأيي على الرغم من تأييد سعيد المفتي وعبد الحليم النمر ، وتقرر ان يقف الحزب موقف المعارض . واني لاشهد انه كان بين اعضاء الحزب من يرى رأيي وكما أيدني فيه المفتي والنمر ، لكنهم خجلوا ان يقال عنهم انهم ارادوا ممالأة الحكومة . وهكذا شعرت شعوراً عميقاً وفي بداية عملنا الحزبي بدكتاتورية النظام الحزبي وخطره في كثير من الاحيان على الاراء ذات الفائدة ؛ وأدركت ان الرأي السديد ان لم تكتب له الاكثرية فنصيبه الفشل ، وبالتالي فشل المصلحة الوطنية حقبة لا يعلم مداها الا الله .

ولم تتكبد الحكومة كبير عناء في تلقي خبر هذا القرار في نفس الليلة التي اتخذه الحزب فيها . وفي الصباح جاءتنا الرسل من قبل الحكومة ، وناشدتنا ان نجنب البلد هزة عنيفة قد تطيح بطمأنينتها وهنائها . وعقدنا اجتماعا اخر في بيت سعيد المفتي ، لاعادة النظر في الموضوع اياه ، وكان ذلك قبل موعد جلسة الثقة بساعات قليلة . ولكن اخواننا ، وبصورة خاصة اخواننا من الضفة الغربية ، اصروا على رأيهم ، فوافقناهم . وما هي الا ساعات حتى سمعنا بقرار حل البرلمان ! .

وكانت مفاجأة للذين تشددوا في رأيهم ، اذ كانوا يعتقدون ان الحكومة لن تلجأ الى الحل ، لانه يتنافى وروح الدستور والاعراف الفقهية . . . ولانه يكون عندئذ عملا مخجلا حقا . ذلك ان الحكومة تقدمت ببيانها من المجلس

وطلبت الثقة على اساسه ، فلا يجوز لها قبل ان تسمع رأي المجلس في هذا البيان ، ان تقرر حل المجلس ! . ولقد كان يكون صحيحا ما ذهب اليه الاخوان في اعتقادهم ، لو ان الحياة النيابية عندنا كانت سليمة النهج والتقاليد . لقد ضرب ابو الهدى باعتقادهم المثالي عرض الحائط ، عند ما اقدم على الحل قبل انعقاد جلسة الثقة بساعة واحدة ، ولم يجد نفعا قول القائلين بانه كان على الحكومة ان تستمع الى رأي نواب الامة في بيانها ، حتى اذا ما وقع حجب الثقة عنها لجأت الى رأس الدولة بطلب الحل . ولقد كان هذا هو المفروض ، ولكن لا فرضيات مع توفيق ابو الهدى . . بل واين كانت الفرضيات والنظريات الدستورية عندنا ومتى اتسقت معها حكومة من الحكومات الاردنية ؟ ! . اني اعيذ القارىء بقول من قال : « اقرأ تفرح جرب تحزن » ! .

على ان حكومة ابو الهدى تلك ، اصدرت بيانا بررت فيه اقدامها على طلب حل مجلس النواب ، واتهمت فيه النواب بتحقيق مكاسب مزرية ، وتعهدت امام الشعب بالتزام سياستها التي وردت في بيانها . غير انه لم يمض طويل وقت ، حتى تنكرت الحكومة لكل ما جاء في ذلك البيـــان . فعطلت الصحف الحزبية والمعارضة ، وحظرت الاجتماعات العامة واشتطت في الاعتقالات ، وكأنها ارادت ان تفرض هيبتها وسيطرتها سلفا على الناخبين ، وان توجه الانتخابات فيما بعد الوجهة التي تضمن لمرشحيها النجاح فيها .

- ٣٢ -

ولنعد قليلا الى الوراء . . الى ما بعد اسبوع أو اسبوعـــين من وصول النابلسي الى عمان عائدا من لندن . . فقد تبادل سليمان النابلسي الزيارة مع توفيق ابو الهدى واجرى اتصالات معه ، واخذ يقوم بدور حمامـــة السلام بيننا وبين

توفيق ابو الهدى، على ان يشترك بعضنا في الوزارة وان نقبل بانتخابات موجهة، بحيث توحد الجهود والعمل الحكومي لاقصاء العناصر المتطرفة – أي الشيوعيين والبعثيين – عن المجلس القادم .

وكان هذا الموضوع نقطة تجاذب في الاخذ والرد بين قادة الحزب وبعض اصدقائهم ،وكان هناك اجتماع حضره المفتي والملقي والنمر والرشيدات والنابلسي وانا ، وكان النابلسي مؤمنا بهذه النظرية يدافع عنها احر الدفاع ، كما كان مؤمنا بان تطورات مهمة قد تجري في الشرق العربي وانمن الضروري ان نعد انفسنا لها ونكرس لها جهدنا سلفا . وعارضه الرشيدات والنمر بشدة ، قائلين ان التزوير مهما كانت الدوافع اليه ومهما تحققت به المصلحة العامة فهو جريمة لا يجوز للحزب ان يرتكبها او يتواطأ عليها . وقامت مشادة كلامية حادة ، حالت دون المفتي والملقي وابداء رأييهما ، وان بدا لي منهما انهما كانا يميلان للأخذ برأي النابلسي . وقد استطعنا ان نعلم فيما بعد ان اتصالات النابلسي قد انقطعت وان المشروع قد طوي .

وعقدنا عدة اجتماعات لتدارس موضوع الانتخابات المقبلة ، وكنا نتجنب اتخاذ قرار حاسم ، انتظارا منا وترقبا للفرص . وقد طالبنا بضرورة تغيير الحكومة ، وان يعهد لحكومة انتقالية الاشراف على الانتخابات وفقا لروح الدستور ، الذي نصّ في تعديله على ان الوزارة التي تحل المجلس عليها ان تستقيل ، وانه وان لم تمر بعد السنة المشروط مرورها على التعديل ليسار بموجب أحكامه ، وكما هو نصها ، الا انا حاولنا التطبيق مسبقا فلم نفلح وباءت محاولاتنا بالفشل .

وكان آخر اجتماع لنا ، قبل موعد الانتخابات بشهر ، وكانت قوائم مرشحي الحكومة قد برزت وظهر في المعركة أناس لم يسبق لهم ان اقتحموا لجة الانتخابات ، وليس ليكتب لهم النجاح في حال من الاحوال لو أن

الانتخابات ستجري حرة نزيهة ، ولكنهم عزمـوا على دخول المعركة معتمدين على نفوذ الحكومة ومساعداتها . وكان من رأيي مقاطعة الانتخابات ، ولكن دكتاتورية النظام الحزبي فرضت علينا ضرورة خوض المعركة مهما تكن النتائج . ولقد قامت محاولات للجمع بيننا وبين البعثيين والشيوعيين ، على ان نخوض المعركة بتفاهم متبادل وتوزيع للمقاعد عادل ، غـير ان المعتدلين في الحزب رفضوا ذلك ، لأن الانتخابات عندنا تعتمد — اذا هي سلمت من تدخلات الحكومة — على الأشخاص والجاه والمال ، وحتى في انتخابات حرة فانه لن يكتب لحزب في الأردن ان ينجح بغير هذه الوسائل .

وخضت المعركة هذه المرة في الكرك ضد احمد الطراونة مرشح الحكومة . ولقد سارع فألف قائمة انتخابية ، وكنت اتوقع ان ندخل معا بحكم زمالتنا القديمة وصداقتنا ، وبحكم ان الصداقة شيء والعمل السياسي شيء آخر ، ولعل احمد قدر مسؤوليته تجاه الحكومة التي يعمل معها فسارع الى تأليف قائمته ولا ألومه . وألفت قائمة مناوئة لقائمته ، وكان همي اسقاطه ، وان كان همه هو ان ينجح ويسره ان انجح انا كذلك . ولقد سعى سعيا حثيثا في ان نتفق معا بترك كل منا قائمته ، غير ان اجراء كهذا تعذر لاعتبارات عشائرية . وكان ان خضنا المعركة في قائمتين ، ونجح ونجحت . وكنت الوحيد في الضفة الشرقية من الحزب نجح في الانتخابات ، وكان حكمت المصري الوحيد في الضفـة الغربية من الحزب نجح فيها .

لقد اخذت الحكومة اجراءات شتى لضمان نجاح قوائمها . وفي عمـان شعرت قائمة المفتي بلعبة التزوير ، فقاطعت الانتخابات منذ الصباح وسحبت مرشحيها . وقد ترتب على ذلك قيام مظاهرات في عمان ادت الى تدخل الجيش ووقوع عدد من القتلى يربو على الاربعين ، كما قامت مظاهرات في بعض المدن الاردنية اسفرت عن اعتقالات كثيرة . ولقـد أبت من الكرك الى عمان وهي ما تزال متلفعة بجو مكفهر متوتر ، وتقدمت الحكومـة باستقالتها الى الملك ، لتفسح المجال امام رأس الدولة لتكليف حكومة جديدة ، وكان الشائع ان توفيق سيعيد تأليفها . . .

وكنت في بيتي ، حين هاتفني سعيد المفتي ، فذهبت اليه في بيته ، وألفيت عنده فوزي الملقي ومحمد علي بدير . وقد اطلعنا المفتي على ان الملك طلبه لبراه في الساعة الرابعة من بعد الظهر وانه – اي المفتي – يريد ان يستطلع رأينا في الموضوع . وبعد حديث مبني على الاستنتاج ، توصلنا الى افتراض احد امرين : اولاهما ان الملك سيعهد اليه بتأليف الحكومة وفي هذه الحال عليه ان يقبل التكليف ، وثانيهما ان الملك سيطلب اليه الاشتراك في وزارة يؤلفها توفيق ابو الهدى . وفي هذه الحال عليه ان يبين محاذير عودة ابو الهدى الى الحكم ، فاذا اصر الملك على ذلك فان على المفتي ان يتشدد في ضرورة اشراك خمسة وزراء على الاقل من مؤيديه في الوزارة حتى يضمن لنفسه التساوي مع ابو الهدى ، وعندئذ ومن المؤكد ان توفيق ابو الهدى سيرفض هذا العرض ويكون رفضه هذا سبباً في عدول الملك عن تكليفه .

وذهب سعيد المفتي وقابل الملك ، ويبدو انه عندما سأله الملك عن الاوضاع ، ذكر الحل الثاني . . وعلى انه ليس هناك من يستطيع ان يجزم كيف بدىء الكلام ، غير ان الذي لا شك فيه ان المفتي لم يمانع في ان يشترك في وزارة يؤلفها توفيق ابو الهدى ، شريطة اشتراكي انا والملقي والمصري فيها . وكان ان وافق الملك للحال ، واستدعي فوزي الملقي الذي – بعد اخذ ورد على حد قوله – ترك الامر لجلالته يفعل ما يراه مناسباً . واستدعاني الملك فبينت له ما تم بيننا من تفاهم ، وانه ما دام المفتي والملقي وافقا على الاشتراك فاني اوافق عليه .

على هذا الاساس تم تكليف توفيق ابو الهدى بتأليف الوزارة : ان نتعاون معه . . وكان على توفيق ان يتغلب على موقف نجم عن هذا التطور ، وهو اقناع رفاقه المؤملين في الوزارة المتطلعين اليها ، ان يتركوا له حرية اختيار زملائه ، وقد كان سهلا عليه بعد ان اطلعهم على ما حدث ، ان يعذروه عما كانوا يؤملون ويرقبون .

وفي اليوم التالي، وبحضور جلالة الملك انعقد ما اسميته يوم ذاك باجتماع الاربعة الكبار: ابو الهدى والمفتي والملقي وانا ... وكان عتاب طويل وطريف، خرجنا بعده من مجلس الملك متفقين على التعاون، وحددنا موعداً للاجتماع في الرئاسة في مساء ذلك اليوم.

وكان ان اعتذر حكمت المصري عن دخول الوزارة، خشية نقمة نابلس عليه ... ولدى ذهابي الى الرئاسة لحضور الاجتماع المتفق عليه وجدت ان المفتي قد اعتذر، معللا اعتذاره بانه بعد إذ لم يفز في الانتخابات فان اشتراكه في الوزارة امر يتنافى وابسط قواعد الزمالة مع الذين شاركوه قائمته الانتخابية. كما ان الملقي اعتذر تبعاً للمفتي لأن قبوله كان مشروطاً بقبول المفتي.

ودخلت على توفيق، وتحدث الي فقال انه صدع لامر الملك فيما تم الاتفاق عليه، وان المفتي والملقي اعتذرا بعد قبول، وانه يرجوني ويرى جديراً بي ان اقابل جلالة الملك قبل ان اعتذر، وان جلالته ينتظرني لان الوضع اصبح حساساً بعد هذا التحول. وللحال صعدت الى القصر، وقابلت الملك فوجدته متأثراً لهذا العدول من المفتي والملقى.. وبيّن لي جلالته انه لولا اقتراح سعيد بتعاونه في وزارة يؤلفها توفيق لكان لجلالته رأي آخر! ... وحرت في الامر، ووجدت نفسي ازاء ذلك الظرف وازاء علاقتي الشخصية بالقصر، ملزماً بالبقاء على وعدي بالقبول، ودخلت وزارة توفيق هذه وزيراً للعدل. ودخلها الخيري والجيوسي ورياض المفلح ومصطفى خليفة.. وكانت مفاجأة لنا إدخال وليد صلاح وزيراً للخارجية والشؤون الاجتماعية فيها.. فقد كان من المحسوبين على سمير الرفاعي، وما كان لتوفيق ابو الهدى ان يشركه معه في الوزارة لولا اسباب ما زلت اجهلها، وكانت مفارقة من مفارقات ذلك العهد لا تخلو من طرافة!

وكنت اشترطت على توفيق ابو الهدى ان يتم الافراج عن المعتقلين من الحزب الوطني وسواهم . فما ان باشرت الوزارة اعمالها حتى طاب الي كوزير للعدل ، ان اعمل على الافراج عنهم ، فكان ذلك وتم الافراج عنهم جميعاً . غير انني وقد شعرت بحرج موقفي من رفاقي اعضاء الحزب ، على الرغم مما تبينوه من ظروف اكتنفت مشاركتي في هذه الوزارة ، فقد تقدمت باستقالتي من الحزب ، ولم تحل هذه الاستقالة دون استمرار علاقتي الوطيدة به ، واستمرار اجتماعاتنا وسهراتنا كالمعتاد . وكان واضحاً اني « نشاز » في وزارة توفيق ابو الهدى ، ولم يكن اشتراكي فيها ليخفي ميولي ومعتقداتي او يقطع صداقتي وصلتي باعضاء الحزب . وكان توفيق يراعي جانبي كثيراً ويداريني ، ولطالما وقف الى جانبي في الرأي ، كلما نشب خلاف في مجلس الوزراء حول موضوع من المواضيع المطروحة للبحث . وقد حدث وأمر وزير الداخلية باعتقال النابلسي وكان توفيق في بيروت ، ولدى عودته هددت بالاستقالة ان لم يفرج عن النابلسي ، وكادت تحصل ازمة وزارية لولا ان تدخل جلالة الملك فأمر بالافراج عن النابلسي وسويت المسألة .

ولعل ذكرى ميلاد ابنتي (زين) في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٥٤ سيظل مقترناً عندي بذكريات هذه الحقبة من تاريخ الاردن السياسي ، المليئة بالمفارقات الحافلة بالتطورات .

- ٣٣ -

واعود الى سياق الحديث ، لاقول ان الحكومة تقدمت من مجلس النواب ببيانها الوزاري ، وكان مفهوما وواضحا ان المجلس سيمنحها الثقة بالاجماع ، بعد ان تغيبت من صفوف النواب الوجوه التي لم تكن تلين لها مع حكومة توفيق قناة . ولقد وردت في البيان اشارة الى عزم الحكومة على تعديل المعاهدة

مع بريطانيا ، تعديلا من شأنه قلب المساعدة المالية البريطانية الى اجور ثابتة مقابل استعمال المطارات ، ومن شأنه تقرير زيادة المساعدة هذه ، وعلى ان تدفع لخزينة المملكة الاردنية مباشرة ، وان الحكومة ستقوم من اجل ذلك بمحادثات استطلاعية تسبر فيها غور النية البريطانية .

وسافر توفيق ابو الهدى الى لندن مصطحبا معه انور نسيبه ... وسافر جلالة الملك ليراقب عن كثب سير المحادثات ويوجهها . وعلى الرغم من ان غيري من الوزراء كان احق بالقيام باعمال رئيس الوزراء ، نظراً للاقدمية في الوزارة ، فقد صدر مرسوم ملكي بتخويلي هذا الحق خلال غيبة الرئيس .

ولم تسفر المحادثات عن نتائج مرضية . . فقد انتهت ببلاغ مشترك من الجانبين الاردني والبريطاني بانه تم تبادل وجهات النظر في المسائل التي تحتاج الى تعديل ، وان المباحثات النهائية ارجئت الى ما بعد التطورات المرتقبة في ذلك الحين في الشرق الاوسط وبصورة خاصة في العراق . حتى ان استقبال الوفد الاردني في لندن لم يكن مرضيا ، وعندما حاول توفيق ابو الهدى ان يتشدد في مطالبه ، تصدت له بعض الصحف الكبرى اللندنية فهاجمته واتهمته بأنه دكتاتور وانه زوّر الانتخابات وسفك الدماء في سبيل تزييف ارادة الشعب . لقد كان ابو الهدى « زلمتهم » ومعتمدهم الاول في الاردن ، فما الذي حدث حتى يحصل هذا الذي حصل ؟! . . انه منطق الاستعمار التقليدي ، فالاستعمار عندما يستنفذ غرضه من احد عملائه ، يتجاهله ويطرحه جانبا .. هكذا كان موقف بريطانيا من توفيق ابو الهدى .

ولقد عاد توفيق الى عمان حانقا على بريطانيا ، وعزم على الاستقالة لولا ان مجلس الوزراء نصحه بعدم ذلك . وكان من حديثه لنا حول ما دار بينه وبين الجانب البريطاني ، مما لم يتناوله البيان المشترك ، ان محادثات اجراها نوري السعيد مع البريطانيين ، بيّن فيها خططه المقبلة بالنسبة الى الشرق العربي

وان هناك خطة من خطتين ستعتمد في المستقبل ، فاما ان تقوم الجامعة العربية بعقد حلف دفاعي مع الغرب وعندئذ لا يكون ثمة حاجة الى عقد معاهدات واتفاقات ثنائية ، واما ان يقوم العراق بمفرده — في حالة تعذر قيام الجامعة بهذه الخطوة — بعمل ما في هذا السبيل للتخلص من معاهدته مع بريطانيا . ولهذا فان تعديل المعاهدة رهن بالنتائج التي ستسفر عنها محادثات نوري السعيد في المستقبل القريب .

وفي شباط ١٩٥٥ عقدت العراق وتركيا اتفاقهما المعروف بميثاق بغداد . وما ان اذيعت نصوص هـذا الاتفاق ، حتى قامت قيامة الصحافة والاذاعة المصرية ، ودعيت الجامعة العربية الى اجتماع عاجل للنظر في الموضوع . فقد كانت مصر ، ومعها السعودية ، ترى في ميثاق بغداد خروجا على ميثاق الجامعة العربية وزجا للبلاد العربية في الحرب الباردة القائمة بين المعسكرين العالميين وتعريضاً للسلامة العربية العامة الى الخطر في حالة قيام حرب بينهما .

هكذا كان منطق مصر ، وهي التي كانت مرتبطة حديثا باتفاقية الجلاء وفيهـا من النصوص ما يشكل خطراً أشد على سلامة البـلاد العربية ، في حالة الاعتداء على تركيا او على ايران ، اذ ان على مصر في هذه الحالة ان تضع كل مرافقها تحت تصرف القيادة البريطانية ، بما في ذلك القواعد القائمة على قناة السويس . وهذا هو منطق السعودية في ذلك الحين ، مع انها كانت مرتبطه باتفاق مـع الولايات المتحدة الاميركية ، منحت بموجبه تسهيلات واسعة لقـوات سلاح الجو الامـيركي . وكان رجل الحـكم في سوريا ورئيس وزرائها اذ ذاك فارس الخوري ، قد وقف موقفا معتدلا ، باعتبار ان مجاورة سوريا لتركيا ، وباعتبار ان العلاقات الاخوية بـين سوريا والعراق تفرضان على سوريا التأني والحذر .

اما الاردن فقد دعي مجلس وزرائه الى الاجتماع ، وكان ابو الهدى في بيروت يقضي اجازة قصيرة ، واستمعنا لبيانات وزير الخارجية وليد صلاح ، الذي رحب بالاتفاق العراقي التركي ، وطالب بتأييده ، وان تقف الاردن الى

جانبه . وكان رأي مجلس الوزراء استدعاء رئيسه والتشاور في الامر والتريث فيه . وعاد ابو الهدى من بيروت ، واجتمعنا فور عودته ، وتقرر ان نقف موقفا معتدلا نظراً لحاجتنا القصوى الى مساعدة جميع الدول العربية على السواء، فلا نسمح باتخاذ اية اجراءات ضد العراق بل نساعد ما امكن على رأب الصدع وتسوية القضية بالتي هي احسن .

وسافر الوفد الاردني الى القاهرة ، وكان برئاسة توفيق ابو الهدى وعضوية وليد صلاح . وقبل سفره اتصل وليد بالقائم بأعمال السفارة العراقيـــة صفاء الدين عبد الوهاب ، وقال له « اني صديقكم واني ذاهب الى القاهرة ، وانك لتعلم ان قضيتكم تعوزها الدعاية ، والدعاية تحتـــاج الى جهـــد » . . . وكان واضحاً ما يرمي اليه وليد صلاح من تلميحه هـــذا ! . . . وفي القاهرة سلك وفدنا سلوكاً معتدلا ، فلم يشجع على اتخاذ اية اجراءات بحق العراق ولم يناصر العراق في خطوته التي اتخذها . وهكذا كان سلوك سوريا ولبنان ، ولكن مصر والسعودية استمرتا في حملتهما ضد الميثاق . وعاد ابو الهدى تاركاً وليد صلاح في القاهرة ، فما كان من هذا الا ان قام بتصرفات مخالفة لتعليمات مجلس الوزراء وطالب في جلسة من الجلسات باخراج العراق من الجامعة . فخالفه عضو الوفد الاردني عوني عبد الهادي ، وهاجمه فيضي الاتاسي مندوب سوريا ، كما هاجمه نجيب الراوي مندوب العراق . وقد بلغنا هذا التصرف ، فابرق مجلس الوزراء لوليد صلاح بتعليمات مشددة ، بأن يعارض وفـــد الاردن كل محاولة لفرض عقوبات ضد العراق . ولعل الجهد الذي ألمع اليه وليد في حديثه مع صفاء الدين وقبل سفره الى القاهرة ، لم يأت من العراق وانما اتى من جهة غير عراقية ! ... وعلى اثر عودته من مصر ، حدثت مشادة بيني وبينه في مجلس الوزراء ، وبعد يومين من تلك المشادة ، زارني في البيت وكشف لي عن ان توفيق ابو الهدى هو الذي كان يشجعه من طرف خفي على سلوك ما سلك . وعلى الرغم من عدم تأكدي مما قال ، فاني لا استغرب هـــذا الموقف الغريب الذي ذكره وليد عن ابو الهدى ، نظراً للعلاقة القوية التي كانت تربطه بالسعودية .

كنت في هـــذه الاثناء اجتمع مع اصدقائي اقطـــاب الحزب الوطني ، وبالنابلسي بصورة خاصة ، وقد اصبح سكرتيراً للحزب بعد استقالتي منه ، وكان يلومني ويأخذ علي سكوتي عن تصرفات وليد صلاح وتأييده وجهةالنظر المصرية ـــ السعودية ضد العراق . وكان واضحاً كل الوضوح ان شعورالحزب الوطني كان مع العراق وليس مع اولئك .

وقـــد تداول مجلس الوزراء لعـــدة جلسات ، امر تقرير موقف ثابت للاردن ازاء الصراع القائم بين العراق من جهة وبين مصر والسعودية من جهة اخرى . فقر رأي المجلس على استطلاع رأي بريطانيا واميركا في الفوائد التي يمكن ان تقدماها للاردن في حالة انضمامه الى الميثاق ، فان كانت مغرية فبه ، وان لم تكن كذلك فكانك تحمدي او تستريحي . ولم يتريث رئيس الوزراء في استدعاء سفراء العراق وتركيا وبريطانيا والولايات المتحـــدة ، فاطلعهم على وجهة النظر الاردنية وطلب منهم ردود حكوماتهم في الموضوع .

- ٣٤ -

في هذه المرحلة تقرر ايفاد وفد لحضور مؤتمر باندونغ ، وذهبت ومعي وليد صلاح وعزمي النشاشيبي لنمثل الاردن في ذلك المؤتمر الآسيوي الافريقي ، ولم يكن الاردن اذ ذاك عضواً في هيئة الامم المتحدة ، فاتيح لنا حضور اجتماعات تضم دولا غير الدول العربيـــة التي تعودنا اجتماعاتها . . وكان الاثر الـــذي تركه في نفسي هذا المؤتمر الضخم ، هو انه كان اول اجتماع من نوعه بين دول كانت الى فترة قريبـــة مستعمرة تستعبدها دول اجنبية فاستطاعت ان تتخلص

من مساوىء الاستعمار وقبضة المستعمر ، لتجتمع وتتداول في حل مشاكلها بالدرجة الاولى ، ثم لتنظر في مشاكل العالم اجمع .

ولقد كان مؤتمر باندونغ مظاهرة رائعة لدول آسيا وافريقيا ، وهذا بحد ذاته نتيجة طيبة ونقطة تحول في تاريخ العلاقات الدولية . وكان من وجهة النظر العربية مجالا واسعا ومنبراً عالياً لشرح القضايا العربية ، في فلسطين والجزائر ومراكش .. ويكفي ان تكون اسرائيل منعت من حضوره والاشتراك فيه ، مجاملة للدول العربية ! . . . على ان مؤتمر باندونغ قد كشف النقاب عن تحمس بورما ورئيسها (ايونو) في الدفاع عن اسرائيل وكيف ناصرتها الهند في ذلك ونهرو بالذات ، وكيف ان باكستان وقفت ضدهما وأيدت العرب تأييدا لا شبهة فيه . كما ان هـذا المؤتمر كان فرصة مناسبة للصين الشيوعية ورئيسها (شوان لاى) للظهور لاول مرة في مؤتمر دولي مفتوح ، وقد نال اعجاب المؤتمرين ، وطغت شخصيته على شخصية نهرو ، ولا سيما عندما وقف موقف المناصر للعرب وللقضايا العربية .

اما من الناحية العملية ، فلم يسفر هذا المؤتمر عن قرارات ايجابية ، نظرا للخلاف في وجهات النظر بين اعضاء المؤتمر ، حول الاحلاف وعدمها وحول تحديد الدول الاستعمارية وغير الاستعمارية ، وحول التفريق العنصري ... وكل ما صدر عن المؤتمر ، توصيات وتمنيات سلقت سلقا في اليومين الاخيرين تحاشيا لفشل المؤتمر .

ومهما يكن من امر ، فقد اتيح لي في هـذا المؤتمر ان اجتمع بعدد من كبار الساسة والزعماء في آسيا وافريقيا . وفضلا عن الزعماء العرب ، ومن بينهم جمال عبد الناصر والامير فيصل آل سعود ، فقد اتيح لي ان التقي بوفد الصين الشعبية والهند وباكستان وايران والهند وتايلاند واندونسيا ، وان اتحدث اليهم واتعرف الى آرائهم ومعتقداتهم . وقد خرجت بنتيجة ما رأيت وماسمعت في هذا المؤتمر ، بيقيني ان هذا الشرق بامكانياته البشرية والمادية والعملية الضخمة لا بد ملاق مستقبلا أفضل .

وعدت من رحلتي تلك ، في حين ذهب بقية اعضاء الوفد الى اليابان . وقــد سلكت طريق بانكوك – بيروت . وفي بيروت استقبلتني زوجتي ، وحدثتني عما في عمان ... فاخبرتني انه تم تعيين الشيخ الشنقيطي قاضيا للقضاة ، وكنت اشغل هذا المنصب بالوكالة ، وطبيعي ان لا يكون لي ثمة اعتراض على اسنادهذا المنصب للشيخ وهو صديقي ، غير اني اعتبرت هذا التصرف من قبل الوزارة ورئيس الوزراء في اثناء غيابي ، عملا غير لائق وبعيدا عن الذوق ، إذ كان باستطاعتهم تأجيل ذلك الى ان اعود ، وعندئذ يكون الاجراء المذكور مما يسرني . واخبرتني زوجتي كذلك عن قيام بعض زملائي الوزراء بسلسلة من الاعمال المخالفة والضارة بسمعة الوزارة .

ووصلت عمان وانا مغيظ محنق ، بل ثائر على الوضع الوزاري بسبب ما بلغني .وزارني بعض اعضاء الحزب الوطني ،وطالبوني – كصديق – بالاستقالة . وبالفعل سطرت استقالتي ، وصعدت الى القصر وقابلت الملك ورجوته ان يتكرم بقبولها . ومع ان جلالته اشار علي بالتريث والاناة ، فقداصررت على التماسي من جلالته قبول الاستقالة ، وكانت كما يلي نصا :–

« عزيزي توفيق باشا ،

تعلمون دولتكم الظروف التي رافقت اشتراكي في الوزارة : ومــع اني كنت اؤمل ان يؤدي مثل هذا التعاون الى خدمة الصالح العــام وفق المبادىء الواردة في كتاب التكليف السامي والبيان الوزاري ، غير اني لاحظت ولا سيما في الآونه الاخيرة ان كثيراً من التصرفات التي اكتنفت سير العمل الوزاري قد اضرت بهيبة الحكم وكرامته واساءت الى سمعة الحكومة بمجموعها .

وحيث انني اعتبر مثل هذه التصرفات خروجا عــلى المنهاج الوزاري ، لهذا فاني ارجو دولتــكم التوسل لدى جــلالة الملك المعظم لاعفائي من منصب الوزارة مع التأكيد بأني ساظل الخادم الوفي لجلالته وللوطن .

واني لانتهز هذه المناسبة لاعرب عن عظيم امتناني للثقة التي كنتم تبادلوني اياها طيلة فترة تعاوننا مما له اطيب الأثر في نفسي . »

وحاول توفيق ابو الهدى ان يثنيني عن استقالتي هـذه ، وذلك باغرائه اياي بالوعد المعزز بالقسم انه سينصبني نائبا له وانسيهيء لي الرئاسة من بعده. غـير ان اصراري على الاستقالة كان حاسما ، واكتفيت بتطييب خاطره ان بادلته العهد بان نظل صديقين لا يؤثر في صداقتنا اختلاف في نزعة سياسية او تباين في نهج الحياة العامة .

ولم يكن توفيق ابو الهدى مجرد رجل عادي من رجال السياسة ، لقـد كان رجل حكم ... رجل دولة بكل ما في ذلك من معنى . كان ذكيا خارق الذكاء مع طبيعة متأنية ، وميل الى التريث والتمحيص . لم يكن يأنف من ان يقول انه غير ملم بهذه القضية او تلك ، وانه لا يستطيع الاجابة عنها أو البت فيها قبل درسها ... وكان اذا توفر على درسها ، تفهم اعماقها وخرج منهـا بالنتيجة المنطقية العادلة المنطبقة على حقيقتها . ولعل عيبه الكبير انه كان انعزاليا يعيش في فلك خاص به ، لا يكاد يزور او يزار ،مما سببله الكثير من المتاعب والكثير من نقمة الناس عليه . ولا استبعد ان تكون انعزاليته تلك ، هي السبب في نورستانيته التي ظهرت عليه ولا سيما بعد الذي طرأ على صحته من مرض في اخر ايامه ، مما اثر في نفسيته ، وفي كثير من الاحيـان في معاملاته . وكان يؤخذ عليه انه حقود وان في اعماقه نزعة مخيفة للدكتاتورية والتسلط ، ولقـد حاول في الفترة الاخيرة من ايام حكمه ان يكون ديمقراطي النهج ، غير ان تلك صناعة في الحـكم فاتته ولم يستطع ان يتقنها لانه لم يشب عليها ولم يمارسها مدة حكمه الطويل المتكرر . ولقد اشتهر بالنزاهة ، ولعله كان نزيها الى ان خرق قدسية هذه الصفة في الفترة الاخيرة من حياته .

وحدث ان قام سعيد المفتي ، يرافقه سليمان النابلسي وحكمت المصري وسعيد علاء الدين وعيسى عقل ، بزيارة للعراق تلبية لدعوة الحكومة العراقية للاشتراك في مهرجانات تسليم مطار الحبانية . فاجرى بعض اعضاء الوفد هناك اتصالات ومحادثات شخصية مع نوري السعيد ، بغية التأثير في الانكليز ليتخلوا عن توفيق أبو الهدى بعد ان ثبت تعاونه مع السعودية .

والذي لا سبيل الى نكرانه ، ان النفوذ السعودي اصبح يظهر في البلد جلياً . وصار سفير السعودية (الكحيمي) يرى في جبل عمان وفي المتنزهات ، ومن حوله عدد كبير من رجال الدولة واصحاب النفوذ . وكان مدهشاً حقاً ، ان يتم لقاء حار بين سمير الرفاعي وتوفيق ابو الهدى ، بعد ان سلخا في عداوتهما التقليدية قرابة ربع قرن ، وكان الكحيمي هو العامل على هذا اللقاء واستطاع ان يقارب بين الرجلين فيما يشبه الهدنة على الاقل .

ولقد سألت سمير الرفاعي مرة عن سر هذا التقارب ، فقال انها مجرد صدفة وان رأيي في توفيق ابو الهدى لم يتغير ، وسألت توفيق ابو الهدى السؤال نفسه فاجاب بالمقابلة الجواب نفسه . واني اؤكد ان ما قالاه كان يعبر عن حقيقة شعورهما ، ولكن ذلك لم يحل دون التقائهما عند نقطة معينة ، هي صداقتهما للشيخ عبد العزيز الكحيمي ! ...

واعود الى استقالتي من وزارة توفيق ابو الهدى ، لأذكر أنها فتحت باب الاشاعات حول الوزارة على مصراعيه ، وصار يسمع في الشارع ان الملك غير راض عنها وعن تصرفاتها منذ البداية ... والواقع ان جلالته اخذ يميل الى استعجال استقالة الحكومة منذ يوم استقالتي منها ، ولم يكن يخفي استياءه واشمئزازه من حوادث القتل التي رافقت الانتخابات النيابية قبيل تأليف هذه الوزارة . وقد شعر توفيق ابو الهدى بما يعتلج في نفس الملك من سياق حديث جلالته معه ، فقدم استقالته بالفعل .

- ٣٥ -

وعهد جلالة الملك لسعيد المفتي تأليف الوزارة ، وكـــان واضحاً اني سأكون عضواً فيها . . وتألفت ، واشترك فيها معي كل من فرحان الشبيلات وعلي حسنا وسعيد علاء الدين وبشارة غصيب وعلي الهنداوي والدكتور التوتونجي وسمعان داود وعزمي النشاشيبي . وكنت فيها وزيراً للداخلية .

وقد حدث يوم استقالة وزارة توفيق ابو الهدى ، ان ادى الشريف ناصر وعدد من رجال الجالية الحجازية في عمان ، صلاة الغائب في الجـــامع الحسيني عن ارواح حجازيين قيل انهم اعدموا في السعودية . وبعد ايام وفيما انـــا في اربد لحل بعض قضايا دم مستعصية ، اذ برئيس الوزراء يتصل بي ويستدعيني الى عمان فوراً . وما ان عدت وقابلته حتى اطلعني على مذكرة احتجاج سعودية قام بتقديمها الكحيمي ، بشأن تلك الصلاة التي قام بها الشريف ناصر . وقد تضمنت هذه المذكرة الاحتجاجية تعريضاً بجلالة الملك والبيت المالك ، كمـــا تضمنت الفاظاً وعبارات لا يليق ان توجهها حكومة الى حكومة صديقـــة ، وانطوت على إشارة صريحة بتحميل حكومة المفتي مسؤولية الحادث .

وصحيح ان ما قام به الشريف ناصر كان عملا يتنافى والصداقة القائمة بين البيتين والبلدين ، ولكن الشريف ناصر رجل غير مسؤول . وكان يكفي لفت نظر رئيس الوزراء شفويا ، لكي تسوى القضية بابداء الاسف للحادث ، فلم هذه المذكرة الغريبة ؟ ! .. ثم ان حكومتنا — حكومة المفتي — لم تكن قد تألفت يوم الحادث لتتحمل مسؤوليته على فرض ترتب اية مسؤولية ، ففيم هذا التجني عليها ؟ ! .. لقد كان واضحاً ان السفير السعودي واصدقاءه من الاردنيين أرادوا احراج الحكومة وهي في مستهل عهدها فكانت هذه المذكرة الاحتجاجية المؤسفة !

ودعونا مجلس الوزراء للانعقاد وجرى النظر في موضوع المذكرة، وكان رأي اكثر الزملاء ان نرفع لجلالة الملك نبأ الحادث على اساس انه يخصه بالدرجة الاولى وننتظر توجيهاته، فأعترضت على هذا الرأي وبينت ان تصرفا كهذا يعتبر احراجا للملك، ثم ان المذكرة موجهة للحكومة ومن اختصاصها معالجة الامر، واننا كحكومة تحرص على سمعتها وسمعة رأس الدولة من واجبنا ان نقرر رفض المذكرة واعادتها. فاذا لم ترض هذه السياسة جلالة الملك عندئذ تستقيل حكومتنا وينتهي واجبنا. وقد أيدني الوزراء في رأيي هذا الا انهم حملوني مسؤولية عتب الملك فيما لو عتب.

وللحال جرى تصوير الوثيقة واعادتها للسفير مع بيان اسباب رفض المذكرة، وكانت صدمة لم يكن الكحيمي يتوقعها. وكان الملك في رحلة الى اسبانيا وبريطانيا بدأها على أثر تأليف الوزارة واستصحب في معيته فوزي الملقي وبهجت التلهوني والشريف ناصر. فأبرقنا الى جلالته بخلاصة القضية، وجاءنا الرد الملكي بالشكر والتقدير لموقفنا المشرف.

ولقد كانت هذه الحادثة سببا في مطالبتنا بسحب السفير الكحيمي. ولم يمض طويل وقت حتى تم نقله من عمان الى بيروت.

وفيما يتعلق بزيارة الملك لبريطانيا، فقد اجرى هناك محادثات حول زيادة المعونة المالية وتسليح الجيش وتزويده بسرب من الطائرات المقاتلة الحديثة. وقد وعدت الحكومة البريطانية بتحقيق المطلب الاردني بعد اجراء محادثات بين الحكومتين، تستهدف اعادة النظر في المعاهدة على ضوء ما حدث في الشرق الاوسط من تطورات، كعقد اتفاقية الجلاء مع مصر وقيام ميثاق بغداد.

كانت حكومتنا تتمتع بسمعة طيبة، وكان رئيسها يشكل عنصر طمأنينة بالنسبة للجميع شأنه في كل الحكومات التي ألفها. وهو يمتاز بطيبة وبساطة تقربانه للنفس، كما ان بيته ومكتبه مفتوحان للجميع. غير انه يمتاز كذلك بقابلية عجيبة للانفلونزا، وكثيراً ما كانت تقعده هذه الوافدة، ولا سيما في ايام الشتاء،

عن العمل ، مما كان يضطرني للقيام باعباء مهمته . . ولست اعرف سبباً معقولا لما كان الناس يقولونه عن وزارتنا هذه من انها وزارة ادارية ، اذ كنا نعالج كل المسائل السياسية ، الداخلية منها والخارجية ، ونصّرفها تصريف ايةوزارة لها ، ولم تكن وزارتنا هذه مختصة بالادارة ، ولا كانت الوزارات قبلها مختصة بالفلك والكيمياء .. ولله في خلقه شؤون .

وكان الرئيس المفتي يحقد على البرلمان ، وينظر اليه نظرة المستخف به وبالظروف التي تمخضت عنه ... وكان منذ اليوم الاول الذي تألفت فيه وزارته ، يحمل في جيبه ارادة ملكية غير مؤرخة ، بحل المجلس ، لاستعمالها عند الضرورة . وقد كنت النائب الوحيد بين اعضاء وزارته ورغم علاقتي الوطيدة به ، فقد كتمها عني ولم اسمع بخبرها الا فيما بعد ... بعد ان وقفت المملكة على عتبة الاحداث واستقال المفتي دون استعمال تلك الارادة . واذكر انه حضر الى البرلمان مرة واحدة في اثناء وزارته هذه ، فقد كنت دائماً انوب عنه في حضور جلسات مجلس النواب واتولى الكلام باسم الحكومة وباسم الرئاسة . وعلى الرغم من ان غالبية المجلس لم يكن يرضيها وجودنا ، الا انها سلكت معنا مسلك المانح الثقة باستمرار .

وفي غمرة المسؤولية وازدحام اجراءاتها ، تسلل الموت في ١٩٥٥/١/٢ الى بيتنا في الكرك واختطف والدي رحمه الله . ولقد وقفت هناك على قبره ابكيه بين اهلي وعشيرتي ووفود الذين جاءوا يشيعونه الى مقره الاخير . واذا كانت الوقفة امام جلال الموت تبعث على التأمل والتفكير ، فقد كان مما يعزيني اكثر من مئات البرقيات التي تلقيتها ، ان والدي قضى وهو راض عني وعن سلوكي الخاص والعام في هذه الحياة الدنيا .

واذا كانت الذكريات في تكاثرها على من فقد عزيزاً ، تكاد تضج في ذاكرة المحزون لتمرط ما يأخذ منها وما يدع ، فقد تمثل لي والدي بعد وفاته رحمه الله ، في صفتين كانتا ولا شك قوام شخصيته : الأولى انه كان فارساً مبدعاً في فروسيته ، يكاد رأيه وشجاعته في غمرة المعركة يستبقان معاً

الى الهدف والظفر به .. ولقد كان اطباقه ورفاق له من الفرسان ، على الطفيلة ابان الثورة العربية ، مثلا حياً على فروسيته تلك . والصفة الثانية انه كان كريما الى الحد الذي لم يكن يطيق فيه أن يتناول طعامه ، الا اذا شاركه فيه ضيف أو ضيوف .. ولقد انطفأ سراج حياته ، فيما كان يمارس سجيته في الكرم ، اذ كانت وفاته بالسكتة القلبية ، وهو يستضيف رفيقاً يؤاكله ، وقد اعد له الطعام وخرج من بيته يبتغي ذلك الرفيق وانتظره الى ان ظفر به ومات بين يديه .

- ٣٦ -

وزار الاردن (جونستون) صاحب مشروع اليرموك ، واجرى محادثات معنا بصدد مشروعه الكبير لاستغلال مياه حوض الاردن وروافده، واقتصرت محادثاتنا على النواحي الفنية ، اما السياسية فقد تركناها لجامعة الدول العربية . ولقد استطعنا الحصول على نتائج قيمة من النواحي الفنية ، غير ان رأينا السياسي كان متفقاً ورأي الدول العربية ، في رفض المشروع خشية ان يكون بداية للتعامل مع اسرائيل .

وسافر الرئيس المفتي الى دمشق فالقاهرة ، لحضور جلسات الجامعة بخصوص هذا المشروع . وفيما هو هناك اعلنت مصر عن شرائها صفقة الاسلحة التشيكية فاصدرت بياناً – بوصفي وزيراً للخارجيه بالوكالة – بان عمل مصر هذا يتعلق بصميم سيادتها وان لا حق لاحد ان يعترض عليه او يتذمر منه، ولا سيما بعد ان رفضت الدول الغربية تزويد مصر بالسلاح .

وفي شتاء عام ١٩٥٥ تلقيت رسالة معنونة باسم رئيس الوزراء ، وكان الرئيس المفتي في اريحا يقضي اجازة نقاهة. وفضضت الرسالة فاذا هي من هاني هاشم القائم باعمال السفارة الاردنية في القاهرة ، وتتضمن وصفاً لاجتماع تم بينه وبين السفير الروسي ، بناء على طلب السفير الذي اشار الى محادثات جرت في السابق ، وان جلالة الملك على علم بذلك . واشارت الرسالة الى رغبة الاتحاد السوفييتي في اقامة علاقات دبلوماسية مع الاردن وتفويض هاني هاشم بتوقيع اتفاق على ذلك في القاهرة ، كما اشارت الى ان الاتحاد السوفييتي على استعداد لمد يد العون للاردن بما يحتاج اليه .

وطويت الرسالة وقصدت توا الى اريحا واجتمعت بالرئيس المفتي وسلمته اياها فقرأها ، وطلب الي ان اقضي تلك الليلة في اريحا . وفي الصباح تحركنا الى عمان ، وذهب كل منا الى مكتبه . وتبين ان موضوع الرسالة قد تسرب الى السفير البريطاني الذي طلب مقابلة الملك وابدى لجلالتـه اسفه للرسالـة وللاتصالات التي لا تنسجم وروح الصداقة القائمة بين البلدين . وكان الموضوع مفاجأة للملك اذ لم يكن سمع بعد بالرسالة . فادرك السفير انه تسرع في الامر وانه اساء بذلك الى رئيس الوزراء . وقد استدعيت للقصر والفيت جلالة الملك متأثراً مما حدث ، فابديت اعتذاري ، وبينت مؤكداً ان الرئيس المفتي لم يكن يقصد سوءاً عندما اطلع السفير على الرسالة ، وانما كانت الصدفة ومجرد التعامل البريء ، الامر الذي بينه الرئيس المفتي بعدي بكل وضوح .

وزارنا رئيس وزراء سوريا سعيد الغزي ، ومعه الوزير اسعد هارون ، ودخل معنا في محادثات حول توقيع اتفاق ثنائي ، على غرار الاتفـاق السوري المصري الذي كان انجز توقيعه حديثا . وفي ملاحظة لنا على الاتفاق المقترح ، من انه يخشى ان يؤثر في وحدة الصف العربي مع وجود ميثاق الضمان الجماعي

العربي الذي يحـــدر دعمه ، كان جوابه انه ذاهب الى العـــراق لاقرار اتفاق ثنائي مماثل معه ، كدليل على ان سوريا لا تريد الانحياز الى فريق دون فريق، وان مصلحتها في جمــع كلمة العرب ، وان كل ما يريده منـــا هو الاتفاق المبدئي على وجهات النظر واصدار بيان يؤكد رغبة الفريقين في التعاون المطلق في المجالات العسكرية . وقد استجبنا لذلك وصدر بلاغ مشترك اكدنا فيـــه ان خط الدفاع عن الوطن العربي هو خط واحد ، وان اي اعتداء على جزء من هذا الخط يعتبر نقضا لاتفاقيات الهدنة في جميع الاجزاء . وطبيعي انه كان مفهوما ان العدو المعني هو اسرائيل . وعاد الوفد السوري شاكرا بعد ان تناول طعام الغداء على مائدة الملك الذي ترأس الاجتماع ، غير ان الوفد لم يذهب الى بغداد كما وعد ، ولم يعد الينا ليبحث الموضوع ثانية كما اتفقنا .

وانعقد في القدس مؤتمر للخريجين العرب ، افتتحه جلالـــة الملك حسين بكلمة وطنية رائعة ، كان من شأنها ان مهدت الطريق امام الاعضاء للكلام بحرية ... وكان الوفد المصري لهذا المؤتمر يضم اكبر عدد من الاعضاء ، وكانت تصرفاتهم تدل على انهم وراء خطة مرسومة ، ادت بنتيجة المؤتمر الى استمالة بعض اعضاء الحزب الوطني الى الجانب المصري ، وكان ان انتخب محمد جلال رئيسا للمكتب الدائم للمؤتمر ، وانتخب سليمان النابلسي نائبا للرئيس . . . وكان ان ظهر التخطيط المصري واضحا جليا : محاولة تجنيد الرأي العام الجامعي في البلاد العربية ليسير في ركاب رأي خاص « غير جامعي » في القاهرة ! .

وقام رئيس الجمهورية التركية جلال بايار ، يرافقه وزير خارجيته فطين زورلو . بزيارة رسمية للاردن ، وكانت الزيارة ردا للزيارات المتكررة التي كان

قام بها لتركيا المغفور له الملك عبد الله ، ثم الملك حسين من بعده . وفي هذه الزيارة جرت سلسلة من المحادثات بين الرئيس التركي والمسؤولين الاردنيين . حول رغبة الحكومة التركية في انضمام الاردن للميثاق التركي العراقي (حلف بغداد) .

وفي هذه المحادثات شرح المسؤولون الاردنيون احتياجات الاردن العسكرية والمالية في مذكرة جاء فيها : ان سياسة الاردن تستهدف تأمين ما يلي :—

١ — المحافظة على ميثاق الضمان الجماعي العربي بحيث يتمكن الاردن من القيام بالتزاماته بموجب نصوص هذا الميثاق .

٢ — تأييدنا تأييدا مطلقا في تحقيق المطالب والحقوق العربية في فلسطين ، ودفع العدوان عن الاردن ايا كان مصدره .

٣ — اعتبار القوى التالية حدا ادنى للدفاع الاردني الذي يجب توفره :—

أ — فرقة مشاه .

ب — فرقة مصفحة .

ج — مدفعية ثقيلة .

د — لواء مظليين .

هـ — مجموعة كوماندو .

و — قوة جوية من قاذفات ومقاتلات ، وتأمين ما يلزم من اجل استلام القواعد اللازمة لها تدريجيا .

ز — قوة بحرية صغيرة في البحر الميت والعقبة .

٤ — النظر بعين الاعتبار الى الوضع في الداخل والخارج ، وترك الفرصة للحكومة الاردنية لتهيئة الجو المناسب .

وعلى الرغم من ان الضيف التركي الكبير ادلى بعدة تصريحات ، اكد فيها عزم الجيش التركي على مساعدة الجيش الاردني جنبا الى جنب في حالة تعرض الاردن للاعتداء ، فان الناس في الاردن قابلوا الضيف ورفاقه مقابلة يغلب عليها عدم الرضا . ذلك انهم كانوا يأخذون على تركيا علاقتها باسرائيل اكثر بكثير مما كانوا ياخذون عليها انتسابها للحلف التركي العراقي . . فتركيا كدولة مسلمة وذات علاقة تاريخية بالعرب ، كان يفرض عليها الواجب ان تمتنع عن الاعتراف باسرائيل وان تقطع كل علاقة لها بها سواء اكانت سياسية ام اقتصادية ام تجارية ، وان تتبنى القضايا العربية وقضية فلسطين على وجه خاص . ولكن تركيا لم تفعل هذا مع اسرائيل ، ومن هنا كانت نظرة عدم الرضا بادية على وجه رجل الشارع ، على الرغم من محاولتنا — كمسؤولين — المبالغة في الحفاوة بالضيف الكبير .

وعلى اثر هذه الزيارة ، قمت على رأس وفد اقتصادي يضم وزير الاقتصاد نعيم عبدالهادي وبعض الموظفين ، بزيارة لبغداد بقصد الحصول على قرض مالي لتمويل عدد من المشاريع . وقد تعثرت المفاوضات مع المسؤولين العراقيين الذين اشترطوا في موافقتهم على منحنا القرض ، دخولنا في حلف بغداد . ويذكر اعضاء الوفد — وقد يستغرب القارىء — اني رفضت ان يقترن القرض المالي بأية اشتراطات سياسية ، اذ ان سياستنا لا تقررها حاجتنا المادية ، وانما تقررها مصلحة الاردن العليا .

كانت علاقتي بالعائلة المالكة في العراق حسنة جداً ، فقد نشأت هذه العلاقة منذ ايام الملك عبدالله اذ كنت على اتصال وثيق بهم نتيجة للزيارات العائلية التي كانوا يقومون بها للاردن او كان الملك عبدالله يقوم بها الى العراق ، وكنت

القى منهم كل مودة وتقدير على اعتبــار اني احد رجالات بيتهم الموثوقين في الاردن . وما عدا هذا فلم اكن حتى ذلك التاريخ ، على معرفة تامه بأي سياسي عراقي ، او على صداقة مع احدهم ، الا ما كان من معرفتي السطحية بفاضل الجمالي في مؤتمر باندونغ .

ولعل ادراك الزعماء العراقيين لحقيقــة علاقتي بالبيت المالك ، هي التي كانت السبب في حفاوتهم بي في هذه الزيارة ، حتى انهم جعلوني ونعيم عبد الهادي نشاركهم احدى جلسات مجلس وزرائهم . وعلى الرغم من ذلك ، فان للمسؤولين العراقيين عقلية لا تلين في صدد المفاوضات المالية . كانوا يرددون : « اننا لا نستطيع ان نقطع اموال العراقيين ونقرضها للغير . . . في عام ١٩٦٢ سيصبح لدينا وفر وعندئذ يكون في استطاعتنا مساعدتكم .. اننا الآن في حاجة الى كل قرش لصرفه على مشاريع الاعمار » . . . الى آخر ما هنالك .

وتهيأ لي أن اقطع المفاوضات ، وان اتحدث الى المــلك حسين تليفونياً مشعراً بانني سأعود الى عمان ما دام الامر كذلك . . وقد طلب الملك الي ان اعود في الحال . ولعل المسؤولين العراقيين قد تناهت اليهم محادثتي التلفونية مع الملك ، فطلبوا عقد اجتماع آخر ، قرروا بنتيجته اقراضنا مبلغ مليون وستمائة الف دينار لبعض المشاريع .

وعدنا الى عمان ، في اليوم التــالي لهذا القرار ، لنجد امامنا الجنرال تمبلر وقــد دخل في مفاوضات مع المسؤولين الاردنيين ، حول الانضمام الى حلف بغداد . ولعل محاولة الانضمام الى الحلف لم تعد خافية على أحد ، فقد اصدرت « بيانا للناس » حــول « قصة محادثات تمبلر » شرحت فيه ظروف المحادثات وطبيعتها وتاريخها ، وقــد لخصت في ذلك الــكتيب الاسباب التي حدت بالاردن الى القيام بهذه المحاولة ، وانها فيما يلي :

١ — حاجة الاردن الى تعديل المعاهدة مع بريطانيا وتقليص مدتهــا من اثنتي عشرة سنة الى اربع سنوات .

٢ – زيادة عدد القوات المسلحة عدداً وعدة ، والحصول على اسلحة حديثة وطائرات مقاتلة واموال ثابتة لتمويل هذه القوات .

٣ – مساعدات اقتصادية لتصنيع البلاد واقامة مشاريع كبيرة للتقليل من اعتماد البلاد على المعونات الخارجية .

٤ – التخلص من القيادة البريطانية في الجيش العربي الاردني ، خلال اربع سنوات .

كان من شأن الميثاق ، بطبيعة الحال ، ان يلقي على الاردن تبعات استراتيجية والتزامات عسكرية ، وان يحد من حرية الاردن المطلقة في مجال العلاقات الدولية . غير ان هذه الالتزامات والتقييدات ما كانت لتكون بحال من الاحوال ، اشد مما كانت عليه في المعاهدة الاردنية البريطانية القائمة آنذاك . ولم تكن الدول العربية لتبدي ميلا جدياً او تظهر رغبة صادقة . رغم النداءات المتكررة ، في ان تقدم لهذا البلد الفقير الرازح تحت مسؤوليات جسام ، مساعدة مالية تقوم مقام المساعدة البريطانية . اضف الى هذا ان قواتنا المسلحة في حاجة الى سلاح ، وفي امس الحاجة الى قوة جوية تضمن لها الحماية في اجوائنا الواسعة . واضف ايضاً ، اننا كنا مخلصين في رغبتنا في التخلص من القيادة البريطانية في الجيش ، وهذا ما لم يكن ليتاح لنا بشكل طبيعي بعد اربع سنوات . كما اننا كنا جادين في استبعاد رئيس الاركان اذ ذاك وللحال . ولطالما همّ المسؤولون بالاخذ في تنفيذ هذه الرغبات ، لولا الحقيقة المرة التي كانت تقف حائلا دون تحقيق ذلك . فموارد غير كافية لموازنة ميزانيتنا ، ولو انها كانت كذلك وكانت القضية الفلسطينية التي يتحمل الاردن عبئها الاكبر وقسطها الاوفر قد حلت بشكل من الاشكال لهان الامر عندها ، ولقلنا ان في استطاعتنا تدبير شاننا ، دون الاعتماد على مساعدات اجنبية ، ودون حاجة الى معاهدات او مواثيق .

ولقد زارنا عبد الحكيم عامر قبيل مجيء تمبلر واطلع على مذكرتنا الى الحكومة التركية ، وحمل معه نسخة لاطلاع الرئيس المصري عليها ، بعد ان

حمدها واثنى عليها وقال « الف مبروك عليكم حين تتحقق طلباتكم هذه » . . . ولقد كان عندنا انور السادات ، عندما كان تمبلر بالذات ، ولم يعترض انور على شيء مما كان تم من مفاوضات، ولو أنه طلب الينا ان نستشير خبراء مصريين في نوع السلاح ، ويكفي طلبه ذاك لأن يدلل على قبوله بجوهر الموضوع .

ولعل تصاريف القدر قد هيأ لهـا خطأ الطبيب .. فكان اول خطأ وقعت فيه حكومة سعيد المفتي ، انهـا طالبت تمبلر ان يتداول الامر مـع الوزراء جميعاً ، ليقنعهم بصحة الميثاق وبصواب الدخول فيه وبالفوائد التي سيجنيها الاردن من ورائه . وكان الاصل في حال كهذه ، ان يقوم وفد مفاوض بتولي المحادثات ، في جو هادىء يتيح للمحاكمة للعقلية التوصل الى نتائج في مصلحـة البلد ، ثم يطلع هذا الوفد مجلس الوزراء على النتائج ...

كانت اخبار المفاوضات تلقى في الشارع ، وكان الشارع يحرفها فتنتشر الشائعات حولها بما لم يكن يقع .. فالوزير الفلاني صاح في وجه تمبلر وضرب على الطاولة امامه بقبضة يده مهدداً متوعداً ! . . . والوزير الفلاني استسلم لتمبلر في كل ما يريـد ويرغب من قيود واصفاد ! . . . والواقـع ان مجلس الوزراء كان متفقاً بالاجماع ، على الحد الادنى للمطالب الاردنية . ولكن الاختلاف الشكلي هو الذي اثار المشكلة : هل تقدم المذكرة الى الجانب البريطاني قبل او بعد اطلاع مصر عليها ؟ ... والغريب انه كان مفهوماً ومبتوتاً فيه ، ان اطلاع مصر عـلى المذكرة إن هو الا من قبيل المجاملة ومجرّد الاطلاع ! . . .

في هذه الاثناء شعر نعيم عبد الهادي وزير الاشغال العـامة ، بالعريضة التي كان قدمها ثلاثون نائباً ، لحجب الثقة عنه منفرداً ، لاسباب تتعلق بتصريف امور وزارته . فلجأ الى قضية المفاوضات واتخذ منها ذريعة يخرج بها من الوزارة قبل جلسة الثقة به .. وحسّن لزملائه من الضفة الغربية ان يستقيلوا معه ، بحجة ان الميثاق يضر بقضية فلسطين ويقضي عليها بالتجميد ، وان في استقالتهم خدمة للمصلحة العامة باعتبار انها تقوي مركز المفاوض الاردني ! . .

بمثل هذه الترهات التي استند اليها الوزراء من الضفة الغربية ، واستناداً الى هذه الحجج الواهية ، فوجئنا باستقالتهم . ولقد كانوا معنا على اتفاق في كل شيء ، حتى في التفاصيل ، ولكن مسألة طرح الثقة بنعيم عبد الهادي هي التي احرجته فخرج ولكنه استطاع ان يخرج معه زملاء ما كان لهم قط ان يخرجوا ، لولا خشيتهم من ان تفسر استقالته بانها « احتجاج في سبيل الوطن » وانه لا بد لهم من مشاركته ذلك « الشرف » امام الجماهير ! . . .

- ٣٨ -

وعلى أثر تلك المغالطة من الوزراء المذكورين ، استقالت حكومة المفتي ، وعهد الي تأليف حكومة جديدة ، فقبلت ، في تلك الظروف التي امتدت بها ايدي الانتهازيين من هنا وهناك لتتلاعب بمصير البلاد . ونشطت الاشاعات والاراجيف تبثها تلك الايدي بلا وازع من عقل او ضمير ، وكان اخطر تلك الاراجيف على الرأي العام ، ان المحادثات الدائرة مع تمبلر مفضية حتما الى ضياع فلسطين . وقامت مصر والسعودية بتجنيد اصدقائهما ، وقامت زبانية الشيوعية تسندهما في الافـك والتضليل ، وجرت خرافـة ضياع القضية الفلسطينية على كل لسان ! ...

وقمت باستشارات عاجلة مع عدد من النواب يربو على الثلاثين نائبا ، فوافقوا على تأييدي . والفت حكومتي من مجموعة من الرجال قبلوا التعاون معي الى نهاية الشوط : الى ما فيه خير الاردن ومصلحة الوطن العليا ، مـا في ذلك شك لدي .

وكان واضحا انني سأستمر في المفاوضات ، وقد شرحت تفاصيل ذلك لزملائي الوزراء ، متخذا من المذكرة الاردنية ، التي كان تقرر فيها الحد الادنى للمطالب الاردنية في زمن الحكومة السابقة ، اساسا لاستئناف المفاوضات ، مع محاولة جر مكاسب اخرى غير تلك المطالب المقررة في المذكرة .

ولقد حدث خلاف بيننا وبين البريطانيين ، وكانت شقة الخلاف في وجهتي النظر واسعة ، بحيث كان ممكنا ان تفضي الى عدم الاتفاق . ومع ذلك فقد طالبت منذ البداية بعودة تمبلر الى بلاده ، وهددت بعدم تأليف حكومتي وهو في الاردن ، واوفدت فرحان الشبيلات الى السفير البريطاني بذلك ، فقفل تمبلر راجعا الى لندن .

والفت حكومتي ، وتلقيت يوم تأليفها وفي اليوم التالي ، الالاف من برقيات التهنئة ، ولم يبدر في هذين اليومين ما يشير الى قيام مظاهرات . ولكن محطة اذاعة (صوت العرب) بالقاهره ، شنت حملة من الادعاءات بقيام مظاهرات وسقوط قتلى وجرحى في عمان وفي سواها من المدن الاردنية ، والواقع ان ذلك لم يحدث ، غير انه اخذ في الحدوث بعد اذاعة مزاعم ، او بالحري « تمنيات صوت العرب بالقاهرة » . . فتحركت المظاهرات من كل ناحية ، وكانت قوية ، وكأنما كان ايذان (صوت العرب) بهـا علامة للعملاء ببدء التنفيذ ! . .

كانت تعليماتي تقضي بعدم استعمال الشدة ضد احد . فالميثاق في رايي كان لخير البلد وفي مصلحته ، وسلوك الطريق الديمقراطية البرلمانية هو ما قررته لبلوغ غايتي في اجتهادي ذاك . غير ان نقمة الناس على ذلك البرلمان وعلى الطريقة

التي تم انتخابه بها ، هي التي كان يكمن فيها الخطر في اتباع الطريق التي سلكت . ولو ان البرلمان كان يمثل الامة تمثيلا صحيحا ، لما قامت للامة مظاهرة ، ولترك الامر لممثليها يقرون رأيي وتخطيطي او يرفضونهما . وعليه فقد كان الناس على حق في مظاهراتهم ، اذ انهم لا يثقون بالطريق الديمقراطية التي حددت سلوكها في سياستي ، لسبب واقعي بسيط ، وهو انهم لا يثقون في البرلمان نفسه .

وعندما تأزم الموقف ، اسديت الي النصائح باستعمال الشدة وفرض نظام منع التجول ، الا انني عوضاً عن ذلك صعدت الى القصر والتمست من الملك قبول استقالتي وحل البرلمان . وحلّ البرلمان في دستورنا حيلة « دستورية » تبرر استقالة الوزارة . انني كنت ناقما حقا على ذلك البرلمان ، مع اني كنت احد اعضائه ، لانه كان السبب في ما حدث من مشاكل ، ولانه لم يكن يمثل الا جزءا ضئيلا من الامة .

انني اقرر هنا جازما ، انه كان في استطاعتي ان افرض الميثاق بالقوة ، وان احمل المخاتير وتجار المناسبات على تأييده بالمهرجانات والبرقيات . ولقد كانت الوسائل لدي متوفرة ، ولكنني آثرت الاستقالة والانزواء في بيتي على ان اعتمد سياسة العنف ، وانا الذي كنت استهجنها واحاربها .

واني لاذكر صباح ذلك اليوم الذي قدمت فيه استقالتي . اذ زارني وفد من الضفة الغربية يضم في من يضم ، انور الخطيب وعبد الله الريماوي وكامل عريقات . وقد ذكروا لي انهم لاقوا صعوبة في الوصول الى عمان ، بسبب المظاهرات في اريحا . وكانت المظاهرات في عمان قد اشتدت . وفيما هم عندي سمعت اصوات عيارات نارية ، فاتصلت بقيادة الشرطة اسألها الخبر واشدد التعليمات بعدم اطلاق النار على احد . وعلى الأثر هاتفني اللواء راضي عناب مساعد رئيس الاركان ، وطلب الي ان يسمح للقناصة من الجيش وافراد الشرطة ، بان يقتنصوا بالرصاص قادة المظاهرات ولا سواهم ، فرفضت ذلك بشدة ، وقلت له انني افضل ان استقيل ولا تطلق النار على احد او يؤذى أحد كائناً ما كان.

وعلى اثر خروج الوفد ، عدت الى بيتي وبدأت افكر في وضع حد لهذا الهياج وهذا الشغب المعربد في الشوارع .. وقلت في نفسي : ما دامت غالبية الناس ، سواء مندفعة تلقائياً او مدفوعة من اية جهة كانت ، لا تريد الانضمام للميثاق ، ففيم البقاء في الحكم ؟!... وكانت زوجتي قابلتني قلقة مضطربة على غير عادتها ، وكان من رأيها اساسا ان لا اقبل بتأليف حكومة في تلك الظروف العصيبة . ورن جرس التلفون ، وكان المتكلم ولدي « امجد » الذي كان يتلقى علومه الابتدائية في كلية تراسانطه ، فاذا به يخاطبني وهو يبكي : « يا بابا ان الاولاد يشتمونك ويقولون عنك خائن ، فاترك الحكومة يا بابا » ! ... ياالله ، حتى امجد الطفل الذي لم يكن يتجاوز التاسعة من عمره يطالبني بالاستقالة من الحكم ! . . .

وعزمت على الاستقالة ، وفاتحت زوجتي بما عزمت ، فسرت لذلك كثيراً ، وللحال وكما سبق وذكرت ، صعدت الى القصر وعرضت الامر على جلالة الملك ، وكنت بادي التأثر ، ورجوته ان يتقبل استقالتي . واني ما زلت اذكر كم كان جلالته معي نبيلا وكريماً ، وقد استجاب لرغبتي في الاستقالة واستجاب لرغبتي في حل البرلمان اولا .

- ٣٩ -

وكنت وعائلتي نجلس ، بعد استقالتي ، الى الراديو ، نستمع الى مختلف الاذاعات وما تكيله لي من شتائم ... لقد كان تياراً عجيباً ، الا انه كان جارفاً ليس الى صده من سبيل . حتى لقد سمعت ابني امجد وهو يلعب في حديقة

البيت ، يردد بعض الهتافات التي كان يسمعها في الشارع ، ومنهـــا (فليسقط الاستعمار) ، فقال له اخوه ايمن (اخرس عليك ، تسب الاستعمار وابوك فيه) .. وضحكنا لذلك كثيرا . . ولكن ، الم يكن السواد الاعظم ممن كانوا يهتفون ويتظاهرون ، في مثل انسياق امجد للهتاف ، وفي مثل تفكير ايمـــن في سياسة الحلف ؟ ! .. لقد هتف المتظاهرون في مـــدينة الـــكرك : « لا استقلال ولا استعمار » ! وهتفوا في الرمثا : « لا جمارك بعد اليوم » ! ... فلماذا لا يهتف امجد وأيمن بمثل هذه الهتافات ؟! ...

وخلفني ابراهيم هاشم ، فالف وزارة شـــاركه فيها الرفـــاعي والملقي والخالدي والخيري وغيرهم . غير ان هذه الوزارة ، وهي وزارة انتقاليـــة ذات مهمة محددة باجراء الانتخابات ، لم تدم اكثر من سبعة عشر يوماً . ذلك ان المجلس العالي افتى بعدم شرعية حل البرلمان ، فانتهت بصدور هذه الفتوى مهمتها .

وعهد الى الرفاعي تأليف الحكومة ، وشاركه فيها ابراهيم هاشم والخالدي والخيري والمدادحة وغيرهم . وقد قامت مظاهرات صاخبة تنـــادي بسقوط البرلمان ، قتل فيها عدد من المواطنين . وفرضت حالة الطوارىء ، ومنع التجول ، وقامت قطعات من الجيش بحملات تفتيشية في عدد غير قليل من المدن والقرى ومخيمات اللاجئين ، وذلك لجمع السلاح . واودع الكثيرون السجون والمنـــافي الصحراوية .

وتقدمت الحكومة الرفاعية الى البرلمان طـــالبة ثقته ، وكانت مفـــاجأة للحكومة وللنواب وللحضور ، ان احضر جلسة الثقة هذه ، وأن القي الكلمة التالية فيهـــا :

« لا بد لنا، مهما اختلفت اراؤنا في سياسة هذا البلد ، من التقرير بان احدى الضمانات الاساسية لاستقلال الاردن الصحيح هو استقرار النظام العام فيـــه . اي سيادة القانون واحترام الحياة الديموقراطية التي يعتبر وجود هـــذا المجلس مظهرا من مظاهرها الكبرى .

فبسيادة النظام العام ، يستطيع كل منا ان يقوم بقسطه في بنـــاء الصرح الاردني ، بحيـــث تنمـــو شخصية الاردن سليمة فتشارك في بنـــاء الصرح العربي الكبير على دعائم راسخة من احترام القانون واحترام حريات الشعوب وحقوقها وامانيها المشروعة .

اقول هذا ، وقبل الاستطراد فيما اريد ان اقول ، اعلن سلفاً وبغـــير تردد ، انني امنح الثقة لهذه الحكومة ، على اساس ايماني بالنظام العام واحترامي له ، فتكون الثقة والحالة هذه – على الاقل – مما يتيح الفرصة للحكومـــة لان تعزز استقرار هذا النظام العام الذي لا يستطيع هذا المجلس ان يؤدي رســـالته الديمقراطية التي شرع من اجلها الا به وفي ظله .

وانني اذ ابدي احترامي لما جاء في البيان الوزاري ، من اراء قد يكون اقتضاها الجو السياسي العابر الذي يسود بلادنا اليوم ، ارجو ان استعير مـــن لطف هذا المجلس لاصارحه بان نهج هذه الوزارة في سياستها الخارجية ، ليس بالنهج الذي يضمن للاردن علاجا ناجعاً يستطيع المواطن الاردني ان يركن اليه.

فنحن اذا جاهرنا بالحقيقة الاردنية الراهنة ، من انها في تبعية لبريطانيا حتى سنة ١٩٦٨ تبعية قابلة للتمديد، ومن انها – اي الحقيقة الاردنية – في ازمة اقتصادية مستعصية لا يقال لها عثار ما دامت الحال هي هذه الحال ، ومن انها في حدودها الطويلة مع اسرائيل ستظل هي ، لا سوريـــا ولا لبنان ولا مصر – وطبيعي ان لا يكون العـــراق أو السعودية أو اليمن أو ليبيـــا أو السودان –

عرضة للخطر الداهم من اسرائيل ... ومن انها تضم من اللاجئين الفلسطينيين البائسين اغلبيتهم العظمى ... ومن ان هذه الحقيقة الاردنية تبعا لهذا كله حقيقة بائسة بل وفريدة في بؤسها . اجل اننا اذا جاهرنا بهذه الحقيقة وجدنا انفسنا امام هذا البيان الوزاري اننا ما نزال حيث كنا امام بيانات وزارية كثيرة سبقت ، لم تصف الداء ولم تصف الدواء ، لم تلتمس للشعب الاردني علاجا ناجعا يحسم ما بين الموت البطيء والحياة الحرة الكريمة ، وبالتالي لم ترسم لنا طريق الخلاص من الفاقة ومن الخوف اللذين يجثمان على صدور الاردنيين منذ سنة ١٩٤٨ .

لقد اردت مجتهداً للشعب الاردني ان يبلغ حياة كريمة في اربع سنوات ، وأردت له خططا واسعة للنمو الاقتصادي والاجتماعي تكفل له مستوى معاشيا اعلى ومجتمعاً ارقى ... واردت له المنعة من اليهود ، يكفلها جيش اكبر وسلاح اشد وامضى ، حتى اذا ما ركبت اسرائيل رأسها يوما كانت الردة عليها في عقر دارها الموقتة وكان يوم الخلاص... وبالتالي، فقد اردت للاردن ان تبرز شخصيته العربية النبيلة ، كما أراد صاحبها ان تكون : شخصية البلد الذي يسر الصديق ويرعب العدو .

أجل ايها الاخوان ، لقد أردت هذا وأكثر منه ، ولكن النظام العام الذي أشرت اليه في مستهل كلمتي ، تخبط في أزمة ظالمة حالت دون عرض تفاصيل هذه السياسة على مجلسكم الكريم .

على اننا والحمد لله ، نتمتع بدستور يكفل لنا نحن مجلس الامة ، من الحقوق والصلاحيات ما ليس تكفله دساتير اخرى في أجزاء كثيرة من دنيا العرب ،وان هذا المجلس الذي يفرض دستورنا ان تعرض عليه جميع الشؤون التي لها مساس بمستقبل الشعب ، هو المجلس الذي كنت سأبسط امامه سياسة جديدة تفتح امام الشعب افقا اوسع ، ومركزاً امتن وامنع ، سياسة ترتاح لها نفوس الاردنيين الا من كان في نفوسهم مرض .

انني اسائل هذا المجلس :

هل صحيح ، ان الاردن الصغير الفقير ، يستطيع ان يقف على الحياد عند قيام الساعة بين المعسكرين الماردين الجبارين ؟

هل صحيح ايها الزملاء ، ان ميثاق بغداد – لو انضم اليه الاردن – سيكون الجسر الذي تعبر علينا اسرائيل عليه ؟

هل صحيح ، ان جنودنا سيزج بهم في أتون المعارك خارج الحدود الاردنية ما عدا حدودنا مع اسرائيل ؟ .

هل صحيح ان لا احلاف ، ونحن منذ سنة ١٩٤٧ و ١٩٤٨ مرتبطون باحلاف ولا كالاحلاف .

انني أحار فيما أقول في هذا الظلم الذي جاز على الرأي العام ، ولكني أقولها صريحة لوجه الله ولوجه الحق ولوجه هذا الوطن الذي منه نبتنا وفيه نموت : ان الصحيح هو غير هذا كله ، بل الصحيح هو ان هناك قوة خفية تسعى سعيها في البلاد ، وهذه القوة الخفية هي التي تجعل من الخير العميم شراً مستطيراً ، وتقلب الحق الصراح ليكون باطلا منفراً .

اسمحوا لي ان اوجز ، فأدلل على بطلان اراجيف هذه القوة الخفية بما تبثه من ان ميثاق بغداد سيكون الجسر الذي تعبر عليه اسرائيل الى الاردن . فأكتفي بأن اقرأ لكم نص المادة الخامسة من الميثاق :

« يكون هذا الميثاق مفتوحا للانضمام اليه من قبل آية دولة من دول الجامعة العربية وغيرها من الدول التي يهمها امر السلم والامن في هذه المنطقة بصورة فعالة والمعترف بها اعترافاً كاملا من كلا الفريقين الساميين المتعاقدين ».

اكرر واقرأ « المعترف بها اعترافاً كاملا من كلا الفريقين » ، واسائلكم اين هو الاعتراف باسرائيل منا ومن العراق : حتى تستطيع اسرائيل المزعومة ان تنضم الى الميثاق ، وحتى تتخذ منه جسراً تعبر الينا عليه ؟ ! ....

اسوق اليكم هذا ، على سبيل المثال مما يرجفون ، وليس على سبيل الحصر ، وارغب في ان ادلكم على الجسر الذي تعبر عليه اسرائيل : انه سـوء التقدير للحقائق التي تكون في مصلحتنا ، انه عدم استعدادنا العسكري الكافي ، انه عدم قدرتنا المادية الكافية ، انه الحيرة فيما يجب ان نعتزم من برنامج انقاذي مدروس. انه في هذا ، وفي استجابتنا الى هتافات الهتافة الذين ينادون على هذا البلـد بالويل والثبور .

ايها الزملاء :

ان هذه الحكومة ، واية حكومة ، مالم تتقدم الى هذا المجلس بعـلاج ناجع نافع تستطيع انفاذه ، فسيكون جهدها – مع حسن النية – جهداً لا طائل تحته ، بل قد يكون علاجاً مخدراً لا يضمن شفاء المريض ...

وبعد هذا وذاك ، وسواء أناصر البعض الاحلاف ام نادى البعض الاخر بان لا احلاف ، فان المصلحة الاكيدة التي يتطلبها بلدنا ، هي في ان يزال من اذهان سواد الناس هذا الرأي الخاطيء الذي غرسه الهياج الذي هو نتيجـة الكبت الطويل ولاشك ، واعني بالرأي الخاطىء هذه الفكرة العالقة بالاذهان من ان الدخول او عدم الدخول في الاحلاف هو الامنية الوطنية الكبرى والغاية التي تهون في سبيلها كل تضحية .

اما انا ، فقد قصدت وما زلت اقصد بدخولنا في ميثاق بغـداد ، ان يكون وسيلة لا غايه . اذ اننا بالميثاق نستطيع ، بحسب اجتهادي ، ان نعبىء القوى ونستعد استعداداً يبلغنا الغاية التي نتوخاها ، الا وهي تحقيق امانينـا في

فلسطين وتحقيق امانينا في الوحدة العربية المرجاة ، تلك الوحدة التي نادى بها موقظ العرب من رقدتهم ، الحسين بن علي ، باعث نهضة العرب الذي ضحى بعرشه من اجل فلسطين ، والذي ورث عنه رسالته في الكفاح العربي عاهل هذه المملكة اليوم ، الحسين بن طلال المعظم .

فان كان مخططي هذا غير صحيح ، فعلى الذي يرى اوجه الخطأ فيه ، ان يبينها وان يفندها بالحجة والبرهان .. وان كان فيه ضرر فعلى الذي يرى الضرر ان يشير اليه ويدلنا كيف يكون الصواب وكيف يكون النفع ، وبالتالي يتوجب عليه ان يقدم مخططاً آخر لسياسة جديدة تنقذ البلد من هذا الجمود الذي لا يختلف اثنان في انه لمصلحة اسرائيل .

فلتطلع علينا الحكومة أو أي مواطن بمثل هذا المخطط الجديد ، الصحيح ، النافع ، وعندئذ لن يضيرني ابداً ان اغير رأيي ، فاهجر الميثاق وانحو نحو هذا الجديد ... ولكن اين هو الجديد ؟ ان البيان الوزاري ، مع الاسف الشديد ، لم يجد فيه أي جديد » .

وكنت اتوقع ان ترد الحكومة على كلمتي هذه باي رد تراه ، ولكنها لم تفعل بل بقيت ساكنة لا تحير جواباً .

- ٤٠ -

ولقد مرت فترة بعد استقالتي من الحكم ، كنت اقضي فيها اكثر وقتي في البيت ، وان كنت اخرج في سيارتي كالمعتاد لزيارة اصدقائي أو للنزهة في ضواحي عمان . وقد اتيح لي ان اقرأ كل ما كانت تكتبه الصحف عني ، واسمع كل ما كانت تقوله الاذاعات في . وكانت الصحف والاذاعات التي فازت بقصب السبق في خيالها السقيم ، تلك التي تصدر وتبث من القاهرة

ودمشق ... شيء مضحك : مرة جعلتني زوج اثنتين ، ومرة من محاسيب كلوب وانه كان تولى تعليمي والانفاق علي ، ومرة ذهبت الى بريطانيا ، ومرة ذهبت الى تركيا ، الى غير ذلك من اختلاقات واكاذيب لا اول لها ولا آخر ؟

مسكين رجل الحكم ، اذا وقع « كثرت سكاكينه » وتخلى عنه اكثر اصدقائه ! . لقد قارنت بين الايام التي كانت المظاهرات فيها تهتف باسمي ، وبين هذه الايام التي تعالت فيها الهتافات ضدي ، وسائلت نفسي : ترى ماذا جنيت حتى انعكست الاية عند الناس ؟ ! . ألأني اجتهدت لخير بلدي ؟ . . اصحيح انني استحق كل هذا التهجم علي ، من شعب احببته من كل قلبي ، وتبنيت مطاليبه ودافعت عن حقوقه بكل قواي ؟ ! . ألأني في طليعة من سعى دائما للحفاظ على كرامة الاردن والاردنيين ، الاقي ما لاقيت من تنكر بل ومن عقوق ؟ ! . . اللهم ان هذا الكثير . . . وغفرانك اللهم لهم . .

غير ان الذي كان يعزيني ، وسواء اكنت فيما اجتهدت مصيبا ام مخطئا ، انني اجتهدت لخير بلدي ، وما قصدت ابدا ان الحق الضرر بامتي وبالشعب الذي وهبته كامل امكانياتي ، وانني لم اكن مأجورا لجهة من الجهات . ولقد كان خطابي في البرلمان ، في جلسة الثقة بالحكومة الرفاعية ، معززا لنزاهتي في الرأي والاجتهاد ، مما جلب لي احترام الكثيرين من ذوي العقول النيرة والضمائر النقية . .

وبرزت ولأول مرة لحيز الوجود ، قضية المساعدات العربية للاردن ، عند ما اعلنت مصر وسوريا والسعودية عن استعدادها لتقديم معونة مالية بدلا من المعونة البريطانية . وطاف الرئيس الرفاعي بالعواصم العربية لاستجلاء حقيقة هذا الموضوع . ولدى عودته من طوافه ذاك ، دعى المجلس لجلسة سرية كشف الرفاعي ووزير خارجيته الخالدي فيها القناع عن ان عرض مصر وسوريا للمعونة ، مقصود به رفع الضغط البريطاني عن كاهل الاردن ، وانه في حالة ما اذا قطعت بريطانيا معونتها ، فان الدول العربية المذكورة ستكون على استعداد لدفعها للاردن .

وفي نيسان ١٩٥٦ اصدرت جريدة اسبوعية، اطلقت عليها اسم (صوت الاردن) . وقد توليت تحريرها بنفسي يساعدني عدد من الاخوان بينهم امين ابو الشعر . وكان لاسلوبه الاخاذ وفهمه الصحفي الدقيق أثراهما المحمود في الجريدة . وكنا ننتقد تصرفات المسؤولين ونحمل عليها . وعلى الرغم من العراقيل التي كان يضعها في طريقنا الشيوعيون والبعثيون وبعض المفوضيات العربية التي كنا نهاجم حكوماتها، فقد كانت الجريدة تبيع بين الثلاثة والاربعة الاف نسخة . وظلت تصدر حتى نهاية حكومة سعيد المفتي التي خلفت وزارة سمير الرفاعي .

ونعود الى الحديث من حيث انقطع قبل قليل . لقد كان الرفاعي يطمع في ان يجد ترحيبا حارا بحكومته في الاردن وخارج الاردن ، على اعتبار انه جاء بسياسة تناهض سياسة الانضمام لميثاق بغداد التي كانت محور سياسة حكومتي السابقة . ولكن شيئا من ذلك لم يقع . ففي الداخل اشتدت النقمة على الحكومة لانها كانت راضية عن الافتاء بعدم شرعية حل المجلس النيابي . وكانت غالبية الناس ترى في ذلك المجلس وفي الطريقة التي تم بها انتخابه ، مثلا صارخا على تزوير ارادة الامة . وقدقام المعلمون باضراب كاد يتسع فيكون شاملا ، بسبب استغلال الاحزاب والجهات الاخرى لهذا الاضراب ومحاولة توسيع نطاقه .

اما في خارج الاردن ، فقد قام الرئيس الرفاعي بسلسلة من الزيارات للدول العربية ، موضحاً موقف حكومته من الاحلاف ورغبتها في الاحتفاظ بروابط الصداقة مع الجميع وعلى السواء ، وان هذه الرغبه تقتضي الوقوف موقف الحياد من الخلاف الناشيء بين القاهرة وبغداد . ولكن مصر وصحافتها واذاعاتها شنت حملة قاسيه على الحكومه الرفاعية ، وشاركتها سوريا في ذلك وكان السبب واضحاً ، وهو ان مصر كانت تريد منها ان تقف الى جانبها في حملتها ضد العراق .

وقد كانت مفاجأة لنا ، عندما سمعنا بنبأ الاستغناء عن الفريق كلوب من رئاسة الاركان والطلب منه مغادرة الاردن في الحال . وشعرنا اذ ذاك بشيء من القلق ، الناشيء عن مخاوفنا من ان تؤدي مثل هـذه العملية الى مضاعفات سياسية وعسكرية واقتصادية . وخشينا ان لا نكون احتطنا لهـذا الامر سلفاً وهيأنا له . لقد كانت تربطنا ببريطانيا معاهدة ، وكانت الميزانية الاردنيـة تعتمد الى حد بعيد على المعونات التي تقدمها بريطانيا للاردن بمقتضى المعاهدة . غير ان هذه المعاهدة لم تنص على مساعدة معينة محددة ، وفي استطاعة بريطانيا ان هي شاءت ان تخفضها الى الحد الذي تراه مناسباً ، دون ان يقال انها اخلت بالتزاماتها وذلك كرد فعل للاستغناء عن كلوب .

والحقيقة ان المعاهـدة لم تشترط ان يكون رئيس أركان الجيش العربي الاردني انكليزياً ، وكل ما ورد فيها بهذا الصدد ان بريطانيا تقدم بنـاء على طلب الاردن ضباطاً بريطانيين لأغراض التدريب . غير انه كان واضحاً ان بريطانيا تعتبر وجود كلوب ضمانة لها من اجل تنفيذ احكام المعاهدة . وتوصياته بزيادة المعونة وتزويد الجيش الاردني بالسلاح كانت تلقى استجابة من قبـل الجهات البريطانية المسؤولة . وهو كرئيس اركـان للجيش العربي الاردني ، تملك السلطات العليا حق الاستغناء عنه دون مشورة بريطانيا ولا شك ، وقـد كانت بريطانيا نفسها تصرح ان كلوب موظف اردني . الا اننا مع هذا خشينا كما اشرت ، ان تؤدي هذه الاقالة والطريقة التي تمت بها ، الى مضاعفات من شأنها ان تلحق اضراراً بالاردن .

ولقد تعددت الروايات حول اخراج كلوب ، واخـذت جهات في الداخل والخارج تتبجح وتزعم لنفسها انها هي التي سعت لاخراجـه ومهدت للاستغناء عن خدماته ورسمت خطة الاستغناء والاخراج . وليس من ينكر ان

كثيرين من الاردنيين كانوا يتمنون لو يقصى كلوب من رئاسة الاركان . غير ان الحقيقة التي لا مراء فيها ، ان الملك حسين وحده هو الذي اقصى كلوب واخرجه ، وهو وحده الذي تحمل مسؤولية ذلك ، وان كلوب امتثل لارادة الملك وغادر الاردن طوعاً لهذه الارادة ، وانه لم يغادر تحت تأثير آية جهة اخرى. ولولا ارادة الملك لما استطاعت قوة اخرى ان تجروء على تحريكه، او حتى الوصول الى بيته لهذا الغرض .

ولم يكن يخفى ، ان الملك حسين منذ تسلم سلطاته الدستورية ، لم يكن مرتاحاً الى رئيس اركانه ، وكان يجد حرجاً في ان يكون هذا اجنبياً ، ويزعجه ان تذكر الدعاية في الخارج وفي الداخل ايضاً ان الملك في قبضة رئيس اركانه ، وان كلوب هو السيد المطلق في الاردن . . كما ان الملك كان يأخذ على كلوب انه لا يتجاوب مع رغبته في تهيئة ضباط اردنيين لتولي مراكز القيادة في الجيش بدلا من الضباط البريطانيين . ولعل كلوب كان يقصد تأخير هذا اليوم ، ليضمن للضباط البريطانيين أطول مدة ممكنة في مراكز القيادة ، فقرر الملك وعلى مسؤوليته وضع حد لبقاء كلوب رئيساً للاركان ، وفاجأ الجميع بما فيهم مجلس الوزراء بهذا القرار ، واستجاب مجلس الوزراء للرغبة الملكية وابلغ كلوب ذلك ، فاستجاب هذا بدوره دون ابطاء ، وغادر الاردن بعد خدمة تزيد عن خمسة وعشرين عاماً .

ويقتضينا الانصاف ، وقد اصبح « كلوب باشا » في ذمة التاريخ بالنسبة للأردن ، ان نذكر انه خدم هذا البلد بكل جد واخلاص ، وكان له فضل كبير في انشاء الجيش الاردني وتنميته واعداده كأحسن ما تكون عليه الجيوش الحديثة . كما كان له فضل في وضع حد لمنازعات القبائل وغزواتها واحترابها في الصحراء ، وعمل على تحسين احوال البدو واقامة المدارس لديهم وترغيبهم في حياة جديدة تختلف عن حياتهم التي الفوها في السابق ،واستطاع ان يفيدبهم الجيش فتغدو منهم في صفوفه نخبة ممتازة .

على ان ذلك لم يمنع ان يظل « البريجادير جون باجيت كلوب » انكليزيا ، وككل انكليزي كان مخلصا لبلاده . ومع هذا فقد كان يحب الاردن وشعب الأردن حبا اكيداً ، وأخلص للبيت المالك في الأردن اخلاصا لا يرقى اليه شك ، وكان يفضل مصلحة الاردن على كل مصلحة سواها ، ما عدا مصلحة بلاده بريطانيا ... وكثيراً ما كان يحاول التوفيق بين المصلحتين اذا تعارضتا ، وكان يوفق في ذلك .

ولقد قيل عن كلوب انه كان الحاكم الفعلي والدكتاتور المطلق في الأردن ... وليسمح لي القارىء ان اؤكد له ان هذا الذي قيل واشباهه ، ينطوي على مبالغة زائدة . ذلك ان الرجل كان في الواقع حريصا على تنفيذ تعليمات الحكومة بدقة ، ولم يحدث ان خالف لها امراً . الا انه كثيرا ما كان يسدي النصح في المسائل والمشاكل ، وكان المسؤولون يتقبلون النصح منه وكأنه شيء منزل لا بد من التشدد في انفاذه . فقد شاع في الناس اعتقاد خاطيء ، لم يتورعوا ان يرددوه دون ان يردوه ، وهو ان من يرضى عليه كلوب رضي عليه الحظ وتفتحت امامه ابواب الوزارة او النيابة ، ومن غضب عليه كلوب تنكر له دهره وصدت في وجهه كل الابواب !... وتحت هذا الوهم ، وحيال هذا التقدير المغلوط ، كان التنافس على التقرب منه والتزلف اليه ، وكان الحرص على تنفيذ نصائحه واحلالها منزلة الاوامر التى لا تعصى ! . . . اقول هذا وأقطع فيه ، بعد ان شغلت عدة مناصب وزارية كان لرئيس الاركان بها صلة رسمية .

وهناك ناحية اخرى ، جرّت على كلوب المتاعب وعرضته للنقد ، تلك هي ناحية احتفاظه بدوائر الأمن العام ، وتبعاً لذلك وبطبيعة الحال اتصالاته المستمرة بالمدنيين . واذا كان ربط دوائر الأمن العام ممكنا فيما قبل ، فانه لم يعد ممكنا فيما بعد ، في هذه الحقبة من الزمن ، التى طرأ فيها على الجيش توسع كبير ، ولأن رئيس الاركان اصبح يتحتم عليه الأنصراف كليا للشؤون العسكرية ، بحيث لا تصرفه انشغالات الأمن العام عن احسان عمله كرئيس للأركان ، ولا سيما اذا كان اجنبيا لحما ودما وعقيدة .

ان اعتبارات الكرامة الوطنية والعزة القومية لا يصح تجاهلها . . . ولقد تجاهل كلوب توجيهات الملك في ضرورة اعداد جيل من الضباط الأردنيين قادر على املاء المراكز التي كان يشغلها الضباط البريطانيون .

فكان ذلك من اقوى العوامل التى حدت بالملك حسين لأن يقصي الرجل عن مركز رئاسة الاركان ، ذلك الاقصاء الذي اعتبره الاردنيـون خطوة مباركة وجبارة ، رحبوا بها بكل حرارة . ومع هذا كله ، فسيظل كـلوب بالنسبةلتاريخ الاردن الحديث وعلى مر الاجيال ، يشغل حيزا مرموقا في الاذهان يطوي فيما يطوي ، ما قدمه الرجل الفذ ، من خدمات جلى للأردن وللأردنيين.

ولما تم اقصاء كلوب ، دعي مجلس الامة الى اجتماع طارىء ، القت فيه الحكومة بيانا ، اكدت فيه حرصها على التمساك بالمعاهدة الاردنية البريطانية ، واكدت احترامها للصداقة التقليدية التى تربط البلدين : الاردن وبريطانيا . . واوضحت انالاستغناء عن خدمات رئيس الاركان هو عمل داخلي اداري محض ولا يمكن ان يؤثر في هذه الصداقة والرابطة بين البلدين . وقد ايد مجلس الامة بالاجماع الاجراء الملكي ، وذهب المجلس بمجموع اعضائه الى الديوان الملكي ورفع التهنئة الى الملك حسين على ما انفذ من اجراء ، واكد تضامن الامة معه في هذه السياسة .

وسرى في الاردن تيار من الفرح عظيم ، وضج بمهرجانات الابتهاج كل فج وصوب ، بينما هاجت بريطانيا للنبأ الذى هزها هزا عنيفاً وكان لها صـدمة اخذت معها صحافاتها واذاعاتها تهدد وتتوعد ، لان ركيزتها في الاردن قـد زحزحت بالطريقة التي اذهلت الدنيا وعرضت الهيبـة البريطانية لأن تقتحمها العين . ولكن لم تلبث ثائرة بريطانيا ان هدأت ، وكان للسير اليك كركبرايد سفير بريطانيا السابق في الاردن اثره في ذلك . فقد كان كركبرايد في عمـان حينذاك ، وغادرها الى لندن واجتمع هناك برئيس وزراء بريطانيا واكـد له

ان خطوة الملك حسين لا تعني تنكر الاردن لالتزاماته نحو بريطانيا ، وانتهت القضية بالامر الواقع . ثم اعلنت كل من الاردن وبريطانيا تمسكها بالتزاماتها واحترامها اياها ، وتم بينهما الاتفاق على انهاء خدمات سائر الضباط البريطانيين من الجيش الاردني بصورة ودية .

ولقد كنا نتوقع ان يعمد كلوب الى مهاجمة المسؤولين الاردنيين ، كرد فعل للطريقة التي اقصي بها عن منصبه . ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، وكان كل ما قاله للصحفيين الذين كانوا بانتظاره في مطار لندن « ان خلافه مع الملك حسين كان الفارق في السن بين الاثنين ، فارق بين رجل اشتغل مع الملك الجد والملك الوالد ويريد ان يشتغل مع الملك الحفيد » . وكان كلوب في تصريحه ذاك ، مثالا للرجل الحصيف الحكيم .

ولم يمض وقت طويل على اقصاء كلوب ، حتى تركت الحكومة الرفاعية الحكم ، والف سعيد المفتي وزارة تعاون معه فيها الملقي والعجلوني وغيرهما . وقد اشغل العجلوني وزارتي الدفاع والداخلية معا . وكانت باكورة اعمال هذه الوزارة اجراء تغييرات واسعة في قيادة الجيش ، استهدفت احالة رئيس الاركان راضي عناب على التقاعد ، واسناد منصب رئاسة الاركان الى علي ابو نوار الذي كان اذ ذاك مديراً للعمليات الحربية في القيادة العامة .

ولقد كان يدور على الالسنة ، منذ تولت حكومة سعيد المفتي الحكم ، ان تغييرات واسعة ستجري قريباً على القيادات الرئيسية في الجيش ، وان علي ابو نوار – وكان برتبة مقدم وقد رفع اليها حديثاً لان الملك ابدى رغبته في ذلك – سيصبح رئيساً للاركان .. واذكر اني قمت بزيارة الرئيس المفتي لتهنئته وانتهزت الفرصة وحدثته عما يشاع في هذا الصدد ، فايد الشائعات الا انه استدرك وقال ان الامر ما يزال في طور التفكير وسألني رأيي .. واذكر اني

صارحته بانه من السهل ان تأتي بأي شخص لاعتبارات سياسية وتدخله وزيراً في وزارة ، بقطع النظر عما كانت عليه رتبته او درجته قبل استيزاره ، وان اجراء كهذا قد لا يلفت النظر او يثير النقد او يكون اساساً لاثـارة الخواطر والخطر .. ولكن من الخطر الاقدام على الاتيان في الجيش بضابـط فينصب رئيساً على ضباط كانوا اعلى منه رتبة ، مهما كانت كفاءة هـذا الضابط . فتخطي ضابط لمجموعة كبيرة من الضباط امر ينطوي على خطر جسيم ، اذ من شأنه ان يحدث انشقاقاً في صفوف الجيش ويؤدي الى زعزعة الثقة في النظـام وفيمن بايديهم تصريف الامور .. وقد نصحت الرئيس المفتي ان لا يقدم على مثل هذه الخطوة ، بل يحلها – اذا شاء – على مراحل ، بحيث يعمد الى سياسة احالة قدامى الضباط على التقاعد ، فيطفو الضابط المراد ترفيعه وتنصيبه رئيسا للاركان على بقية الضباط ، وعندها يكون الاجراء سليما ويبدو عادلا وطبيعياً.

وكان الرئيس المفتي يصغي الي باهتمام ملحوظ ، ولم يعقب على حديثي اليه بكلمة واحدة ، بل اكتفى بان ابتسم ، فودعته مكرراً تهنئتي له وخرجت، وفي اليوم التالي صدرت المراسيم الملكية بتعيين علي ابو نوار رئيساً للاركان مع ترفيعه لرتبة لواء ، وعلي الحياري نائباً لرئيس الاركان . وبترفيعـات اخرى اقتصرت على اصدقاء علي ابو نوار ومجموعته ! . .

لقد كان ابو نوار يتباهى بانه هو واصدقاؤه اخرجوا كلوب ، وان من حقهم ان يشغلوا مراكز الاقتدار في الجيش ، مكافأة لهم وتدليلا على « عملهم المجيد » ! .. فأدت الترفيعات الاستثنائية والتنقلات الى موجة عارمة من السخط عقبتها سلسلة من الاعتقالات في صفوف الضباط . وكـان ذلك هو السبب الرئيسي الذي يكمن وراء جميع المتاعب التى واجهها الاردن منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا . ويقيني انه لولا عامل الولاء للملك ، وهو ما اشتهر به الجيش الاردني ، وأفراد هذا الجيش بصورة خاصة ، لكانت تلك الاستثناءات وما رافقها ، جرت الى انهيار هذا البلد وضياع فلسطين .

هكذا نشأت اسباب التذمر في الجيش ، وهكذا مشت حوافز الاحداث في صفوفه ، وجعلته مطرحا من مطارح النقد والتفنيد في مجتمعات المدنيين ، لان تلك الاسباب والحوافز خرجت به عن مستوى القواعد السليمة التي تتقيد باحكامها الجيوش ، وتأخذ بها بكل دقة وعناية وصرامة ، والتي لا يجوز الأخلال بها في حال من الأحوال .

- ٤٢ -

على ان ركنا هاما اخر في كيان الدولة ، ظلت اوضاعه تستأثر باهتمام الناس ، وتثير فيهم روح الاشمئزاز وتنحو بهم منحى التعليقات الساخرة المريرة ، ذلك الركن الهام هو البرلمان : مجلس النواب الذي نحرت على مذبح انتخاباته ضحايا ليس من السهل نسيانها والتغاضي عنها وعما صاحبها من احداث . ولم كانت تلك الضحايا تنثر كالاعلام الحمراء على سفوح الجبال في عمان ، وفي مهاد السهول في غير عمان ؟ ! .. امن اجل نفر بعينه من الامة لا تقره الامه ولا تقيم له وزنا ، يخرجون بنتيجة الانتخابات الدامية ويدوسون على اشلاء تلك الضحايا في طريقهم المشبوه الى مقاعد مجلس النواب ؟!.. او لم يكن هذا المجلس بالذات هو الذي حيل بين الرئيس المفتي وبين ولوج بابه ؟! . . وكيف بالله تستقيم للديمقراطية مفاهيمها البرلمانية ، حيث يحدث ان يجتمع نقيضان ، في مجرد اجتماعهما تتمثل مهزلة الحكم النيابي عندنا وفي سائر دول الشرق العربي : رئيس وزراء فشل في الانتخابات النيابية عنوة واقتداراً ، وانماط من النواب لو استفتي الشعب في امرهم لما تبقى منهم في مقاعد النيابة عن الشعب الا القليل الاقل؟!

كنت اصدر جريدتي (صوت الاردن) عندما لحت في هذه التساؤلات وامثالها، مما يتصل بالحياة النيابية في شرقنا العربي عامة وفي اردننا العزيز خاصة، الأمر الذي يبعث على التأمل في صلاح هذه الحياة لنا في هذا الشرق أو عدم صلاحها ! . . هل حقق النظام البرلماني الذي قبسناه عن الغرب ، ما حقق من غايات عظيمة ؟! .. هل استطاع مثلا ان يحقق مبدأ التوازن بين السلطات، بحيث لا تطغى احداها على الأخرى ؟! . . هل حقق العدالة الاجتماعية وساوى في الفرص بين أفراد المجتمع ؟! . . وهـل انبثق منه ذلك النور الذي يضيء سبيل الامة الى ما فيه خيرها وصلاحها ، وهو ما يسمى بالشعور العام بالمسؤولية ، اي ايمان الموطنين كافـة ، بالمحافظة على الحق والقانون واحترام النظـام في السر والعلن ؟! . .

واستعرضت الحياة النيابية في شرقنا العربي فاذا هي مجرد تقليد وعمل استعراضي . فالثوب الذي وجدناه جاهزا ولبسناه ، جاء فضفاضا لا ينسجم وحقيقتنا . فلقد حاكه الغرب نبذة نبذه وخاطه قطبة قطبة ، وبذل من الجهـد ما اقتضاه مئات السنين ، نصبا وتعبا ، ودموعا ودماء ، حتى طابق الثوب حقيقته ولبسه فارتاح له . فلما لبسناه نحن بحقيقتنا وعقليتنا وروحيتنا التي تختلف عن حقيقة الغرب وعقليته وروحيته ، لبسنا ثوبا ليس لنا . . ثوبا أخذ يصرخ في وجوهنا « اقلعوني عنكم ايها الشرقيون » ! . .

. والواقع ان شرقنا العربي قد تعسفت فيه حكومات وحكومات ، ولم نسمع يوما ان مجلسا نيابيا اسقط حكومة من هذه الحكومات المتعسفة ، أو أثر في الاوضاع تأثيرا جديا ، بحيث جاء بالحكومة التي يريد . ذلك التمثيل اقتصر عندنا على طبقة معينة ، هي طبقة الوجهاء والاغنياء والمتصدرين . فجاءت هذه الطبقة تزعم لنفسها تمثيل الشعب تمثيلا حقيقيا ، وهو في الواقع غير حقيقي . فلقد توصل هؤلاء الى مقاعد النيابة ثم الى مراكز القدرة في الدولة ، عن طريق المال والاتصال برجال

الحكم ، وصار همهم وشغلهم الشاغل بعد اذ بلغوا تلك المقاعد والمراكز ، ان يثبتوا نفوذهم بما يغدقونه على الاهل والصحاب والمحاسيب من خيرات الدولة ، وبما يحرمونه على من سوى هؤلاء ممن يقفون في وجوههم ويشجبون زعمهم .

اننا لا نستطيع ان ننكر الخلل الخطير الذي ينتاب الحياة النيابية عندنا ، خللا يعشش في الاحزاب والجماعات وفي الافراد والاسر ، ويبدأ بالناخب مارا بجميع مراحل العملية الانتخابية الى ان ينتهي على مقاعد النيابة . . . ثم اننا لا نستطيع ان ننكر ان المجالس النيابية في البلاد العربية كثيرا ما كانت وتكون ستارا شرعياً ، لتغطية مخازي الحكومات ستار هو من قبيل التمويه « الكوموفلاج » للتوصل الى مآرب وغايات ، لم تكن دائما لمصلحة الامة وخير الوطن . . . فاي حياة نيابية تكون هذه ، وما الذي يفيده العرب من مجالسها بما يقرب من الحد الادنى الذي يفيده الغرب من مجالسه النيابية ؟! . . . .

وفي غمرة هذا « القرف » من الحياة النيابية بصورة عامة ، ومن هذا المجلس بصورة خاصة ، وهو المجلس الذي كان السبب في شقاء الدولة وتعريضها لمخاطر جسيمة ، والذي زعزع الثقة العامة بحيث اصبح الشك والقلق يخيمان على الناس جملة وتفصيلا . . وجدتني في ٧ حزيران ١٩٥٦ اقدم الاستقالة التالية :ـ

معالي رئيس مجلس النواب الاكرم

سلاما وتحية ، وبعد فاني منذ اللحظة التي التمست فيها من جلالة الملك المعظم ـ بوصفي رئيسا للوزراء آنذاك ـ حل البرلمان ، وانا اشعر ان ما يواجه وطننا العزيز من احداث وما يتطلع اليه من آمال ، يستدعي استفتاء الامة من جديد في ظل انتخابات حرة .

وقد تضاعف هذا الشعور عندي الان اكثر منه في اية مناسبة خلت ، بحيث اصبحت اعتقد ان استمرار البرلمان بوضعه الراهن لا يحقق المقاصد الدستورية ولا يخدم قضية الوطن .

لهذا فاني اتقدم لمجلسكم الكريم باستقالتي هذه من عضويته ، راجيا التكرم بقبولها ، منتهزا هذه المناسبة لا توجه بالشكر لناخبي الذين اولوني شرف تمثيلهم والدفاع عن قضاياهم .

وفي الختام اتقدم لمعاليكم ولزملائكم الكرام بوافر تحياتي ، راجيا لوطننا العزيز تحقيق اهدافه القوية في ظل مولانا جلالة الملك المعظم .

- ٤٣ -

ولم يمض اسبوع حتى عمد الرئيس المفتي الى حل البرلمان ... لقد حل العقدة بنفسه ، وكانت عقدته بالذات . أجل ، فقد كانت عقدة سعيد المفتى منذ وزارته الاولى وجود المجلس القائم آنذاك ، وتقدم ببيان حكومته الى المجلس طالباً ثقته ، وقبل ان يستمع الى رأي المجلس في بيانه ارتكب المخالفة الدستورية اياها التى كان وقع فيها توفيق ابو الهدى ، وسرح « نواب الامة » ولم اكن في عدادهم ! ...

وبعد مشاورات متعددة ، عهد الملك الى ابراهيم هاشم بتأليف وزارة جديدة تشرف على الإنتخابات وتنتهي مهمتها بانتهائها . وتألفت الوزارة بسرعة فائقة وعلى خلاف ما كان يريد الجيش ، اذ كان الجيش يتوقع ان يعهد تأليفها الى رجل آخر .

واعلن ابراهيم هاشم ان الإنتخابات ستكون حرة مطلقة ، وعندما سئل عن موقفه من الشيوعيين الناشطين للانتخابات ، كان جوابه انهم من الاردنيين وانهم ابناؤه وسيجدون من الحرية ما يجد سواهم من الاردنيين ! ....

لم تقتصر الاساءة للنظام الدستوري عندنا ، على مهزلة الانتخابات النيابية والحياة النيابية كما سبق وعرضت ، وانما تعدتها الى الاحزاب : الىالقواعد المفروض فيها ان تكون سليمة وان تنبثق منها بعوث الامة لتحتل مقاعدها في مجلس الامة ، المفروض فيه بدوره ان يكون مرآة صادقة للامة لا اثر فيها للزيف او التعمل .

ولكي نرى اية مرآة تلك التي كانت تعكس صورة الاردن في الحقبة الاخيرة من حياتنا البرلمانية ، يجب ان ننظر في الاساس... في الكتل الانتخابية... في الاحزاب التى كانت تعمل في الاردن . مشروعة وغير مشروعة .

ففي الاردن حزب شيوعي منظم ، وعلى الرغم من عدم اتساع قاعدته الشعبية ... وعلى الرغم من « قانون مكافحة الشيوعية » الذي كان ولا يزال معمولا به ، والذي يعاقب على النشاطات الهدامة ، فقد استطاع هذا الحزب ان يمارس نشاطه بطريقةفعالة ووفقاً لتخطيط لا شك مدروس . فلم تكن تسنح له فرصة الا واستغلها استغلالا ماكراً بل وبارعاً ، هادفاً الى تحقيق مراميه بكل الوسائل ، وفي عرفه ان كل وسيلة اوصلت الى الحلال « الاحمر » فهي حلال ! وليس مما يختلف فيه اثنان ، ان الحزب الشيوعي الاردني وجد في واقع الحياة الاردنية تربة صالحة يتمذهب فيها الحاقدون بمذهبه ، كماوجد مثل هذا المجال في الديار العربية الاخرى .

وجد عندنا التربة الصالحة له ، في مخيمات اللاجئين وكهوفهم . . . وجدها في الثغرة اللعينة التى احتفرتها النقمة على الغرب لانه ناصر اسرائيل وتسبب في تشريد مليون عربي فلسطيني من ديارهم . . . وجدها في الفساد المزري المستشري في بعض اجهزة الحكم والذي نخر عظام هيبة الحكم وهيكل الدولة ... وجدها في استغلال بعض المسؤولين نفوذهم وفي اساءتهم استعمال السلطة الموكولة اليهم ! ... كل هذا اتاح الطريق للدعوة الشيوعية تؤثر في

البسطاء والسذج والموتورين . وليس يعني هـذا ان جميع هؤلاء اصبحوا شيوعيين ماركسيين ، وانما كان من شأن تلك المآخذ في مجتمعنا ان سهلت استثارتهم ، ووجد فيه من يذيع في الناس بالمناشير تارة وبالشائعات اخرى ، بحيث كان يلاك المسؤولون عن النظام العام بالالسنة في الشوارع والاسواق ، وفي المدن والقرى ، بلا خوف او وجل ، وبلا هوادة او ترفق !...

وكان الشيوعيون من المهارة بحيث استطاعوا ان يفيدوا من الخلافات التي كانت تقع بين احزاب اليمين وفي سبيل تناحرها على الحكم ، فكانوا يناصرون الفريق المعارض ضد الفريق الحاكم ، ليضمنوا لرسالتهم تحقيق بعض الانتصارات . وكانت فئات اليمين تتقبل في كثير من الاحيان ، ومع الاسف ، مناصرة هؤلاء الشيوعيين لها ومساعدتهم اياها على تحطيم القوى اليمينية المنافسة ،مع علم هذه الفئات انهدف الشيوعيين ومنيتهم المتمناةتقويض اركان اليمين كافة وبلا تمييز او استثناء . ولم يكن ليحتاج الى دليل ، ان اكره ما كان يكره الشيوعيون ، هو ان تتولى الحكم في البلد عناصر وطنية شريفة ، ذلك ان في مجيء مثل هذه العناصر امتصاصاً لنقمة الناس واسترداداً للثقة العامة في النظام وبالتالي اغلاق ابواب المجتمعات في وجوههم — اي في وجه الدعوة الشيوعية .

كما لم يكن ليخفى على احد ، ان الحزب الشيوعي كان يعمل دائبا وبهمة لا تعرف الملل ، طبقا للتعليمات والتوجيهات التي ترد من موسكو ،وان هدف الشيوعية في الأردن كهدف اي شيوعية محلية في العالم ، هو اقامة مجتمع يدور في فلك روسيا الحمراء . ولعل اكبر خدعة قام بها هذا الحزب وجازت على الفئات القومية جميعا ، كانت في مناصرته — لفترة من الزمن — كل حركة قومية تحررية ،فيحين انه معلوم لدى كل الفئات ان ابجدية الشيوعيةوبديهياتها تقوم على اعتبار القومية والاديان تقاليد باليه ، وانه يجب تحطيمها والقضاء عليها . فالقومية عندهم قبلية مقيتة ، والدين عندهم افيون الشعوب ، وليس لهذين من قيمة في حياتنا اليوم كما يصفون ! .

وقد استطاع الحزب الشيوعي في الاردن ، ان يغزو عقول بعض معلمي المدارس ، وان يستميل بهم قسما من الطلاب ، على اعتبار ان الحزب يعمل لأجل بعيد وان طلاب اليوم اذا طعموا المباديء الشيوعية فانها ترسخ فيهم للاستعمال عند ما يصبحون شبابا ورجالا ! .

وبمثل هذا الغزو ، استطاع حزب البعث العربي الاشتراكي ان يسيطر على بعض الناشئة ، وتنافس الحزبان في مجـال المدارس اكثر من تنافسهما في المجالات الاخرى . و« انبرطت » الحكومات الاردنية المتعاقبة امام هذا النشاط ولم تأخذه بالشدة المتوجبة عليها ، حفاظا منها على دور العـلم التى ترعاها على الاقل . وكان من ذلك تدني المستوى العلمي والاخلاقي في مدارس المملكة ، لان النـاشئة انصرفوا الى التحزب والصفصطة الحزبية عـن التحصيل العلمي والتربوي ، والى الاخذ باسباب الفوضى والشذوذ ، عن النظام واداب السلوك .

وحزب البعث العربي الاشتراكي ، حزب قومي قيادته العامة في دمشق لا في موسكو . وقد استطاع ان يجد له في الاردن قاعـدة نسبية بين الطلاب بوجه خاص كما اشرنا . وعلى الرغم من ان شعارات هذا الحزب هي شعارات العرب قبل ان يولد الذين اسسوا حزب البعث في سوريا ، من دعـوة للتحرر والاستقلال ، وللقومية العربية والوحدة العربية الشاملة ولمحاربة النفوذ الاجنبي في جميع صوره واشكاله . اقول ان هـذه الشعارات قـد افقدها قادة حزب البعث في الاردن جمالها ، لنفرة النـاس من اشخاصهم اذ كان همهم تحقيق غاياتهم الذاتية والمساومة على حساب رسالة الحزب والمتاجرة بمعتقداته . وكان التلون واللف والدوران طابعهم ، فكانوا من المنادين باتحاد الاردن مع العراق « اقرب الاقطار العربية في الارض والروح والمصلحة » ومن معارضي اتفاقية القنال « اتفاقية العبودية المجـددة » ، ومن اشد خصوم جمال عبد الناصر على اعتبار انه « يحكم مصر حكما دكتاتوريا لا أثر للديمقراطية فيه » . . . واذا بهم يعارضون اتحاد الاردن والعراق ويرضون عن اتفاقية القنـال ، ويلتفون حول جمال عبد الناصر ويصبحون من اخلص انصاره ! .

وفي خضم هذا التنافس بين الشيوعيين والبعثيين ، وفي غمرة الاضطراب الفكري وموجة الغفلة في المدارس وفي الحكومات المتعاقبة استطاع حزب البعث ان ينتزع لنفسه بعض الشعارات من الحزب الشيوعي ، وان يبزه في بعض النشاطات ، غير انه كان كثيراً ما يهادن الشيوعية ويسير معها جنبا الى جنب في « جبهة وطنية متحدة » في سبيل تقويض الفئات الحاكمة . وفي مثل هذه المهادنة تردت الاخلاق السياسية في البلد ترديا لم تصل الى مثل دركه من قبل. .فكان الشيوعيون اشبه ما يكون بالجاني عن سبق تصور وتصميم ،وكان البعثيون التبعي التوصلي ، غير ان المشاركة بينهما حدثت على اي حال .

وهناك الحزب القومي الاجتماعي ... وهو حزب قيادته في لبنان وسوريا وله في الاردن منتسبون وانصار ولو انهم قلة . وعلى الرغم من صلابة عقيدتهم فان اثر حزبهم في ميدان الاحزاب كان ضئيلا ... وليست اهداف هذا الحزب بخافية ، فهي تنصب على قيام دولة في الوطن السوري الكبير ، او ما يدعى بالهلال الخصيب ، ذلك الهلال الذي يبدأ طرفه بالكويت وينتظم العراق وسوريا ولبنان والاردن وفلسطين حتى ينتهي طرفه الآخر بقنال السويس . وفي عرف الحزب القومي السوري هذا او الحزب القومي الاجتماعي ، ان الشعب السوري حصيلة شعوب واقوام متعددة ذات حضارات قديمة – في جملتها العرب – استوطنت وتفاعلت في هذا الجزء من العالم .

اما الاخوان المسلمون في الاردن ، فلم يكونوا حزباً سياسياً بالمعنى الحزبي الصحيح. وانما كانوا جماعة يقومون بالدعوة للتآخي بين المسلمين ،ولحض الناس على التمسك بتعاليم دينهم واعتماد الشريعة الاسلامية اساساً للحكم . وقد وجدت هذه الدعوة التي نشأت فى مصر على يد المرحوم حسن البنا ، قبولا حسناً في كثير من الاوساط الاسلامية ، واستطاعت بما تقوم به من نصح وارشاد في هذه الاوساط ان تقف حجر عثرة في وجه الدعوات الالحادية الهدامة .

ومن هذا الذي تقدم ، نجد ان الاحزاب والجماعات التي مر ذكرها ، لم تنشأ في الاردن ، وانما نشأت حيث تقوم قياداتها خارج الاردن ، وليس على الفروع في الاردن الا تنفيذ التعليمات الواردة من القيادات في المراكز الرئيسية .

اما الاحزاب السياسية التي نشأت في الاردن ، فقد اقتصرت في محصلها الاخير على حزبين – الحزب الوطني الاشتراكي ولم يكن له رئيس بل كان له امين عام ، وكنت اول امنائه – وحزب الامة الذي الفه السيد سمير الرفاعي وكان رئيسه . وكان هناك كتلة تعارف الناس على تسميتها « الماوماو » ثم تسمت « بالحزب العربي الدستوري »وهي مجموعة الاشخاص الذين تحلقوا حول توفيق ابو الهدى اماماً لهم في السياسة ورئيسا عليهم في الوزارات . وهذان الحزبان والكتلة ، او قل الاحزاب الثلاثة ، اعتمدت في تأليفها وتكتلها على مشارب الاشخاص الذين تألفت منهم . فلم يكن لها عقائد حزبية وتبعا لذلك لم يكن لها قواعد شعبية ، وكان الاحساس الشعبي العام يحترمها بنسب متفاوتة ، ولكنه الى ذلك كان يدرك ان اهدافها جميعاً التوصل الى الحكم : الى الكراسي الساحره .. على ان الحزب الوطني كان اقربها الى الروح الحزبية الصحيحة والتنظيم الحزبي المتعارف عليه ، ولذلك فيعتبر من هذه الزاوية على الاقل انه كان اقوى الاحزاب الاردنية الثلاثة .

وقد جاءت الانتخابات الاخيرة ، التي جرت في عهد ابراهيم هاشم الانتقالية ، وكانت انتخابات اعترفت جميع الجهات بتوفر الحرية المطلقة فيها لجميع الكتل والاحزاب – جاءت هذه الانتخابات دالة على مدى « قوة » هذه الاحزاب ، اذ نجح اثنان من حزب البعث من مجموع خمسة عشر مرشحا بعثياً ، وكان هذان من منطقة رام الله ، ونجحا لانهما حظيا بتيار شخصي لا بتيار حزبي مبادؤه مبادىء حزب البعث ، وكانا عبد الله الريماوي وكمال ناصر .ونجح اثنان كذلك من الحزب الشيوعي هما يعقوب زيادين عن منطقة القدس وفائق وراد عن منطقة رام الله ،وكان نجاحهما لانه لم يترشح من الشخصيات ذات الوزن احد ، فصوت الناخبون لهما نكاية بمنافسيهما الوحيدين مرشحي حزب

البعث عبدالله نعواس ، وحمدي التاجي . وكان الحزب الوطني هو الذي نال اكثر المقاعد الحزبية في مجلس النواب ، غير ان نجاح من نجح منه لم يكن قط لانهم كانوا ينتسبون للحزب الوطني ، بل لان اشخاصهم – وقبل ان يتألف الحزب الوطني – ذوو مكانةوقوة انتخابيه في دوائرهم . . . وكذا كان شأن من نجح من جماعة الاخوان المسلمين . هذا ويجب ان لا يغيب عن الذهن ان مقاعـد النيابة عندنا موزعة بمقتضى قانون الانتخاب بحيث يتم تمثيل المسلمين والمسيحيين والمسلمين الجراكسة بنسب معروفة ، ولهذا ايضاً اثره في تقرير نجاح من نجح من الحزبيين في الدوائر الانتخابية المختلفة .

ومن هذا المحك الذي شهدته بلادنا الاردنية من اقصاها الى اقصاها – على قرب ما هو قصي منها – نستطيع ان نخرج بنتيجـة استقرائية واضحة وهي ان الحياة الحزبية لم يكتب لها عندنا النجاح الذي لاقته، وتلاقيه في الدول التى اخذت بالنظام البرلماني الحر ، واننـا في الاردن وفي سائر الدول العربية بوجه عـام قد فشلنا في هذا المضمار ، من حيث نجح تخطيط الاحزاب ومنهاج الحياة البرلمانية المبني على هذا التخطيط في بلاد اخرى . ولا بد لنا من جهود جبـارة تتضافر فيها التشريعات النظيفة والتربية الشعبية النظيفة كذلك ، حتى يتسنى لنا ما تسنى لغيرنا في تلك البلاد الاخرى .

– ٤٤ –

ومشكلة الجهاز الاداري وضرورة تطهيره ، مشـكلة متمادية متقـادمة العهد ،عرض لها اكثر البيانات الوزارية . فما كانت حكومة جديدة تلي الحكم في هذا البلد ، الا وتبادر في بيانها الوزاري الى القول بانها عازمة عـلى تطهير الجهاز الاداري . وهذا ولا شك دليل على ان هـذا الجهاز قد امتدت اليـه يد الفساد ، في بعض اجزائه على الاقل ...

والبديهي ان يكون ولاء الموظف للقانون والنظام، وان تكون الكفاءات العلمية والخلقية ومدى الخبرة العملية هي الأساس الذي يعول عليه في انتقاء الموظفين. غير ان اعتبارات شتى قد، تفاعلت في تكوين هذا الجهاز فانتابه الضعف واقتحمته العيون فكاد يخرج عن الغايات التي قام من اجلها. ودراسة شاملة لاحوال هذا الجهاز وتطوراته، تبرز لنا بصورة جلية الدوافع التي تكمن وراء الفساد الذي تخلله. وهذه الدوافع تتحمل وزرها الوزارات المتعاقبة دون استثناء. فقد درجت كل حكومة وكل رئيس وزراء او وزير يأتي الى الحكم، على مفهوم غريب لولاء الموظف. فبدلا من ان يكون الولاء للقانون والنظام وللدولة، ارادوا ولاء لهم.. وتحت تأثير هذا الفهم الخاطيء الخطير، لجأت الحكومات الى تحطيم القواعد السليمة التي يجب ان تأخذ بها في صدد التعيين والترفيع، فكانت تحدث الاستثناءات وتخص بها «زلمها» ومن كان من انصارها او من انحاز الى صفها المزعوم، وكان الوزراء المختصون يجعلون التعيينات والترفيعات طبقا لرغباتهم وامزجتهم، بغير ما اكتراث لما تتطلبه الدولة في مفهومها المجرد المنزه عن الغرض. وكثيرا ما حدث ان اقصت عن حقول الدوائر المرتكزة على كفاءات مشهود لها تلك الكفاءات لا لشيء الا لانها لا تأتلف وميولها. وبهذا ومثله اختل ميزان العدالة ومبدأ تساوي الفرص، وانكمشت ثقة الموظفين في النظام العام، بل وتلاشت كليا في بعض الاحيان. اذ اصبح التعيين او الترفيع، مقياسه الصلة بالوزراء او عدم الصلة، واصبح هم المستوظف والموظف تبعا لذلك، تدبير شأنه بطرق ولو ملتوية لتأمين مستقبله باسرع وقت ممكن لانه لم تعد له الثقة بقدرة النظام على حمايته وانصافه.

وطبيعي انه ما لم يتغير مفهوم الوزراء والوزارات المختلفة، لولاء الموظف كما مر، فانه يكون عسيرا بل ومستحيلا ايجاد الحلول التي تكفل تحسين الجهاز الاداري. ولو ان ديوان الموظفين قد خفف اخيرا من غلواء ذلك المفهوم

السقيم ، الا انه لم يستطع حتى يومنا هذا ان يجتث اسباب السقم على اي حال . وعجيب ان لا يتوصل من تسلم القدرة في تصريف امور الموظفين ، والموظفون انفسهم ، الى المفهوم المجرد لمصلحة الدولة كشخصية معنوية مستقلة تمام الاستقلال عن شخصية الوزير او المدير ، او عن التكتلات التي ينتمي لها الوزير او المدير .. ففي انكلترا مثلا ، نجد ان الحزبين الكبيرين يتناوبان الحكم ، وللحكومة منهما ان تفعل ما يروق لها لو انها تستطيع ، ولكنها لا تفعل فيما يختص بجهاز الموظفين شيئا ، ذلك ان هذا الجهاز عندها ، ومع انه يشتمل على موظفين من الحزبين ، يظل فعالا فعالية مطلقة لمصلحة الدولة ، وهكذا يظل سليما فلا يجد الموظف مجالا ملتويا للتعيين او الترفيع على حساب انه ينتمي لحزب من الحزبين .

- ٤٥ -

اسفرت نتائج الانتخابات النيابية ، التي تميزت بالحرية المطلقة وباساءة استعمال تلك « الحرية » المطلقة ، كما تميزت بما هدر فيها من اموال طائلة ذات اليمين وذات الشمال . . اسفرت عن فوز ثمانية من الحزب الوطني ، واثنين من البعثيين ، واثنين من الشيوعيين ، واربعة من الاخوان المسلمين ، واربعة وعشرين من المستقلين . واستطاع الحزب الوطني بعد هذه النتائج ان يستميل الى صفوفه ثلاثة نواب آخرين . ولقد نجحت في قضاء الكرك القائمة التي كنت أدعمها واؤيدها ، والمؤلفة من صالح المجالي وعمران المعايطه وسابا العكشه .

وكان واضحا ان الملك سيعهد الى الحزب الوطني تأليف الوزارة .
وتمركزت الاضواء على عبدالحليم النمر من الحزب المذكور ، كأقوى مرشح للرئاسة ، مع العلم ان نجاحه هو او سواه من اعضاء الحزب في الانتخابات ، وكما سبق وألمعت ، يرجع الى نفوذهم الشخصي في دوائرهم الانتخابية ولا يرجع ابداً الى انتمائهم للحزب ، اذ لم يكن اثر يذكر للحياة الحزبية في كسب اصوات الناخبين .

وكانت مفاجأة للجميع تكليف سليمان النابلسي بتأليف الوزارة الجديدة ، ذلك ان سليمان كان قد اخفق في الانتخابات ، بعد كل ما بذل فيها من جهد. فقد كانت قائمة الحزب الوطني تتألف من اثنين هما سليمان النابلسي وعبد القادر طاش ، في حين ان لقضاء عمان اربعة مقاعد في المجلس النيابي ، ونجح عبد القادر طاش ، وفشل امين عام الحزب الوطني وأحد اركانه المؤسسين ! لذلك كانت مفاجأة للناس تكليف سليمان بتأليف الوزارة ، لأن العرف الديمقراطي النيابي لا يستقيم معه ترئيس من لم يفز « بثقة الشعب » في انتخابات الشعب . . هذا مع العلم ان سليمان النابلسي كان بحق ألمع شخصيات الحزب واكثرهم معرفة بصناعة الحكم وأوسعهم اطلاعا على الشؤون الداخلية والدولية .

ولم يحُل ترئيسه الحكم ، على اي حال ، من ان يتوقع المراقبون له النجاح في ادارة شؤون البلاد بحكمة تقيها المزالق والشرور ، اذ كان معروفاً انه بين زملائه اعضاء الحزب اكثرهم مرونة واعتدالا وسداد رأي . . غير ان « تشكيلة » الوزارة والظروف التي جاءت بها ، لم تكن تبشر بعهد من الحكم معقول ، فقد اشترك معه بالاضافة الى زملائه من الحزب ، عبدالله الريماوي ممثلا لحزب البعث ، وعبد القادر الصالح عن « الجبهة الوطنية » التي تمثل الشيوعيين على الرغم من

انه لم يكن شيوعيا ، كما اشترك معه صالح المجالي وسمعان داود عن المستقلين . ومهما يكن من أمر ، فقد كانت وزارة النابلسي اول وزارة من نوعها في الاردن ، يمكن ان يقال في تأليفها انه تم على اسس حزبية ،وانها كانت وزارة ائتلافية ،من حق الشيوعيين والبعثيين فيها ان يشاركوا الحزب الوطني في توجيه سياسة البلاد العامة .

ومما يجدر ذكره في هذا « الائتلاف » الوزاري ، ان فشل النابلسي في الانتخابات كان عاملا في اضعاف مركزه – كرئيس وزارة – تجاه شركائه في الوزارة من غير الحزب الوطني ، وتجاه زملائه من الحزب الوطني نفسه ، باعتبار انه انما جاء للحكم بسببهم ونتيجة لاقتراحهم وتأييدهم . يضاف الى ذلك ان الحزب الوطني كان يتأرجح بين اليمين واليسار ، فثمة اعضاء في اقصى اليمين وآخرون في اقصى اليسار . وقد كشف النقاب عن هذا التأرجح في النهج السياسي لبعضهم من الحزب المذكور وفي تلك الوزارة ،سليمان النابلسي نفسه عندما قال « ان وزارتي تضم وزيرين عن الشيوعيين هما : عبد القادر الصالح وشفيق الرشيدات ، ووزيرين عن البعثيين هما : عبد الله الريماوي وشفيق الرشيدات ، ووزراء عن الحزب الوطني منهم شفيق الرشيدات طبعاً » ! ويدل هذا على ما كان يواجهه النابلسي من متاعب تثيرها المتناقضات في وزارته ومن اعضاء حزبه .

وثمة حقيقة اخرى ،وهي ان اكثرية النواب في هذه المرة ، وعلى اختلاف نزعاتهم ، جاءوا الى المجلس مرتبطين بسلسلة من الشعارات .. « كالغاء المعاهدة البريطانية » ، و « قبول المعونة العربية » ، و « اقرار الوحدة الاقتصادية » ، و « الاتفاق العسكري » .. فكان لا بدّ للحكومة من ان ترفع هذه الشعارات ، آمنت بها وبالنتائج التي تترتب على تحقيقها أو تحقيق بعضها ، أم لم تؤمن . ومن هنا انفتح باب المزايدات والتنافس في التطرف ، ودخلت الحكومة طرفاً في ذلك دون ان تلتفت الى الخطوات والاجراءات العملية التي تستلزمها تلك المزايدات .

وعلى ذكر الوحدة الاقتصادية والاتفاق العسكري الثنائي ، فقـد سبق لحكومة ابراهيم هاشم ، على الرغم من انها كانت حكومة انتقالية ، ان توصلت الى اتفاق مع سوريا حول إقامة وحدة اقتصادية بين البلدين وأرجأت التصديق عليها نهائياً حتى يناقشها البرلمان ويقرها . كما ان المشير عبد الحكيم عامر كان توصل مع رئيس الاركان علي ابو نوار الى اتفاق حول تنسيق الدفاع والقيادات العسكرية ، فاتفق على ان يكون عبد الحكيم عامر قائداً عاماً من اجل اغراض الدفاع ، وظل أمر هذا الاتفاق مكتوماً الى ما قبل حملـة السويس ، وكان بعض النـواب على علم به . والمهم في هـذا الموضوع بالذات ، ان اكثر النواب كان مرتبطاً سلفاً بهذه الوعود والعهود ،سواء في الداخل أو في الخارج ، ولم يكن بوسعهم الافلات منها .

- ٤٦ -

ولم يمض على تأليف الحكومة النابلسية أيام ، حتى حدث الاعتداء الثلاثي على مصر . فقد بدأت اسرائيل بشن هجوم واسع على القوات المصرية في سيناء والنقب ، وكانت مفاجأة الانذار البريطـاني الفرنسي لمصر واسرائيل ، وما انطوى عليه هذا الانذار الغريب من طلب الى الفريقين المتحـاربين بتراجع قوات كل منهما مسافة معينة ، حددها الانذار ، عن قناة السويس ، والسماح في نفس الوقت للقوات البريطـانية والفرنسية بالنزول في السويس وبور سعيد والاسماعيلية من اجل تحقيق أهداف وقف القتال وتأمين حرية الملاحة في القناة .

وقد نفهم انتقوم الدولتان الغربيتان، وفقاً لألتزاماتهما بمقتضى التصريح الثلاثي، بالطلب الى الفريقين المتنازعين بوقف رحى القتال بينهما وعودة قوات كل منهما الى اراضيها. ولكن ان يطلب الى مصر ان تسمح لقوات بريطانيا وفرنسا بالنزول في مدن القناة الرئيسية، فقد كان امراً غاية في الغرابة، لان اسرائيل كانت المعتدية وكانت قواتها توغلت في الاراضي المصرية. والى هذا فان مصر هي التي كان عليها طبعاً ان تدفع عنها اعتداء اسرائيل وان تصد هجومها على القناة.

ولم يكن مستغرباً ان تساند فرنسا اسرائيل في هجومها على مصر، غير انه كان مستغرباً حقاً ان ترتكب بريطانيا تلك الحماقة الجنونية فتشارك في الاعتداء على مصر، وهي المرتبطة مع مصر باتفاقية الجلاء التي تحتفظ بمقتضاها بمنشآت عسكرية على طول القناة، وكان لها عدد كبير من العسكريين بألبسة مدنية في هذه المنشآت! . وعلى فرض ان اسرائيل احتلت القناة وهددت حرية الملاحة فيها، فان بريطانيا كانت تستطيع دون حاجة الى انذار ودون حاجة الى اشراك فرنسا معها، ان تتشاور مع مصر لحماية منشآتها ولضمان حرية الملاحة وسلامتها بحكم تلك الاتفاقية. يضاف الى ذلك ان بريطانيا ذات مصالح واسعة في ارجاء العالم العربي . . في الاردن والعراق وعبر سوريا وفي الجزيرة العربية وامارات الخليج، وليس يعقل ان يرضى عربي واحد عن اعتدائها على مصر. ويضاف الى ذلك ايضاً – وهذا مما ضاعف من نقمة العرب – اشتراك بريطانيا مع اسرائيل عدوة العرب اللدود، ومع فرنسا ذات الماضي البغيض والحاضر الابغض.

وبقدر ماكان هذا العمل الجنوني ممكن الحدوث بل ومتوقعاً من جانب اسرائيل، وفرنسا معها، بدا مستهجناً من جانب بريطانيا، التي عرفت برصانة سياستها وبعد نظر ساستها. لقد كانت بريطانيا حتى معركة القناة،

تتمتع بسمعة لا بأس بها في العالم العربي ، على الرغم مما كان لها من موقف متنفر مع اسرائيل ، ذلك انه كان يشفع بهـــا ان اميركا وروسيا تتحملان وزراً في القضية الفلسطينية وخلق دولة اليهود في فاسطين ، غير انها – اي بريطانيا – قامرت في تلك الحملة الرعناء بسمعتها وبمصالحها دفعة واحدة ،فلم تجدصديقاً واحداً في طول البلاد العربية وعرضها يستطيع ان يرضى عن سياستها أو يدافع عنها ، أو ينفي عنها تهمة التآمر مع فرنسا واسرائيل ، أو تهمة الغباء والحماقة على أقل تقدير .

ونتيجة للهجوم اليهودي على مصر ، واجهت حكومـــة النابلسي امتحاناً قاسياً وهي في مستهل عهدها .فقد تبين للناس والوزارة النابلسية في ايامهاالاولى ومنذ بداية ذلك الهجوم ، ان الملك طلب اليها مسانـــدة مصر بفتح جبهة على الفور ضد اسرائيل من الجانب الاردني . ولكن الوزارة وقفت من مطالبـــة الملك ، ومن التزامات الاردن الرسمية والادبية وما تقتضيه وحدة النضال العربي موقف الحائر الذي لا يقطع برأي . فمن اعضائها من صرح بأن فتح جبهة من جانب الاردن معناه المقامرة بالضفة الغربية وتعريضها للسقوط . ومنهم من قال بضرورة التشاور مع سوريا والاتصال بالعراق لتقرير موقف موحـــد . ولقد جرت اتصالات بسوريا ، فكان رأيها الاتصال بالعراق واستدعاء قوات عراقية.

وجاء وفد عراقي لتقرير خطة عسكرية موحدة مع الاردن ، وفي اثنـــاء المفاوضات لتقرير هذه الخطة دخل الاردن لـــواء عراقي وعسكر في المفرق قبل التوصل الى اتفاق تام وفقاً للاتفاقية العسكرية بين الاردن والعراق . وفيما المحادثات سارت في مراحلها الاولى سيراً مرضياً ، وتم الوصول الى اتفـــاق مبدئي يكون فيه علي الحياري قائداً عاماً للقوات المشتركة ، اعلنت بريطانيـــا وفرنسا استجابتهما لقرار مجلس الامن بوقف رحى القتال . عندها ، وعندها فقط ، تذكر الوفد الاردني المفاوض ، ومن ورائه مجلس الوزراء ، الاتفاق

الثنائي مع مصر وقيادة عبد الحكيم عامر ، فأثار هذه النقطة مع الوفد العراقي الذي قرر انه غير ملزم بذلك الاتفاق الثنائي وانه — اي الوفد العراقي — انما يفاوض على اساس المعاهدة الاردنية العراقية فحسب .

وحدث اني كنت في زيارة للوفد العراقي في بيت السفير العراقي ، فجاء الوفد الاردني للزيارة كذلك . وعندما هممت بالاعتذار والانصراف لأفسح المجال للوفدين يتحدثان بلا حيطة أو تحسّب ، طلب الي الجميع ان ابقى فبقيت. ولكم كان مخجلا ضعف حجة المفاوض الاردني وعدم ايمانه بصحة ما يقول . وبدا لي ان جهات ليست من الوزارة هي التي كانت توجه المفاوض الاردني في مفاوضته ، الأمر الذي لم ينكره بعض اعضاء تلك الوزارة بحضوري وحضور الوفد العراقي . ولقد آلت النتيجة الى ان عاد الوفد العراقي الى بغداد دون التوصل الى اتفاق ، ومع الابقاء على القوات العراقية في الاردن.

وحدث بعد ذلك بأيام ان سافرت وعائلتي الى بيروت للمعالجة ، وهناك نزلت ضيفاً على صديقي فرحان الشبيلات . . ولقد مكثنا اسبوعين ، التقيت خلالهما بعدد من الاصدقاء القدماء ، من سوريين ولبنانيين . واذكر اننا قضينا عيد رأس السنة الميلادية في العاصمة اللبنانية .

ولشد ماكانت دهشتي على اثر العودة الى عمان ، ان كتبت صحيفة يوسف البندك « صوت الشعب » بأني ومدحت وسعد جمعه اجتمعنا في فندق الامبسادور وفي غرفة ذات رقم معين ، بسياسيين سوريين ، وان صالح مهدي السامرائي الملحق العسكري بالسفارة العراقية ببيروت كان يحضر اجتماعاتنا ، واننا كنا نعد لانقلاب في الاردن وفي سوريا ! . .

واتصلت هاتفياً بوزير الداخلية صديقي عبد الحليم النمر ، ولفت نظره الى ما كتب البندك في صحيفته ، وقلت « انكم امام اتهامات خطيرة تكتبها جريدة البندك ، فاما ان تكون هذه الاتهامات صحيحة ، وعندئذ يجب ان

عاقب ، واما ان تكون كاذبة فيجب ان يتخذ اجراء ما مع الجريدة وصاحبها » .
مع ان الوزير وافقني على ما أبديت ، وأبدى تأثره للحملة الظالمة بحقي ، غير انه لم يفعل شيئاً . وقد استطعت ان اعلم ان دوائر الجيش ، وبتوجيه من علي بو نوار رئيس الاركان اذ ذاك ، هي التي امرت بنشر ما نشر في جريدة البندك .

والغريب ان سليمان النابلسي ، كان قبل ان يصبح رئيساً للوزراء ، يحذرني من هذا البندك ويقول عنه انه « ستافسكي » وانه جاسوس دولي للشيوعية ولبريطانيا ولمصر ولاسرائيل ولأميركا وللفاتيكان في آن واحد .. وان لديه مستندات بذلك . ولقد ذكرت هذا الذي قاله لي سليمان النابلسي ، ولشدّ ما كانت دهشتي ، عندما لم تحرك حكومة بعض الاصدقاء ساكناً ازاء هذا الافك والبهتان ، مما اضطرني لرفع قضية لدى مدعي عام عمان ضدّ المحرر المسؤول .

- ٤٧ -

وجاءت قصة المعونة العربية .. وفي ذات يوم قرأت في الصحف مطالبة الدكتور مصطفى خليفة في البرلمان بهذه المعونة ، أو بالحري مطالبة الحكومة بتنفيذ وعودها ، من حيث قبول المعونة العربية والغاء المعاهدة الأردنية البريطانية. واتفق ان التقيت في اليوم نفسه في القصر الملكي ، بسفير سوريا القضماني ، فسألني عن مغزى كلام الدكتور مصطفى ، وقال انه يعتبره احراجاً لسوريا ولمصر في وقت هما فيه غير متهيئتين لدفع المعونة ، فمصر خرجت من معركة القناة وهي في حاجة الى اصلاح ما خربته الحرب ، وسوريا لا تكاد تستطيع

تدبير أمورها . وعندما سألته تفسيراً لعرض سوريا ومصر المعونة للأردن ، اجاب ان ذلك كان بمثابة تهديد لبريطانيا كي لا تستغل حاجة الأردن للمساعدة المالية فتفرض عليه سلوك سياسة معينة . وقد رجاني ان أذهب معه الى السفارة ليطلعني على تقرير بعث به الى الخارجية السورية والرئيس القوتلي حول موقف الدكتور مصطفى ، فدفعني الفضول الى أن ألبّي رجاء السفير السوري ، وقرأت تقريراً مطولا يعرّض فيه بموقف الدكتور واصفاً المطالبة التي طلع بها الدكتور على الحكومة بأنها دعوى حق أريد بها باطل ، وان في ذلك احراجاً للحكومة ولسوريا ومصر معها .

وكان بعض اصدقائي يطلب اليّ ان أقوم بزيارة للصديق القديم سليمان النابلسي ، وكان عتبي عليه أنه لم يكن حريصاً على ان يسأل عني أو يزورني . وعندي ان الآراء السياسية قد تتعاكس ، ولكن المناسبات الشخصية في علاقات الاصدقاء ما ينبغي لها ان تتأثر الى حدّ القطيعة . وكان ابن عمي صالح المجالي ما يفتأ يلحّ علي في أن أزور « سليمان » – وكان وزيراً في وزارته – فزرته وكان بيننا حديث مجاملة ما لبث ان انقلب الى حديث عن المعونة العربيه . فلمست تمسك الرجل بمصلحة الاردن .. وكان مما قاله لي في هذا الصدد انه لن يترك المعونة البريطانية ما لم يطمئن الى تصميم وقدرة الدول العربية على دفع المعونة العربية دون أية شروط ، وان مناورات الدكتور مصطفى خليفة ومحمد عبد الرحمن خليفة لن تستخفه ولن تثنيه عن التمسك بالمصلحة الأردنية .

وتكاثرت التصريحات حول المعونة العربية ، بل لقد اخذ هواة الشهرة يتبارون في صياغة هذه التصريحات ، وكأنما كل واحد منهم هو الذي خصته العناية بوحي الفكرة الفذة : العرب يعينون بعضهم ولا حاجة الى غير العرب ليعينهم ! حتى لقد بدت « المعونة العربية » من فرط ما قيل فيها وكأنها اصبحت حقيقة واقعة لا يرقى اليها الشك ! . وفي غمرة هذه التصريحات تحركت بريطانيا

بطلب ، فحواه توضيح موقف المسؤولين الاردنيين من الغاء المعاهدة الاردنية البريطانية تبعاً للترتيبات المالية الجديدة التي انتهجتها المملكة الاردنية . وكان واضحا ان بريطانيا تريد ان تقرر موقفها على ضوء الجواب الاردني، ولا سيما وانها كانت تسمع تأكيدات من مصادر وزارية ، تخالف ما كانت تسمعه في البرلمان وفي الشارع .

وعلى حين غرة ، سافر وفد اردني مفاوض الى القاهرة . . بطريق البحر من بيروت الى الاسكندرية . وفي القاهرة تم الاتفاق على مقدار المعونة وطريقة دفعها ، وتوزيع الحصص فيها بين الدول الثلاث : مصر وسوريا والسعودية .

ثم سافر الوفد الى السعودية ، وكان سبقه اليها الملك حسين .. ووافقت السعودية على اتفاقية المعونة ، وعلى ما تمت عليه في القاهرة . ويمم الوفد شطر سوريا تواكبه سلسلة من الشائعات ، فقد استطاع الريماوي ان يضمن لنفسه ولنفر من زملائه في الحزب ، صفقة كبيرة من السكر درت عليهم ربحاً وفيراً .

وعلى اثر اتفاقية المعونة ، بعثت الحكومة البريطانية بمذكرة الى الحكومة الأردنية ، طالبة اعادة النظر في المعاهدة . وجاء وفد بريطاني لهذه الغاية . وبعد مفاوضات حثيثة مستمرة ، تم التوصل الى الغاء المعاهدة وجلاء القوات البريطانية عن الاراضي الأردنية خلال مدة حددتها الاتفاقية . وكانت هذه الاتفاقية عرضت على البرلمان فنالت تأييداً اجماعياً .

وفي الليلة التي سبقت جلسة مجلس الامة لالغاء المعاهدة، التقيت في فندق فيلادلفيا ببعض اعضاء الوزارة النابلسية . وكأصدقاء قدماء اخذنا نتحدث في مختلف الشؤون ، ومنها خطوة الحكومة بالغاء المعاهدة مع بريطانيا . وقد سئلت رأيي فيما يجب ان يكون عليه موقف الوزارة بعد هذه الخطوة الجبارة .. واذكر اني كنت صريحاً في جوابي لاولئك الاصدقاء . قلت لهم « انه ورد في بيانكم

الوزاري الذي نلتم الثقة على اساسه ، انكم جئتم الى الحكم من اجل الغاء المعاهدة البريطانية وقبول المعونة العربية وجـلاء القوات الاجنبية . وها انكم حققتم ما وعدتم به ، وما عليكم بعد هذا الا ان تستأذنوا . . ان تتقدموا باستقالتكم بعد ان انهت حكومتـكم مهمتها . وبذلك تضربون مثـلا رائعا على سلامة مفهومكم للحكم ، وتكسبون لاشخاصكم ولحزبكم نصراً جديد . فاذا ما دعيتم لاعادة تأليف الحكومة – وهذا هو المتوقع – فانه تكون اتيحت لكم فرصة اعـادة النظر في « تشكيلة » وزارتكم ، وعندئذ تستطيعون ان تستبعدوا منها العناصر التي اساءت لكم والتي لا ترغبون في بقائها معكم . واذا ما دعي غيركم لتأليف الحكومة ، فان مقام الصدارة سيظل لكم ، من حيث توجيه سياسة الحكم في هذا البلد . وان انتم لم تفعلوا هذا ، فيقيني انكم ستضطرون لترك الحـكم ، وستخسرون القصر والشارع معاً » . . وقد اضفت العبارة الاخيرة ، بسبب ما كنت ألحظ في موقف بعض الوزراء من انحراف ومن تطلع الى مسايرة جهات في خارج الاردن ، يضاف الى ذلك ما كان جرّح نزاهة بعض الوزراء من تصرفات لا تشرّفهم ! .

ولقد وافقوني على رأيي وتحمسوا له ، ووعدوا ان يضمنوا بيانهم حول الغاء المعاهدة ، رغبتهم في ترك الحكم . . غير اني استطعت ان اعلم فيما بعد ان سليمان النابلسي اراد ان يظل على هذا الرأي ، ولكن بعض وزرائه رفض ذلك واصر على الاستمرار في الحكم ، فاضطر النابلسي لأن ينزل عند رأي ذلك البعض .

وعندما وافق مجلس الأمة على اتفاقية الغاء المعاهدة ، قامت في جميع انحاء المملكة مظاهرات تأييد ومهرجانات ابتهاج استمرت اكثر من ثلاثة ايام . . وكنت ترى الشيوعيين ومعهم لافتاتهم ، يتظاهرون متكتّلين ويهتفون بشعاراتهم ومبادئهم . كما كنت ترى البعثيين يتظـاهرون متكتّلين ويهتفون بشعاراتهم ، ويعلنون ان المعاهدة الغيت بفضل جهادهم ! . . وكذلك فعل الحزب الوطني

والاخوان المسلمون . . ولقد وقعت مشادات بين هذه الفئات عندما كانت تتلاقى ويفيض بها التحمس الحزبي .. كما ان الوزراء كانوا يتسابقون ورئيس الاركان اذ ذاك، في الخطب من على الشرفات في الأسواق ، وكان هم كل منهم في ان يظهر أمام الجماهير بمظهر البطل الذي الغى معاهدة بريطانيا ! . .

ومن ابرز ما كان يؤخذ على بعض الوزراء في ذلك العهد — على ذكر التسابق بينهم على الزهو في غير محله — تطلعهم الى نشر اخبارهم و « بطولاتهم » في الصحف المصرية ! . . فقد كانوا يتنافسون على اكرام وفادة مراسلي هـذه الصحف ومحرريها ومعلقي محطة اذاعة صوت العرب ، وكانوا يطلعونهم على كل اسرار الدولة ، كما كانوا يسألونهم توجيهاتهم في بعض المسائل ! . .

وقد بدا واضحاً لكل مراقب ، ان الشيوعيين — رغم وجود قـانون مكافحة الشيوعية الذي اشترك في وضعه واقراره اكثر اعضاء هذه الوزارة — أسقطوا الاقنعة عن وجوههم واظهروا أنفسهم ، وأخذوا يزاولون نشاطهم علناً ويشاركون في توجيه سياسة الحكم كشركاء .. واخذ بعض رجال الحكم يتزلف اليهم في خطب الدعوات والمناسبات .. وكان من نتيجة هذا الاتجاه بالذات ، ما كان من اعتراف بالصين الشعبية، ومن محاولة لتبادل التمثيل السياسي مع روسيا .

— ٤٨ —

في هـذه الاثناء ، وفي تلك الغمرة الحمراء ، التي سيطرت فيها الفئة الشيوعية على عقول من ليسوا شيوعيين ولكنهم بدوا وكأنهم « رفاق » .. اذيعت رسالة الملك حسين التاريخية الى رئيس وزرائه سليمان النابلسي . وطلعت الرسالة على الناس كما تطلع الشمس من وراء الغيوم الداكنة .. فقد حذرت الرسالة الملكية

رئيس الوزراء من تعاظم نشاط الشيوعية، وأنذرت من مخالفة قوانين البلاد واعرافها وتقاليدها، وكانت ناقوس الخطر يقرعه فتى العروبة والاسلام، منبهاً بأسلوبه الواضح الى الانحراف الذي تردت فيه تلك الوزارة وكادت تطوّح بالبلاد الى هوة الملحدين المستهترين.. ولقد أحدثت الرسالة ضجة كبيرة في الاوساط الأردنية والعربية والدولية. ففي الأردن لاقت ترحيباً حاراً لدى الغالبية العظمى بينما صعق لها الشيوعيون ومن حالفهم في الجنوح الى الهدم... أما الوزارة وأوساطها فقد اهتزّت للبيان الملكي، وانهارت جملة وتفصيلا، واعتبرت اذاعته من دار الاذاعة الأردنية الهاشمية، في اللحظة التي سلّم فيها الى رئيس الوزراء، دليلا على عدم الثقة بها نتيجة انحرافها وعدم احترامها القوانين والانظمة.

والواقع ان رسالة الملك أو بيانه ذاك، جاءت في حينها أمراً طبيعياً. فهو كملك مسلم، وهو كعربي، يتحتم عليه أن يدفع الخطر المحدق بالقيم الروحية والقيم القومية معاً. ثم هو بحكم الدستور الذي اقسم عليه، ملزم بحماية هذه القيم. أو لم ينص الدستور على أن دين الدولة الرسمي الاسلام!؟.. او لم ينص على أن الاردن جزء من الأمة العربية؟!. أو لم ينص الدستور على حق اخواننا المسيحيين في ممارسة عباداتهم وحقوقهم الدينية بكامل الحرية والطمأنينة؟!.. فهل يصح بعد هذا ان يسمح الملك للشيوعية بان تستشري، وللشيوعيين بان يمارسوا نشاطهم العلني المفضوح، ضاربين عرض الحائط بقانون مكافحة الشيوعية الذي اشترك في وضعه أو اقراره جميع هؤلاء الوزراء..

وهكذا كشفت الرسالة الملكية عن وجود خلاف واسع بين السياسة التي تنتهجها الحكومة، والسياسة التي يسلكها القصر وتطمئن اليها الأمة.

واجتمعت الوزارة النابلسية تبحث موقفها من رسالة الملك ، واذاعت محطة «صوت العرب» ونشرت صحف القاهرة ان الوزارة قررت ان تستقيل وانها كتبت استقالتها معللة بالأسباب الموجبه .

وفي الوقت الـــذي كان متوقعاً فيه أن يرفع سليمان النابلسي استقـــالة حكومته الى جلالة الملك ، تلقى من رئيس الاركان علي أبو نوار – الذي كان في زيارة لدمشق – اشارة هاتفية بالعدول عن الاستقالة وبالاستمرار في الحكم . وكان شفيق الرشيدات قد لحق بأبي نوار الى دمشق ، وتقابلا هناك مع السفير الروسي ، فما ان عادا الى عمان حتى انعقد مجلس الوزراء واتخذ قراراً بتبادل التمثيل الدبلوماسي مع روسيا السوفييتية . . . وكان هذا القرار رداً سافراً على رسالة الحسين لرئيس وزرائه . ولم تكتم (الميثاق) لسان حال الحزب الوطني الاشتراكي ، نبأ المقابلة التي تمت بين الرشيدات وأبو نوار والسفير السوفييتي بدمشق ، وكان التحدي في كل هذا واضحاً لكل ذي عينين ، ولا يحتاج الى تقصّ او اجتهاد ! . .

وفي هذه الاثناء أخذت تنتشر اشاعات حـــول قيام بعض الوحدات في الجيش باستعدادات للضغط على القصر ، لفرض رأي الحكومة عليه .. حتى لقد أخذت تلك الأخبار تتسم بما يهيىء لحركة انقلابية !.. ورأيت بنفسي كما رأى الكثيرون ، تحرك بعض الوحدات المدرعة وتمركزها على الطرق في مداخل عمان ، مما كان يثير الشكوك والريب ، في ظرف يشتد فيه الخلاف بين القصر والحكومة .. ولكن الاقوال في هذه الظاهرة الغريبة كانت تتضارب : فمن قائل

ان هذه التحركات كانت لصالح القصر ضد الحكومة .. ومن قائل انهـا عمل عسكري صرف من قبيل التمرينات المجردة .. ومن قائل انها تنفيذ الجيش لارادة حكومية !.. والحقيقة هي هذه الأخيرة ، فقد كانت تلك المناورات لحساب فئة في الوزارة ، وان قيل في تفسيرها انها «لتعداد السيارات الداخلة الى العاصمة والخارجة منها» ، الأمر الذي لا يقبله العقل نظراً لأن العلاقة في هذا انما هي علاقة دوائر الأمن والشرطة لا دوائر الجيش ! .

ولعل من الحق والانصـاف ان يشار هنـا الى ان علي ابو نوار لم يكن سلوكـه قويماً في ادارة الجيش . . اذكر انه التقاني مرة في حفلة للسفـارة البريطانية ، وتحدث الي عن ضرورة تعديل المعـاهدة الاردنية – البريطانية وضرورة زيادة المعونة المالية البريطانية وتسليح الجيش العربي الاردني على مقياس أوسع وافضل . وذكر لي انه أجرى مباحثات مع الانكليز وانهم رحّبوا بدعوته الى بريطانيا من اجل ذلك ، وطلب الي ان اعينه في هذا الموضوع من الناحية السياسية وان ادعم موقفه لدى جلالة الملك .

ولكني استطعت ان أعـلم من بعض الوزراء بعد ذلك ، ان علي ابو نوار فاوض الاميركيين على عقد معاهدة معهم بديل المعاهدة مع بريطانيا ، وطالب الوزارة في ان تقوم من جانبهـا بالاتصال بالاميركيين في هـذا الصدد . كما استطعت ان اعـلم من بعض النواب ان علي ابو نوار صارحهم بأن من الجنون استبدال المعونة البريطانية بأخرى عربية ، لأنه لا ضمان لاستمرار الدول العربية في دفع المعونة . .

والواقع ان علي ابو نوار مصاب بمرض الغرور . . غرور يبدو وكأنه جرأة يمتاز بها عسكري مهووس ! . وليس من شك في انه لم يكن يتمتع بعقلية سليمة ، وانه الى ذلك كان جباناً على عكس ما كان يبدي . وكنت شخصيا احس بانه يحقد عليّ ، بسبب انه كان طلب مني عندما الفت الوزارة في سنة ١٩٥٥ ان يكون في عـداد الوزراء معي ، فاعتذرت له بسبب صغر رتبته العسكرية . .

وقد افضى الي ضابط ثقة ، بان علي ابو نوار قد استغل اطلاعه على تصميم الملك ورغبته في اقصاء كلوب عن رئاسة الاركان ، فذهب ليلا واتصل بمفوضية عربيـة واطلعها على انه وبعض الضباط في سبيل القيـام بعملية للتخلص من كلوب ، وطالب بمعونة مادية لـه ولرفقائه الضباط ، وقد قبض فعلا مبلغاً كبيراً من المال ، ولكنه لم يدفع شيئا منه لأي من اولئك الرفاق .

كان يداعب خيال علي ابونوار ، مطمح افضى هو به لبعض اصحابه .. كان يحلم في قيام حكومة عسكرية يكون هو فيها رئيس الوزراء . ولعـل هذه الشهوة التي كانت تلح عليه هي التي كانت تخل باتزانه وتجعله متعدد الاتجاهات ، ولعلها هي التي سببت له وللبلد متاعب جمة . وكان يؤيـد بعض الـوزراء ويشجعهم ، فاعتمدوا على هذا التأييد والتشجيع ، بحيث تهيأت لهم بالنتيجة فكرة مناصبة القصر العداء . ولم يعد خافيا على أحد اذ ذاك ، ان الحكومـة ورئيس الاركان كانا في جانب ، وان القصر كان في جانب .. واقول «الحكومة» مع علمي بان بعض الوزراء لم يكن يحمل فكرة معاداة القصر ، ولكنه انساق مع تيار الوزارة انسياقاً . ويقيني ان رئيس تلك الوزارة قد ضاع في لجـة الاتجاهات المتضاربة بين زملائه ، وفقد سيطرته على نفسه ، مع انه في صميم نفسه لم يكن يقر تلك الاتجاهات المتطرفة .

وفي غمرة هذا التطاحن ، طلب الملك من الحكومة ان تقدم استقالتها .. وبعد مشاورات قام بها الرئيس النابلسي مع وزرائه ، ثم مع بعض كبـار الضباط ، انتهى الى تقديم الاستقالة . وكانت هذه مفاجـأة للكثيرين الذين لا يعرفون بواطن الأمور ، والذين كانت الظواهر أدخلت في روعهم في حمأة ذلك الصراع ، ان كفة الحكومة هي الراجحة .. فالجيش يدعم الحكومة ، والبرلمان يؤيدها ، وغالبية الشعب تصفق لها ! ..

وقد نسي هؤلاء ان علي ابو نوار ومن معه من الضباط ، وان كانت بيدهم مقاليد الجيش ، الا انهم لم يكونوا موضع احترامه وتقديره ومحبته ، علماً بانهم قفزوا الى مراكز القدرة في الجيش بغير ما جدارة او استحقاق ، وخصوا انفسهم ومن لف لفهم بالاستثناءات والترقيات ، وانتحلوا لأنفسهم اسم « الضباط الاحرار » ووضعوا غيرهم من الضباط موضع التهمة في التبعية لكلوب وأنهم من أعوانه ومن أذناب الاستعمار .. كما ان اقصاءهم عدداً كبيراً من هؤلاء الضباط الاكفاء الذين يتمتعون باحترام اكثرية الجيش الساحقة ، أثار عليهم نقمة الجيش في غالبيته ، وكانت تلك الغالبية تتحين الفرصة لضرب تلك الشلة من « الضباط الاحرار » ضربة المغيظ المحنق ! ..

أما البرلمان ، فقد علمتنا التجارب ان برلماننا يمنح ثقته لأية حكومة تأتي الى الحكم ، ولم يحدث عندنا ان مجلساً نيابياً اسقط حكومة من الحكومات .. وجاء الدليل يثبت هذه الحقيقة ، عندما جاءت الحكومة التي خلفت حكومة السيد النابلسي ، فمنحها المجلس ثقته وتأييده .

وأما الشعب فان رأي غالبيته العظمى قد ضاع في لجة الصخب والضجيج والارهاب الفكري التي اصطنعها الشيوعيون والهدامون ، ولم يكن له في حساب هؤلاء اي وزن عملي سوى الصراخ باسمه وادعاء تمثيله .. ولقد اخطأت حكومة النابلسي التقدير وجانبت الحقيقة ، إذ خيل اليها أن الشعب الاردني هو الشيوعيون والبعثيون واضرابهم .

ثم ان اولئك الذين فوجئوا باستقالة الحكومة النابلسية ، لم يفطنوا الى مسائل أساسية وحقائق جوهرية ، وفي طليعتها ان للملك رصيداً ضخماً من المحبة في نفوس الناس .. فهو من سلالة اعترف بزعامتها الزمنية والروحية العرب والمسلمون ، وقدمت من اجلهم التضحيات عبر التاريخ .. وهو حفيد الملك عبد الله باني هذه المملكة وموضع تقدير المواطنين واكبارهم وحبيب جميع العشائر والقبائل الأردنية .. والى هذا الأساس الكريم والأصالة المشرقة التي تحدر

منها الملك حسين ، فانه على صغر سنه وقصر المدة التي مارس فيها سلطاته الدستورية ، قد اندمج في الشعب وتفاعل معه وحقق له الكثير من رغباته وأمانيه . فهو مع الجيش في ثكناته وخنادقه ، ومع القرويين في قراهم ومزارعهم ، ومع كل فئة من فئات الشعب .. مع الرياضيين في ملاعبهم ، ومع البدو في مضاربهم ، ومع اللاجئين في مخيماتهم .. قد اكتسب فعلا حبّ الشعب وتقديره العميقين . ومما زاد في محبة الشعب وتقديره للحسين ، انه عندما تكشف الجيش عن حركة بعض الضباط المهاويس الغادرين فيه ، هبّ بنفسه الى الزرقاء فألهبت طلعته وفروسيته نفوس الجنود ابناء الشعب ، وكانوا ليفتكوا بذلك النفر من الضباط ، لو لم يحمهم هو من الجند الثائر له لا عليه ! . .

- ٥٠ -

كانت حادثة الزرقاء محكاً خطيراً فيه العبرة وفيه العظة لكل من يريد أن يتعظ . فقد أسفرت تلك الحادثة عن حقيقتين بارزتين دامغتين : الأولى عمق المحبة والولاء في أوساط الجيش لجلالة الملك ، ذلك العمق الذي لم يستطع أن يسبر غوره السطحيون الانتهازيون . والحقيقة الثانية هي الكراهية الشديدة التي كانت تجأر بها تلك الهتافات الساخطة على علي ابو نوار والتي أخذ يعج بها جو المعسكرات في الزرقاء .

والواقع ان هاتين الحقيقتين كانتا معلومتين لكل عارف ببواطن الأمور ، الا ان انحجاب العقل والضمير عن ابو نوار والجماعات الانتهازية التي كانت تحفّ به ، غيّبهما فتبدّتا لهؤلاء خافيتين بل ولا وجود لهما .

ولعل من المفارقات أن لا يستطيع علي ابو نوار أن يتابع سيره بمعية جلالة الملك الى معسكرات الزرقاء ، فيما كانت الهتافات والنداءات تطالب بقتله ، في كل نقطة للجيش كان يمّر بها الملك المحبوب وهو في طريقه الى الزرقاء .. فعاد أبو نوار الى عمان ، وقضى فيها ليلة مفزعة لم تقو على ان تهديء من روعه فيها جميع المسكّنات التي قدّمت للتهدئة من روعه ، ولمساعدته على التخفيف من حدة الانهيار الذي انتابه . وبدا منظره – وهو في بيت السيد سعيد المفتي – يستدر الشفقة عليه والرثاء له ! . . . وبلغ ذلك جلالة الملك فأذن له بمغادرة البلاد الى سوريا ، وهكذا كان .

كانت الدوافع لحركة الزرقاء ، عرقلة المساعي المبذولة اذ ذاك لاقامة حكومة تعقب حكومة النابلسي ، وللضغط على جلالة الملك لاعادة تلك الحكومة الى الحكم . وقد انبث نفر من الضباط من أعوان ابو نوار في مختلف المعسكرات وأخذوا يحاولون تحريض القطعات في السر والعلانية للوقوف الى جانبهم .. كما اصدروا الاوامر الى بعض القطعات التي لم تسايرهم في قصدهم وخطتهم ، للقيام بمناورات بعيداً عن العاصمة ، اقصاء لها وضماناً لعدم وقوفها في وجههم . الا ان هذه الحيلة لم تجز على قطعات الجيش ، فقامت هذه بتطويق الثكنات التي يقطنها أعوان علي ابو نوار ، ولولا وصول جلالة الملك في اللحظة المناسبة لفتك الجيش بهؤلاء جميعاً .

ولقد رافقت حوادث الزّرقاء سلسلة من المحاولات ، لتأليف حكومة جديدة . ولأول مرة في تاريخ الأردن ، ظهرت بين أوساط بعض المستوزرين نزعة العزوف عن الاستيزار .. ولم يكن ذلك العزوف بالطبع لأسباب عقائدية أو مبدأية ، وانما كان بسبب الخوف والفزع ، وخشية التورط في تحمل المسؤولية في الوقت العصيب . . لا سيما وان حرب الاعصاب كانت بلغت

الذروة من حدتها ، وكان الراغبون في الضغط على جلالة الملك هم الذين ساعدوا على اشتداد اوارها لتبلغ تلك الذروة من الحدة . فكان اللواء علي الحياري – مثلا – يهوّل من سوء الحالة ومن موقف الجيش ومن الاخبار المتناقضة ، وكان بنفسه ينقل اخبار تحركات القطعات السورية بكثير من المبالغة واصطناع الفزع .

والوحيد الذي ظلّ على ثباته ورباطة جأشه وصلابة ايمانه ، هو جلالة الملك . فقد كان وسط تلك الدوامة من التهويل ، كالجبل الاشم الذي لا يتزعزع .

ولعل من الانصاف هنا ، ان اذكر حابس المجالي الذي كان قدم استقالته من الجيش في اواخر عهد ابو نوار . فعندما تأزمت الامور عاد الى الخدمة وساعد ببروده وثباته كضابط كبير ، على ان يكون مثال الجندي المطيع المقدام في خدمة مليكه وقت الشدة .

وفي هذه الاثناء كانت الاجتماعات تتوالى في القصر الملكي .. وفي اجتماع كان اكبر تلك الاجتماعات ، وبنتيجة اتفاق بين جميع الاحزاب والمستقلين ، برزت وزارة الدكتور حسين فخري الخالدي ، وقد ضمت بالاضافة الى الخالدي ، السادة سعيد المفتي وفوزي الملقي وسليمان النابلسي وسليمان السكر والدكتور مجج .

وكان اول ما فعلته الوزارة الخالدية أنها عينت رئيساً للاركان يخلف علي ابو نوار . وقد كان متوقعاً ان يعيّن حابس المجالي اذ ذاك ولكنه اعتذر مبدياً رغبته في عدم تخطّي اقدمية علي الحياري في الرتبة ، وعيّن الحياري رئيساً للاركان ، وتمت مراسيم تعيينه بأن اقسم على القرآن الكريم في ما يشبه الاحتفال المهيب .

وتوقع الجميع لوزارة الدكتور الخالدي ان توفق في مهمتها ، نظراً لانها تضم اربعة من رؤساء الوزارات ، ونظراً لما يفترض فيهم من تجربـة وتمرّس بالمسؤولية ، ولأنها تألفت نتيجة اتفاق جميع الجهات المعنية اذ ذاك بسياسة البلد .

غير ان الامور سارت على غير ما كان يؤمل المؤملون . فالجهات التي حسبت ان في وسعها السيطرة على الجيش وعلى الشارع ، وحسبت ان في مقدورهـا الضغط على الملك ليتصرف وفق مشيئتها وهواها ، ظلت تعمل وتتآمر وتؤلب على النظام ، وظلت سـادرة في سوء تقديرها للامور ، ولم تتعظ بمـا جرى في الزرقاء ..

ففي الايام القليلة الأولى من تأليف الوزارة ، فوجىء الناس بفرار رئيس الأركان علي الحياري الى دمشق ، وعمت الدهشة الوزارة والناس ، لهذا الفرار المفاجىء الذي لم تتضح له مقدمات واسباب معروفة آنذاك . اذ المعروف عن علي الحياري انه كان من محاسيب كلوب ، شأنه في ذلك شأن علي ابو نوار وغيره ممن اسموا انفسهم بالضباط الاحرار ! . والمعروف كذلك ان هؤلاء كان همهم تحريض كلوب على اضطهاد معظم الضباط الآخرين .. والذي يبدو ان مفاهيم تحرر « الضباط الاحرار » قلبت هذه الحقائق المعروفة راساً على عقب ، ففر الحياري فجأة الى دمشق كما قلنا ، وهناك عقد هو وابو نوار مؤتمراً صحفياً ، وظهرا معاً في الصور في صحف دمشق « ضباطاً احراراً » ! . .

وهكذا اتضح ان الحياري كان يلعب على الحبلين ،وانه كان تورط مع علي ابو نوار ، بحيث بات يخشى على نفسه من الانكشاف والفضيحة إن هو بقي في البلاد ، فآثر الفرار على البقاء ، وحسّن له ذلك وشجعه عليه ايهام جماعة ابو نوار بأن فراره سيربك المسؤولين في عمان .

وفي هذه الاثناء اجتمع ممثلو الاحزاب في نابلس ، اجتماعهم الذي سحبوا فيه ثقتهم من الدكتور الخالدي ، وتقدموا بمطالب منها اعادة الضباط الفارين.. واستمرت حرب الأعصاب التي لم يقو الخالدي على مواجهتها ،ولا سيما وانه ووزراءه قد وقعوا في سوء تقدير الموقف الذي وقع فيه الانتهازيون من حيث وزن القوى التي كانت تتصارع في البلد .

واستقال الدكتور حسين فخري الخالدي ، في الوقت الذي كان يقضي الواجب عليه ان يصمد وان يثبت في الحكم الى ان تستتب الأمور ويعود الى البلد استقراره .

وعلى أثر استقالة الوزارة الخالدية ، تألفت وزارة المرحوم ابراهيم هاشم ، وأعلنت الأحكام العرفية ، وبدأت نهاية عهد الاضطراب والفوضى .. ذلك العهد الذي ساد فيه النكد والاضطراب ، ربوع وطننا العزيز ، مدة تزيد عن السنة .